كتاب

كليلة ودمنة

نقله من الفهلوية

عبد الله بن المقفع

أقدم النسخ وأصحها

نور محمد، کارخانہ تجارتِ کتب آرام باغ کراچی

كليلة ودمنة

كليلة ودمنة

نقله من الفهلوية

عبد الله بن المقفع

أقدم النسخ وأصحها درسها وعلق عليها

الدكتور طه حسين بك والدكتور عبد الوهاب عزام

يُطلب من

نور محمد كارخانه تجارتِ كتب آرام باغ، كراچي

الإهداء

إلى القراء العرب

كليلة ودمنة علم اشتهر فى الخافقين ، وتردد ذكره حتى شمل - أوكاد - جميع بقاع المعمورة فقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغات الأوربية ، كما ترجم إلى الفارسية والعربية واليونانية والتركية والحبشية والعبرية وغيرها من لغات الشرق .

ويطيب لدار المعارف أن تقدم لقرائها الأعزاء الطبعة الثانية لأثر أجنبى نفيس ترجم إلى العربية وظهر فى ثوب قشيب وطباعة أنيقة ، وهى إذ تصدر هذه الدرة النفيسة بقلم أديب عربى من الفحول أصحاب الأساليب وهو عبد الله بن المقفع ، تعتز أيما اعتزاز بهذه الهدية ، تزجيها إلى القارئ العربى الكريم وهو يعيش فى خضم هذا العالم القلق الذى يغتال فيه الإنسان أخاه الإنسان ، وتعدو فيه دولة باغية على أمة صغيرة فتخنق حريتها وتبطش بأهلها ، وتسفك منها الدماء بلا إثم ولاجريرة ، والدار موقنة بأن هذا القارئ سوف يلتمس فى هذا الكتاب الحكمة والسداد ، وقد أجراها الكاتب على ألسنة الطير والحيوان وهما يبرآن أحياناً مما يهبط إليه الإنسان من غدر وطغيان .

والله الموفق .

دار المعارف

التصدير
للدكتور طه حسين بك

هذه طرفة قيّمة تهديها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر إلى قراء العربية فتمتع بها عقلهم وذوقهم وشعورهم وحسهم معاً. وتقديمها إليهم فى هذه الأيام المظلمة المؤلمة ، التى قلما يظفر الناس فيها بهذا المتاع الممتاز الخالص الذى ينعمون به فى أيام السلم ، فضل يضاف إلى فضل وإحسان يضاف إلى إحسان .

فى هذه الأيام التى لا يلتقى الناس فيها إلا تحدث بعضهم إلى بعض عن آلام الحرب وآثامها ، والتى لا يخلو الناس فيها إلى أنفسهم إلا فكروا فى سيئات الحرب وموبقاتها ، والتى لا يصبح الناس فيها ولا يمسون إلا على أنباء منها ما يسر ولكنه سرور فيه جرة السم وريح الموت ، ومنها ما يحزن ويسوء ولكنه حزن لا كالأحزان : حزن عميق كثيف مطبق ، يعرف أوله ولا يعرف آخره .

فى هذه الأيام التى يحاول الناس فيها أحياناً أن يفروا من أنفسهم وأن يفزعوا إلى

القراءة وإلى غيرها من وسائل المتاع العقلى لعلهم يجدون فيها راحة من أنباء الحرب وخطوبها الباهظة ، فلا يقرأون إلا ما يتصل بالحرب ، ولا يجدون من لذات الفن إلا ما بينه وبين الحرب سبب قريب أو بعيد .

فى هذه الأيام المؤذية المضنية يحمد الناس لمطبعة المعارف ومكتبتها أن تقدم إليهم هذه المتعة القديمة الجديدة التى مضت عليها القرون والقرون ، وستمضى عليها القرون والقرون وهى محتفظة دائماً بشباب نضر غض لا يعرض له التواء ولا يدركه الذبول . وهم ينظرون فيها كما تُقدم إليهم الآن فيجدون لذة لأبصارهم ، ولا يكادون يقرأون فيها حتى يجدوا هذه اللذة الفنية الممتازة النقية التى تخرجهم من هذه البيئة الثقيلة البغيضة التى يكره الناس على الحياة فيها الآن . فهى منفذ يخلصون منه بين حين وحين ساعة من نهار أو ساعة من ليل إلى جو نقى طاهر فيه للقلب رضا ، وفيه للعقل غذاء ، وفيه للحس راحة ، وفيه للنفس رَوْح .

ويروقنى أن أرى فى هذه الطبعة الجديدة من كتاب "كليلة ودمنة" رموزاً سامية صادقة لمعان سامية نحبها أشد الحب ونطمح إليها أشد الطموح .

فى هذا الكتاب حكمة الهند ، وجهد الفرس ، ولغة العرب . وهو من هذه الناحية رمز صادق دقيق لمعنى سام جليل ، هو هذه الوحدة العقلية الشرقية التى تنشأ عن التعاون والتضامن وتظاهر الأجيال والقرون بين أمم الشرق على اختلافها ، والتى حققتها الحضارة الإسلامية على أحسن وجه وأكمله أيام كانت هذه الحضارة حية قوية مؤثرة فى حياة الأمم والشعوب ، والتى نريد الآن أن نرد إليها قوتها الأولى وجمالها القديم .

هذه الحكمة الخالدة الساذجة التى أفاضها روح الهند ، ونقلها عنهم جهد الفرس ،

وصاغها فى هذه الصورة العربية الرائعة ذوق العرب ، وتوارثتها الأجيال بعد ذلك فنقلتها من بيئة إلى بيئة ، ومن شعب إلى شعب ، حتى جعلتها جزءا من التراث الإنسانى الخالد ، هذه الحكمة فى صورتها العربية رمز لما نحب أن يكون من تعاون الأمم الشرقية على إشاعة البر والتقوى ، وإذاعة الخير والمعروف ، ومقاومة الإثم والعدوان .

وفى هذه الطبعة التى تقدمها مطبعة المعارف ومكتبتها إلى الناس رمز آخر صادق دقيق المعنى آخر سام جليل ، نحبه أشد الحب ونطمح إليه أشد الطموح ، وهو هذا التعاون المنتج بين قديمنا العربى القيّم ونشاطنا العصرى الخصب . هذا الجهد الذى أنفقه ابن المقفع فى نقل "كليلة ودمنة" إلى العربية ، وهذه الجهود التى أنفقها المسلمون بعده فى درس الكتاب وتصحيحه وتنقيحه والاستفادة منه والانتفاع به ، لم تذهب سدى ؛ بل لم تنقطع ولم تقف عند حد محتوم ، ولكنها اتصلت بين الأجيال ، يضيف إليها كل جيل ما قصرت عنه الأجيال الأخرى حتى وصلت إلينا فلم نعرض عنها ، ولم نزهد فيها ، ولم نأخذها كما هى فى قناعة وكسل وفتور ؛ وإنما أقبلنا عليها مشغوفين بها راغبين فيها ، وأخذنا نضيف إليها ما عندنا كما أضاف إليها الذين سبقونا ما كان عندهم .

فالجهد القيّم الذى بذله الأب شيخو حتى أخرج للناس أقدم نسخة ظفر بها لم يقف عند الحد الذى وصل إليه الأب شيخو ، ولكن زميلى الدكتور عبد الوهاب عزام يضيف إليه جهداً جديداً قيماً ، فينشر نسخة جديدة أقدم من نسخة الأب شيخو بأكثر من قرن من الزمان ، ويمكّن التاريخ الأدبى والنقد الأدبى من أن يعيدا نظرهما فى هذا النص القديم ويستخلصا منه نتائج جديدة لها قيمتها وخطرها . ومن المحقق أنّ هذا الجهد الذى بذله الدكتور عبد الوهاب عزام لن يقف عند هذا الحد ولن ينتهى إلى

هذه الغاية . فقد كان يريد ، وكانت مطبعة المعارف ومكتبتها تريد منه ، جمع أكثر عدد ممكن من النسخ المخطوطة لهذا الكتاب ومعارضتها والموازنة بينها واستخراج أصح نص ممكن من هذه المعارضة والموازنة ، فحالت الحرب بينهما وبين ما كانا يريدان ، ولكنها لم تمنعهما من أن يقدما إلى الناس أقدم نص لهذا الكتاب عرف إلى الآن .

والحرب منقضية يوماً ما ، والسلم مقبلة يوماً ما ، وجهود الذين يحبون العلم ويسعون على إحيائه وتنميته وإذاعته إن وقفت الآن فهى مستأنفة غداً أو بعد غد . وما أشك فى أنّ الدكتور عبد الوهاب عزام سيستأنف الجد والبحث ، وسيجمع النسخ المخطوطة التى لم يظفر بها بعد ، وسيمضى فى المعارضة والموازنة ، وسيتقدم بنص "كليلة ودمنة" إلى الصحة والدقة والقدم خطوات أبعد من هذه الخطوة البعيدة التى خطاها بطبع هذه النسخة .

وما ينبغى أن نسرف فى الطمع ، ولا أن نتعجل الزمن ، ولا أن نجارى طموحنا الجامح ، ولا أن نغض مما يتاح لنا من التوفيق والفوز . فليس قليلاً بل كثير جداً أن يخطو الدكتور عبد الوهاب عزام ، وتخطو معه مطبعة المعارف ومكتبتها ، فإذا خطوتهما تقدم كتاب "كليلة ودمنة" نحو الصحة والدقة والقدم أكثر من قرن من الزمان .

وفى هذه الطبعة رمز آخر صادق دقيق لمعنى آخر سام جليل ، نحبه أشد الحب ونطمح إليه أشد الطموح ، وهو التعاون المنتج بين علمائنا الشرقيين المحتفظين بشخصيتهم وبين علماء الغرب الذين برّزوا فيما حاولوا من البحث العلمى . فقد أصبحت العزلة العلمية سخفاً لا يطمع فيه إلا الذين قصرت هممهم وفترت عزائمهم وضعفت عقولهم عن فهم الحياة كما ينبغى أن تفهم . وأصبح الجهد العلمى حظاً شائعاً بين الأمم المتحضرة جميعاً ، قوامه التعاون الصادق بين العلماء مهما تختلف أوطانهم وأجناسهم

وبيئاتهم . وقد بذل الدكتور عبد الوهاب عزام فى هذه الطريق جهداً قيماً حقاً . فهو لم يقف ، وما كان له أن يقف ، عند الجهود الشرقية الخالصة التى بذلت لنشر هذا الكتاب ؛ ولكنه ألمّ بالجهود التى بذلها الأوروبيون والأمريكيون منذ عرفوا "كليلة ودمنة" ، فأصلح منها ما أصلح ، وقوّم منها ما قوّم ، وأضاف إليها ما أضاف ، وعرض ذلك علينا فى مقدمته الممتعة مع هذه الأمانة الساذجة المتواضعة التى تليق بالعلماء والتى لا يليق غيرها بالعلماء . ويكفى أنّ الذين يقرأون هذه المقدمة سيحيطون إحاطة دقيقة شاملة بكل الجهود التى أنفقت حول هذا الكتاب منذ أخذه الفرس عن الهند إلى أن وصلت إلينا طبعته الأخيرة فى هذا العام .

وفى هذه الطبعة رمز آخر صادق دقيق على سذاجته ويسره لمعنى سام جليل نحبّه ونؤثره وتطمئن إليه نفوسنا اطمئناناً فيه كثير من الدعة والحنان . فطبعة المعارف ومكتبتها إنما عنيت بنشر هذه الطبعة ، وأنفقت فى ذلك ما أنفقت من جهد ومال ، واحتملت فيه ما احتملت من مشقة وعناء ، لم تصرفها عنه الحرب ، ولم تصدها عنه الظروف التى تصد أمثالها عن أمثاله ، ووفقت فيه إلى ما وفقت إليه من الإجادة والإتقان . فعلت هذا كله لسبب يسير ولكنه خطير فهى تريد أن تحتفل بمرور نصف قرن على إنشائها . وهى لم تجد إلا هذا العمل العلمى الأدبى الفنى وسيلة إلى هذا الاحتفال . وهى بهذا تحيى ذكرى منشئ المطبعة ومكتبتها فتسجل وفاء الأبناء البررة للأب العطوف . وهى بهذا تحيى هذا الجهد المتصل الذى أنفق فى غير ضعف ولا ملل أثناء نصف قرن فى نشر العلم وإذاعة الثقافة فى الشرق العربى كله . وهى بهذا — آخر الأمر — تحيى هؤلاء القراء ، أو قل هذه الأجيال من القراء الذين اتصلوا بها

منذ نشأت ، والذين عرفوا العلم والثقافة من طريقها . تحيّيهم لأنهم وفوا لها كما وفت لهم ، وتحيّيهم لأنهم يثقون بها كما تثق بهم ، وهى حين تهدى إليهم هذه التحيّة الرائعة تنبئهم فى ظرف وخفة بأنها ستمضى فى مستقبل الأيام كما مضت من قبل فى طريقها إلى نشر العلم والأدب والثقافة ، متوخية ما يجب أن يتوخاه الناشر الأمين من العناية بالدقة العلمية والجمال الفنى ، والحرص على إرضاء العقل والذوق والشعور جميعاً .

وأظن أنى لا أتجاوز إرادة القراء إذا أهديت إلى مطبعة المعارف ومكتبتها وإلى الدكتور عبد الوهاب عزام تحيّة ملؤها التقدير والإعجاب والأمل .

طه حسين

القاهرة فى ٥ أبريل سنة ١٩٤١

المقدّمة
للدكتور عبد الوهاب عزّام

القسم الأول

طبعات الكتاب وأصولها

١ – لماذا نُعنى بهذا الكتاب

كأنى ببعض من يطّلعون على هذه الطبعة لكتاب "كليلة ودمنة" أو يسمعون بها يقولون : ما لهذا الكتاب يُعنى به ، ويُبذل فى تصحيحه وتوضيحه ومقابلة نسخه وبيان تاريخه هذا الجهد العظيم ، وتنفق على نشره هذه الأموال الكثيرة ، وهو كتاب تكرر طبعه فى الشرق والغرب ، وتوالت طبعاته فى مصر منذ عهد محمد على باشا إلى اليوم ، واتخذته وزارة المعارف كتاباً مدرسياً فلا تجد فى مصر عالماً أو متعلماً إلا اطّلع عليه وقرأه كله أو بعضه ؟ وإنى أعجّل الجواب لهؤلاء فأقول :

قليل من الكتب نال من إقبال الناس وعنايتهم ما نال هذا الكتاب ! فقد تنافست الأمم فى ادّخاره منذ كُتِب ، وحرصت كل أمة أن تنقله إلى لغتها . فليس فى لغات العالم ذات الآداب لغة إلّا تُرجم هذا الكتاب إليها . وبحق عُنيت الأمم بهذا الكتاب العجيب الذى يحوى من الحكم والآداب وضروب السياسة وأفانين القَصص ما يملأ القارئ عِبرة وإعجاباً وسروراً .

والأمم العربية أولى أن تُعنى بهذا الكتاب فى لغتها ، وأجدر أن تهتمّ بتأريخه وتوضيحه ونقده لأسباب عدّة :

أولها أنّ النسخة العربية أصلٌ لكل ما فى اللغات الأخرى - حاشا الترجمة السريانية الأولى - فقد فُقِد الأصل الفهلوىّ الذى أُخذت عنه الترجمة العربية . وفُقد بعض الأصل الهندى الذى أُخذت عنه الترجمة الفهلوية ، واضطرب بعضه . فصارت النسخة العربية أُمّا يرجع إليها من يريد إحداث ترجمة أو تصحيح ترجمة قديمة ؛ بل يرجع إليها من يريد جمع الأصل الهندى وتصحيحه .

والثانى من الأسباب أنّ هذا الكتاب كُتب باللغة العربية فى منتصف القرن الثانى من الهجرة . فهو من أقدم ما بين أيدينا من كتب النثر العربى ، وأسلوبُه مثال من أقدم أساليب الإنشاء فى لغتنا ؛ وهو لذلك جدير بعناية مؤرخى الأدب العربىّ .

والثالث أنّ هذا الكتاب نُقل من الفارسية إلى لغتنا . ولمؤرخى الآداب كلام كثير فى تأثير الأدب الفارسى فى الأدب العربى فى تلك العصور . والترجمة من أقوى الوسائل لتأثير أدب فى آخر . فدراسة هذا الكتاب تُبيّن صلة ما بين الفارسية والعربية فى القرن الثانى ، وتبين أنّ الأساليب العربية أخذت من الأساليب الفارسية أو لم تأخذ .

والرابع من دواعى العناية بهذا الكتاب أنّ عندنا منه نسخاً مختلفة لا تتفق اثنتان منها اتفاقاً تاماً ، ويعظم الخلاف بين بعضها بالزيادة والنقص فى بعض الأبواب وبعض القِصص والأمثال ، وبالإطناب والإيجاز واختلاف الألفاظ فى الموضع الواحد حتى يعجب القارئ الذى يقيس نسخاً من الكتاب بأخرى ، ويغلب على ظنه أنّ الكتاب ترجم إلى العربية أكثر من مرة وسيأتى بيان هذا .

وقد عثر الأستاذ هرتيل (Johannes Hertel) على كتاب "پنچ تنترا" الهندى وهو أصل من أصول "كليلة ودمنة" . ودعا بعضُ المستشرقين إلى تحرّى النص الصحيح العربى ليستعان به على تصحيح الأصل الهندى .

وعُنى الأستاذ برستيد (James H. Brestead) رئيس المعهد الشرقى فى جامعة شيكاغو بدراسة النصوص العربية لكتاب "كليلة ودمنة" . وكتب الأستاذ سبرنجلين (Sprengling) من أساتذة هذه الجامعة مقالاً مفصلاً فى الجريدة الأمريكية للغات والآداب السامية (The American Journal of Semitic Languages and Literatures عدد يناير سنة ١٩٢٤) بيّن فيه عناية هذه الجامعة بتصحيح النص العربى للكتاب ، وعدّد المخطوطات الكثيرة التى جمعت من أرجاء العالم لهذا المقصد ، ودعا الأدباء فى الشرق والغرب إلى إمداده بما عندهم من نصوص وآراء لهذا العمل .

٢ — طبعــات الكتاب

فإن كان الكتاب لهذه الأسباب جديراً بعناية أدباء العربية ، قميناً بأن يطبع مستوفياً حقه من التصحيح والنقد ، فهل طبع الكتاب مرة على هذه الشاكلة ؟ ليس فى طبعات

الكتاب التى ظهرت فى أوربا والبلاد العربية وبلاد الشرق الإسلامى طبعة واحدة جديرة بثقة القارئ الناقد ، صالحة أن يعتمد عليها مؤرخ لهذا الكتاب أو مؤرخ للأدب العربى . وبرهان هذه الدعوى فيما يلى :

ا — طبعة دى ساسى

طبع الكتاب لأول مرة فى باريس سنة ١٨١٦ م ، طبعه المستشرق الكبير سلفستر دى ساسى (Sylvestre de Sacy) . ويتبين من المقدمة التى كتبها الناشر أنه رأى كثرة الاختلاف بين النسخ التى وجدها فى باريس فاختار أقدمها فى رأيه ، وصححها ونقحها من نسخ أخرى . وكانت النسخة التى اختارها فى حاجة إلى التكميل والتصحيح والتنقيح ، فيها نقص تداركه بعض القراء بخط حديث ، وفيها مواضع ذهب بها البِلى ، وكلمات محيت فوضعت موضعها أخرى . فالكتاب الذى نشره دى ساسى لا يقدّم للناقد نسخة واحدة تصلح للنقد والمقايسة ، ولكن نسخة ملفقة . ولهذا لم يثق بها المستشرقون الذين عنوا بالموضوع أمثال فلكنر (Falconer) وجويدى (Guidi) ورايت (Wright) وزتنبرج (Zotenberg) . وشاركهم الأب شيخو فى رأيهم . يقول نلدكه (Noldeke) : « يمكن أن يقال إنّ اختيار أى مخطوط ردىء للطبع كان أجدى على النقد » (Kalilah and Dimnah by Falconer ص xvii) . وقد وجد نلدكه أنّ النسخة التى كانت أقل النسخ حظا من عناية دى ساسى هى أقرب النصوص إلى النسخة السريانية القديمة .

ب — الطبعات المصرية

وكل الطبعات التى طبعت فى مصر كانت تكراراً لهذه الطبعة ؛ فالطبعتان اللتان أخرجتهما مطبعة بولاق سنة ١٢٤٩ وسنة ١٢٥١ هـ فى عهد محمد على باشا ، صورتان من

طبعة دى ساسى إلا كلمات قليلة . يقول مصحح الكتاب فى المقدمة :

« فصادف سعده (أى محمد على باشا) المقترن من الله بالمنة ، وجود نسخة مطبوعة بالعربىّ فى غير بلاد العرب من كتاب كليلة ودمنـة . وهى التى ترجمها عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور فى أيام أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور . وكانت ترجمتها من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية . واتفق الناس على صحة تلك النسخة لشهرة مصححها بالألمعية . (وهنا ينقل المصحح فقرات من مقدمة دى ساسى تبين طريقة هذا المستشرق فى تصحيح الكتاب) .

« ثم إنّ تلك النسخة المطبوعة عرضت هى وغيرها على شيخ مشايخ الإسلام وقدوة مُحمّد الأنام مولانا الشيخ حسن العطار ، أدام الله عموم فضله ما دام الليل والنهار . فقال : يصح ألّا يوجد لها فى الصحة مثال ، لشهرة مصححها بالضبط وسعة الاطلاع على الأقوال . وحينئذ اتفقت الآراء على أن يكون المعوّل فى طبع ذلك الكتاب عليها ومنتهَى اختلاف النسخ ووفاقها إليها . فبادرتُ إشارة الأمر بصريح الامتثال ، وسرّحت فى رياض تلك النسخ سالم الطرف والبال . فوجدت المطبوعة أفصحها عبارة ، وأوضحها إشارة ، وأصحّها معنى ، وأحكمها مبنى ؛ غير أن فيها لُفَيظات حادت عن سَنن العربية ، وبعض معان مالت بها الركاكة عن أن تفهم بطريقة مَرضية . فقرّيت أضياف المعانى بأىّ لفظ تشتهيه . ورَبّ البيت أدرى بالذى فيه . خصوصاً مع وجود الموادّ التى تكشف عن وجوه الصحة نقاب الاشتباه ، ومن كان ذا مَكِنة فلينفق مما آتاه الله . مستميناً على ذلك بما لدىّ من النسخ التى بخط القلم ، معوّلا على عناية من علّم الإنسان ما لم يعلم » .

وكل الطبعات التى توالت فى مصر كانت تكراراً لطبعة بولاق إلا فصولا وجملا ألفيت غير ملائمة للآداب فحذفت .

ج — طبعتا اليازجي وطبـارة

والطبعات الشامية كذلك اعتمدت على طبعة دى ساسى وما حكاها من طبعات مصر مع تصحيح أو تلفيق بينها وبين بعض المخطوطات .

ذكر الشيخ خليل اليازجي فى مقدمة طبعته أنه عثر على نسخة مكتوبة منذ ثلاثمائة سنة ، وقايس بينها وبين النسخة المطبوعة فى مصر ونسخة دى ساسى ، ووجد بينهما اختلافاً كثيراً ، ثم قال : « وقد جمعت بين النسخ الثلاث وطبقت بينها بأن اخترت من كلٍ منها أحسنها مع نقل المزيد فى نسخة الخط المشار إليها وإصلاح ما فى النسخ الثلاث من أغلاط النساخ وغيرها وزياداتٍ أخر زدتها مما عنّ للخاطر الضعيف للربط بين فواصل الكلام أو لاستدعاء المقام لها أو لاستحسان موقعها أو استطراداً جرّ إليه سياق الكلام مما يظن أن النسخة الأصلية لم تخلُ عن شيء بمعناه وغير ذلك مما جرأنى عليه الرغبةُ فى ردّ هذا الكتاب الجليل ما أمكن إلى رونقه القديم وإن كان يقصر عن ذلك ذرعى ويضيق وُسعى ولكنى فعلت رجاء أن أستمين به عليه وأتطرّق منه إليه . فتيسّر لى أن أجمع من النسخ الثلاث نسخة وافية جديرة بأن تنزّل منزلة النسخة الأصلية » . ثم يذكر أنه حذف أمثالا وعبارات لا تلائم آداب العصر، ولا تصلح لقراءة التلاميذ .

وأما نسخة أحمد حسن طبارة التى استعان على تصحيحها السيدَ مصطفى المنفلوطى فيقول فى مقدمتها إنه عثر على نسخة مصوّرة كتبت سنة ١٠٨٦ هـ ، فعزم على طبعها ، ثم يقول : « فعنيتُ أولا بمقابلتها على ما توفّر لدىّ من نسخها كنسخة باريس المطبوعة سنة ١٨١٦ ونسخة مصر المطبوعة سنة ١٢٩٧ ونسخ بيروت الشهيرة واخترت منها

ما كان أقربها إلى الأصل وأبعدها عن التحريف والتبديل وأسلمها من الزيادة والنقصان » .

فترى من هذا أن نسختى اليازجي وطبارة ، على ما لَقِيَتا من تصحيح وعناية ، قد لُفّقت لها نسخ مختلفة ، ووقع فيهما من تصرف الناشرين ما يذهب بقيمتهما التاريخية ، ويقلل خطرهما فى رأى الناقد .

د — طبعة شيخو

يقول الأب شيخو فى المقدمة الفرنسية التى قدّمها لطبعته إنه عثر فى دير الشير فى لبنان على مخطوط من كتاب "كليلة ودمنة" كتب سنة ٧٣٩ هـ ، وإنه رأى فى أسلوبها شبهاً بما يُعرف من أسلوب ابن المقفع ، ورأى أنها أقرب النسخ إلى الأصل الهندى "بنج تنترا" وإلى الترجمتين السريانيتين : الترجمة القديمة المأخوذة عن الفهلوية ، والحديثة المأخوذة عن العربية ، وإنه طبع الكتاب كما هو ، لم يصحح أغلاطه ولم يوضح غامضه ليكون أمام المستشرقين صالحاً للمقارنة والنقد .

ثم يقول إنه ألحق بالكتاب الأبواب التى ليست فى نسخته ، مطبوعةً بحروف صغيرة تميزها عن الأبواب التى فى نسخته .

ولا ريب أنّ طبعة شيخو — على ما فيها من سقط وغلط وتحريف كثير ، بعضُه يدرَك صوابه لأول نظرة ، وبعضه لا يدرَك إلا بعد طول بحث ومقارنة — لا ريب أنّ هذه الطبعة أول طبعة فى اللغة العربية تقدّم للقراء نصًّا كاملا غير ملفّق من كتاب "كليلة ودمنة" ، وتصلح أن تكون حلقة فى سلسلة البحث عن أصل هذا الكتاب كما تُرجم عن الفهلوية .

ثم قال الأب شيخو فى آخر مقدمته إنه سيصحح نسخته من مخطوطات أخرى ليجعل منها نسخة مدرسية . وقد أخرج من بعدُ نسخة مدرسية مصححة .

وهذا مثال من نسخة شيخو يبين تحريفها . ويُرى استدراك الأب شيخو بين هاتين العلامتين ( ) واستدراكنا بين العلامتين الأخريين [ ] : «ولست أجدنى مخصوصاً [مخصوماً] فى هذه المقالة لأنى لم أخالفه فى شىء من ذلك قط على رؤوس جنده إلا وقد تدبَّرَ [تدبرت] فيه المنفعة والزين . ولم أجاهره بشىء من ذلك قط على رؤوس جنده ولا عند خاصته وأصحابه ولكن كنت أخلو به فألتمس ما أكلّمه من ذلك كلام القانت لربه الموقن له وعرفت أنه من طلب الرخص من النصحاء عند المشاورة ومن الأطباء عند المرضى وعند الفقهاء فى الشبهة (كذا) [والفقهاء عند الشبهة] أخطأ منافع الرأى وازداد فى الرأى المرض (كذا) وجعل الوزْر فى الدين [فقد أخطأ الرأى وزاد فى المرض واحتمل الوزر] . فإن لم يكن هذا فعسى ذلك أن يكون من بعض سكرات السلطان فإن من سكراته أن يرضى عن من [عمّن] استوجب السخط ويسخط على من استوجب الرضا (الرضى) من غير سبب معلوم . وكذلك قالت العلماء : خاطرٌ من لجّج فى البحر وأشدُّ منه مخاطرة صاحب السلطان فإن هو صحبهم (كذا) [يستعمل السلطان جمعاً وهو استعمال صحيح قديم] بالوفاء والاستقامة والمودة والنصيحة خليق (كذا) لأن يعثر فلا ينتعش أو يعد (يعود) وقد أشفى على الهلكة ان ينتعش وان لم يكن هذا فلعلّ بعض ما أعطيتُه من الفضل جُعل فيه هلاكى . فإنّ الشجرة الحسنة ربما كان فسادها فى طيب ثمرتها إذا تُنُوِّلت [تنوولت] أغصانها وجُذبت حتى تُكسر وتفسد . والطاووس ربما صار ذنبه الذى هو حسنه وجماله وبالا عليه فاحتال (فإذا احتال) [لا حاجة لما بين القوسين] إلى الخفة

والنجاة ممن يطلبه فيشغله عن ذلك ذنبه . والفرس الجواد القوىّ ربما أهلكه ذلك فأقصد (كذا) [فأجهد] وأتعب واستعمل لما عنده من الفضل حتى يهلك » شيخو (الطبعة الثانية ص ٨٢) . وليست هذه الفقرات أكثر من غيرها تحريفاً .

٣ — نسختنا

يرى مما قدمت أنّ كتاب "كليلة ودمنة" طبع طبعات مدرسية كثيرة تفى بتعليم الناشئة ، ولكنه لم يطبع طبعة واحدة يطمئنّ إليها الناقد الذى يتحرى ما كتبه ابن المقفع .

فلم يكن عجيباً أن يطول البحث والعناء ليطبعَ الكتاب طبعة أخرى . وكان من سوء الاتفاق أنّ هذه الحرب الماحقة التى يَصلَى بنارها جُناتها وغير جناتها ، شبّت ونحن نتأهب لنشر هذا الكتاب فلم يتيسّر لنا تحصيل المخطوطات التى أردناها ؛ ولكن كان من حسن الحظ أن عثرنا على نسخة فى مكتبة أيا صوفيا بإسطنبول كتبت سنة ٦١٨ ﻫ . فهى أقدم من كل المخطوطات التى وصفها المستشرقون ، وأقدم من نسخة شيخو المكتوبة سنة ٧٣٩ ﻫ والتى رآها شيخو أقدم نسخة مؤرخة فكتب على صفحة العنوان : « أقدم نسخة مخطوطة مؤرخة لكتاب كليلة ودمنة » .

لم يكن القدم وحده سبباً لاختيارنا هذه النسخة واحتمال العناء الطويل فى نشرها ؛ ولكن اجتمعت فيها مزايا ظننّا معها أنها جديرة بالنشر ، وأنّ نشرها خطوة سديدة فى سبيل نقد الكتاب وتقريبه من أصله جهد المستطاع .

وهذا وصف النسخة وتبيين مزاياها وعيوبها :

عنوان النسخة : « كتاب كليلةٍ ودمنةٍ مما وضعته علماء الهند على لسان الطير والوحش

وغير ذلك، فى الحكم والأمثال » . وتحت العنوان : « يثق بالكافى محمد بن الحجافى » . وتحت هذا ثلاثة أسطر مشطوبة شطباً يمنع من قراءتها .

وفى آخر النسخة : « تم الكتاب بعون الله وتوفيقه وكان الفراغ منه فى مستهل جمادى الآخر من شهور سنة ثمانية عشر وستمائة غفر الله لكاتبه ولصاحبه ولمن نظر فيه ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات . كتبه لنفسه الفقير إلى الله تعالى المعترف بالتقصير عبد الله بن محمد العمرى عفا الله عنه » .

وبعد هذا خمسة أبيات فى وصف الكتاب .

وبعدها : « وحسبنا الله ونعم الوكيل » فى سطر . وفى سطر آخر : « كمعق زهزوق » .
وفى سطر آخر : « الحمد لله وحده اه اه اه » .

وبعد هذا سطران فيهما اسم بعض من ملكوا النسخة ، ثم البيتان :

[لئن] نال غيرى وهو دونى وصالها وأصبح ذكرى عندها غير نافق [نافق]

فكم بيدق للشاه أصبح قاهـــرا ولا زال قدر الشاه فوق البيادق [البيادق]

والظاهر من صفحتى العنوان والخاتمة أنّ صاحب النسخة اسمه محمد بن الحجافى ، وأنّ كاتبها اسمه عبد الله بن محمد العمرى ، وأنّ الكاتب من عامّة النساخ لا يجيد النحو ولا رسم الحروف . فقد كتب : « كليلةِ ودمنةِ » بالصرف ، وكتب : « جمادى الآخر من شهور سنة ثمانية عشر وستمائة » ، والصواب : جمادى الآخرة من شهور سنة ثمانى عشرة وستماية ، وكتب فى أبيات فى الصفحة الأخيرة : « ألسنتِ فصيحة » بتاء مفتوحة بدل : « ألسنة » .

ولهذا وقع فى النسخة تحريف شنيع ، وسقط فى جمل وكلمات وحروف ، ورسمت بعض

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله اللطيف الخبير العليم القدير القاهر في ملكه
الدايم في عزه العادل في قضايه المنفرد في ملكوته خالق
الخلق وباسط الرزق ليس كمثله شيا وهو السميع البصير
نعم المولى ونعم النصير خلق ادم بيده ونفخ فيه من روحه
واسكن فيه حكمته وتوارث ذلك ذريته فمنهم سعيدا
بارادته وشقيا بقدرته واشهد ان لا اله الا الله وحده
لا شريك له شهادة ارجوا بها الخلاص والفوز بها يوم الافلا ص
واشهد ان محمد عبده ورسوله خلقه للهدى وقد فاز من به
اهتدى صلى الله عليه وعلى اله وصحبه وسلم
هذا كتاب كليله ودمنه وهو مما وضعته علما
الهند من الامثال والاحاديث التي التمسوا بها ابلغ ما
يجدون من القول في النحو الذي ارادوا ولم تزل العلما من اهل
كل زمان يلتمسون ان يعقل عنهم ويحتالون لذلك بصنوف
الحيل ويطلبون في اخراج ما عندهم من العلل حتى كان من ذلك الى
ان وضعوا هذا الكتاب ولخصوا فيه من ابلغ الكلام ومتقنه
على افواه الطير والبهايم والسباع فاجتمع لهم من ذلك امران
اما هم فوجدوا متصرفا في القول وشعابا ياخذون فيها واما هو
فجمع لهوا وحكمه فاجتباه الحكما لحكمته والسخفا للهوه واما المتعلمون
من الاحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه وخف عليهم حفظه فاذا احتنك
الحدث واجتمع له امره وثاب اليه عقله تدبر ما كان حفظ منه

نموذج من نسختنا الخطية (الصفحة الأولى)

الكلمات وأعجمت على صورة عجيبة لا توافق حروف العربية ، حتى ظننت أنّ الكاتب كان لا يحسن قراءة الكتاب وكان يرسم الحروف كما يراها فيخطئ فى كثير منها . وبيّنٌ أنّ نصيب الكلمات الغريبة من هذا التحريف أوفر . وبعض التحريف لا يُفسّر إلا بأنّ الكاتب كان يستملى فيسىء السمع أو يخطئ الرسم .

وهذه أمثلة من التحريف ، وقد وضعتُ تصويبها بين هاتين العلامتين [ ] :

« ثم إنّ شنزبة لم يلبث أن عكن وشحن وسر [.. أن عكد وشحم وترّ] » (ص ٤٥) .

« كان أسد البصيرة وأبلج الصدر وأحرى أن يقدم المزيدة على غيره الشبهة والشك [كان أسدّ للبصيرة وأثلج للصدر ، وأحرى أن يُقدم المرء به على غير الشبهة والشك] » (ص ١٠١) .

« فإن الكاتم لدم المجرم فى رتغ منتفع شركه إياه فيه [فإنّ الكاتم لجرم المجرم فى وتَغ مُبتغٍ شركه فيه] » (ص ١٠٢) .

« لم يقبض الحتال ولا للحسب [لم يقيَّض للجمال ولا للحسب] » (ص ١٥١) .

« كذلك العالم يبصر الإثم قبيحه والبغى فيعلمه [.. يبصر الإثم فيجتنبه ، والبرّ فيعمله] » (ص ٢٠٣) .

« فاطمئن إلى ما ذكرت وتؤمنى [فاطمئنّ إلى ما ذكرت ، وثق به منّى] » (ص ٢٣١) .

ومن التحريف الذى أحسبه نشأ عن الإملاء :

« لقد أورثنى [أورطنى] الحرص والشره ، على كبر السنّ ، شرّ مورط » (ص ١٨٠) .

« لم يأتى [يأتِ] إليك شيئاً إلا وكنتى [كنتِ] ركبتى [ركبتِ] من غيرك مثلَه » (ص ٢٧٦) .

وإذا عرف القارئ أنّ كثيرا من هذه الجمل المحرّفة تنفرد بها نسختنا فلا يمكن

تصحيحها من النسخ الأخرى ، وأنّ بعضها يقابله تحريف مثله أو أشنع منه فى نسخة شيخو ، تبيّن مقدار العناء الذى احتُمل فى رد هذه الجمل إلى صواب يطمئنّ إليه الباحث .

ويرى القارئ مثالا من تتبّع الجمل المحرّفة فى مواضعها من تراجم الكتاب المختلفة فى تعليقات باب "البوم والغربان" (ص٢٩٥ (٤)) حيث يرى كيف صححت الجملة : « فإن من يرا كل القتل يرا كل الجيف » فردّت إلى أصلها : « فإنّ من يواكل الفيل يواكل الجيف » .

٤ — مزايا هـــذه النسخة

ولكن هذه النسخة ، على تحريفها وما فيها من سقط ، تفضُل النسخ المطبوعة كلها ، وتحوى نصاً يخالف ما فى تلك النسخ مخالفة بيّنة ، وتمتاز بمزايا منها :

١ – احتواؤها جملًا طويلة تشبه ما يعرف من كلام ابن المقفع فى كتبه . وهذه الجمل تلقى مختصرة أو ميسّرة فى النسخ الأخرى . وواضح أنّ تصرف النُسّاخ والقرّاء يكون بتقريب الكتاب وتيسير جمله لا العكس ؛ فالجمل الطويلة المستغلقة فى نسختنا حريّة أن تكون أقرب إلى الأصل من الجمل القصيرة اليسيرة التى تقابلها فى النسخ الأخرى .

٢ – ومنها أنّ فى نسختنا جملًا يتبين فيها أثر الأسلوب الفارسى وقد غُيّرت فى النسخ الأخرى بما يُدخلها فى الأساليب العربية المألوفة . وهذه أمثلة منها :

« حتى غلب على صاحب البيت النعاس ، وحمله النوم » (ص٦) . فجملة : « حمله النوم » ترجمة لفظية للجملة الفارسية : « خواب أورا برد » . وفى النسخ الأخرى : « فغلب الرجل النعاس » .

« وعرفت أنى ، إن أوافِقْه على ما لا أعلمُ ، أكُن كالمصدّق المخدوع الذى زعموا أنّ

جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيت رجل من الأغنياء الخ » (س ٣٠) . وظاهر أنّ « الذى » هنا ليست ملائمة للسياق وليس بعدها عائد على الموصول . ويقابل « الذى » فى الفارسية : « كه » ؛ ولكن « كه » تأتى أيضاً للتعليل أو التفريع . فكان ينبغى أن تترجم الجملة : فقد زعموا الخ . ولكن المترجم وضع « الذى » هنا موضع « كه » التى جاءت فى الأصل الفارسى للتفريع . وهى فى غير موضعها . وفى النسخ الأخرى : « الذى زعموا فيه » أو « فى شأنه » ، وهى زيادة لتعريب الجملة . وفى شيخو (ص٣٤) : « كالمصدّق المخدوع مثل الذى (كذا) زعموا أنه ذهب سارق الخ » .

« وأما مَن دونه فقد تجرى أمورهم فنوناً يغلب على أكثر ذلك الخطأ » (ص١٠٤) . فوضْع « ذلك » موضع الضمير فيه شبَه بالعبارة الفارسية .

« فسأله رجل فقال » (ص٢٧٠) . تشبه هذ الجملة التعبير الفارسى : « پرسيده گفت » .

« وتركوا التاج على رأسه » (ص٢٧٠) . فاستعمال « تركوا » فى موضع « وضعوا » يشبه أن يكون ترجمة للكلمة : « گذاشتند » وهى تأتى بمعنى « الترك » وبمعنى « الوضع » . وقد تُرجمت هنا بالمعنى الأول ، والأولى بها المعنى الثانى .

٣ – ومن مزايا نسختنا كذلك استعمال كلمات صحيحة غير شائعة . وهذه الكلمات تغيّر فى النسخ الأخرى إلى كلمات مألوفة . ومن أمثلة هذا :

« آلمالُ أم اللذاتُ أم الصوتُ أم أجرُ الآخرة ؟ » (س ٢٦) . فاستعمال « الصوت » بمعنى « الصيت » صحيح ، ولكن النسخ الأخرى غيرته إلى « الصيت » أو « الذكر » . وفى نسخة شيخو (س ٣١) : « الصون » ، وهو تحريف « الصوت » .

« فقال الأسد لقرابينه » (س ٥١) . فاستعمال كلمة « قرابين » بمعنى خاصة الملك ،

وتغييرها فى النسخ الأخرى إلى « جلسائه » ونحوها إيثاراً للكلام المألوف .

« السلطان » (ص ٤٩ ، ٧٥ ، ٧٧) استعملت هذه الكلمة بمعنى الجمع ، وهو استعمال قديم صحيح . وقد استعمل فى النسخ الأخرى بمعنى المفرد .

«وكانت للملك ابنة كريمة عليه ، وكانت حاملا فأصابها بطَن » (ص١١٤) . « البطَن » وجع البطن ، وقد غيرت فى النسخ الأخرى إلى « وجع البطن » .

« فإنّ أولى أهل الدنيا بطيب العيش وكثرة السرور وحسن الثناء ، من لا يزال رَحله موطوءا من إخوانه » (ص١٤٢) . ومثل هذا فى شيخو مع التحريف . يقابل هذا فى النسخ الأخرى : « من لا يزال ربعه من إخوانه وأصدقائه معموراً » ، فقد غيّر « رحله موطوءا » إلى « ربعه معموراً » تقريباً للعبارة .

فتغيير النسخ الأخرى هذه الجمل أريد به تيسير الكتاب . والنسخة التى تشتمل على الألفاظ الصحيحة المستعملة عند خاصّة الكتّاب ، أقرب إلى الأصل من النسخ التى تقابل هذه الألفاظ بألفاظ شائعة مألوفة عند عامّة القرّاء .

٤ – ويقرب من هذا حرص نسختنا على ذكر أسماء للمدن والأشخاص لا تذكر فى النسخ الأخرى ، وحفظها لبعض الأسماء صيغاً أغرب مما فى غيرها . وهذا كثير يمكن تتبعه فى كل فصول الكتاب . ومن أمثلة هذا اسما الرجلين : « آذرهربد » (ص ١٦) و «أزويه» (ص ١٧) ، واسم الأسد : «بنكلة» (ص ٤٠) ، وأرض «مردات» (ص ٩٤) ، ومدينة « برود » (ص١٠٧) ، وانظر الأسماء فى باب " إيلاد وإيراخت وشادرم " .

والظاهر أنّ النسخ الأخرى حذفت هذه الأسماء الأعجمية اختصاراً وتخفيفاً على القرّاء .

٥ – والخامس مما تفضل به نسختنا النسخ المطبوعة أنّ نصوصها أقرب فى الجملة

إلى النصوص التى تلفى فى كتب قديمة مثل كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ . فى هذا الكتاب جمل كثيرة منقولة عن كتاب "كليلة ودمنة" ينسبها المؤلف إلى هذا الكتاب تصريحاً ، أو يقول : « وقرأت فى كتاب للهند » . والظاهر أنّ ابن قتيبة لا يلتزم نص الكتاب دون تغيير . ولكن ما نقله يصلح أن يكون بألفاظه أو معانيه مقياساً بين النسخ المتأخرة من هذا الكتاب .

ويرى القارئ أمثلة فيما يأتى :

ا – عيون الأخبار : « وإنما تشبه بالجبل الوعر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية. فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد » . (ج ١ ص ١٩) .

نسختنا : « وإنما شبّه العلماء السلطانَ بالجبل الوعر الذى فيه الثمار الطيّبة ، وهو معدِن السباع المخوفة ؛ فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشدُّ وأهول » (ص ٥٠) .

النسخ الأخرى : « وإنما شبّه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذى فيه الثمار الطيبة ، والجواهر النفيسة ، والأدوية النافعة وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضارّ مخوف ، فالارتقاء إليه شديد والمقام فيه أشدُّ » عبارة (الطبعة الرابعة ص ٩٦) .

ب – عيون الأخبار : « إنما مثل السلطان فى قلة وفائه للأصحاب وسخاء نفسه عمن فقد منهم مثل البغى والمكتّب كلما ذهب واحد جاء آخر » (ج ١ ص ٢٥) .

نسختنا : « إنما مثلهم ، فى قلة وفائهم لأصحابهم وسخاء أنفسهم عمن فقدوا منهم ، مثل البغى كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه » (ص ٧٥ مع تغيير عبارة الأصل والتعليقات ص ٢٩١ (٢٣)) .

النسخ الأخرى : لا تلفى هذه الجملة .

ج – عيون الأخبار : « ثلاثة أشياء تزيد فى الأنس والثقة : الزيارة فى الرحل والمؤاكلة

ومعرفة الأهل والحشم » (ج ٢ ص ٢٤) .

نسختنا : « إنّ أموراً ثلاثة تزداد بها لطافة ما بين الإخوان ، واسترسال بعضهم إلى بعض ؛ منها المؤاكلة ، ومنها الزيارة فى الرحل ، ومنها معرفة الأهل والحشم » (ص ١٧٨) .

النسخ الأخرى : لا توجد الجملة فى المصرية وطبارة . وفى اليازجي : « فإنّ أفضل ما يلتمسه المرء من أخلّائه أن يغشوا منزله وينالوا من طعامه وشرابه ويعرفهم أهله وولده وجيرانه » اليازجي (ص ٢٧٢) .

د – عيون الأخبار : « ثلاثة يُهزأ بهم : مدّعى الحرب ولقاء الزحوف وشدة النكاية فى الأعداء وبدنُه سليم لا أثر به ، ومنتحل علم الدين والاجتهاد فى العبادة وهو غليظ الرقبة أسمن من الأئمة الخ » (ج ٢ ص ٢٠) .

نسختنا : « ثلاثة ينبغى أن يُسخر منهم : الذى يقول : شهدت زحوفاً كثيرة فأكثرت القتل ولا يرى فى جسمه شىء من آثار القتال ، والذى يخبر أنه عالم بالدين ناسك مجتهد وهو بادن غليظ الرقبة لا يرى عليه أثر التخشع الخ » (ص ٢٠٦) .

النسخ الأخرى : فى شيخو قريب مما هنا ، بعد تصحيح التحريف الشنيع . ولا توجد الجملة فى النسخ الأخرى .

هـ – وكذلك الجملة : « أربعة يخافون مما لا ينبغى الخ » نسختنا (ص ٢٠٨) . يرى نظيرها فى "عيون الأخبار" ولا تعرف فى النسخ الأخرى .

و – ونجد مثالا آخر فى هذه الجملة من نسختنا (ص ٤٧) : « كالأسد الذى يفترس الأرنب ، فإذا رأى العير تركها وأخذه » . فى نسخة شيخو (ص ٥٦) : « فاذا رأى الاتان » . وفى النسخ الأخرى : « البعير » . وفى منظومة أبان بن عبد الحميد التى نظمها للبرامكة :

كالأسد الذى يصيد أرنباً ثم يرى العَير الجدّ هربا
فيرسل الأرنب من أظفاره ويتبع العير على إدباره

٥ — نماذج من اختلاف النُسخ

يحار قارئ الكتاب فيما بين نسخه من تخالف وتقارب واتفاق : فى بعض الصفحات تختلف النسخ اختلافاً بيّناً ، وفى بعضها تتقارب فى المعنى واللفظ ، وفى أخرى تتفق ؛ ولكن الاتفاق يندر بين نسختنا والنسخ المطبوعة فى مصر والشام ، حاشا شيخو ، فإنّ موافقتها نسختنا كثيرة ، بل توافُقُهما أكثر من تخالفهما .

وليست أبواب الكتاب سواء فى تقارب النسخ وتباعدها ؛ بل بعض الأبواب كباب " إيلاد وإيراخت وشادرم " يتضح فيه تقارب النسخ ، وبعضها كباب " الأسد والثور " يتضح فيها التباعد . كأنّ الأبواب الأكثر نصيباً من عناية القراء كانت أكثر نصيباً من التغيير ؛ على أنّ الباب الواحد فيه فصول متقاربة وأخرى متباعدة .

وسأبحث فى أسباب اختلاف نسخ الكتاب حين الكلام على ترجمته إلى العربية . وأعرض فيما يلى على القارئ قصة السمكات الثلاث منقولة من نسخ مختلفة لتكون مثالاً لما بينها من تباعد وتقارب :

نسختنا : « زعموا أنّ غديراً كان فيه ثلاثُ سمكاتٍ : كيّسةٌ ، وأكيسُ منها ، وعاجزة . وكان ذلك المكانُ بنجوةٍ من الأرض ، لا يكاد يقربه من الناس أحد . فلما كان ذات يوم ، مرّ صيادان على ذلك الغدير مجتازَين ، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا الثلاثَ السمكات اللواتى رأياهنّ فيه . فلما رأتهما الحازمة ارتابت

بهما ، وتخوّفت منهما ، فلم تعرّج أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر . وأما الكيّسة فتلبّثت حتى جاء الصيادان ، فلما أبصرتهما قد سدّا مخرجها ، وعرفت الذى يريدان بها ، قالت : فرّطتُ ، وهذه عاقبة التفريط ، فكيف الخلاص وقلما تنجح حيلة المرهوق ؟ ولكنّ العالِمَ لا يقنطُ على كل حال ، ولا يدعُ الأخذ بالرأى . ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة ، فأخذاها فألقياها على الأرض غير بعيد من النهر ، فوثبت فيه فنجت منهما . وأما العاجزة فلم تزل فى إقبال وإدبار حتى صاداها » (ص ٦٩) .

شيخو : « زعموا انّ غديراً كان فيـهِ ثلاث سمكات عظام وكان ذلك الغدير بنَجْوة من الارض لا يقربها احد . فلما كان ذات يوم من هنالك (كذا) آتى صيّادان مجتازان فتواعدا ان يرجعا بشبكتهما فيصيدا تلك السمكات الثلاث التى رأيا فيهِ . وانّ سمكةً منهنّ كانت اعقلهنّ وانما ارتابت وتخوّفت فعاجلت الاخذ بالحزم فخرجت من مدخل المـاء الذى كان يخرج من الغدير الى النهر فتحوّلت الى مكان غيره . وأما الاخرى التى كانت دونها فى العقل فأخّرت معاجلة الحزم حتى جاء الصيّادان فقالت : قد فرّطتُ وهذه عاقبة التفريط . فرأتهما وعرفت ما يريدان فوجدتهما قد سدّا ذلك المخرج فقالت : قد فرطتُ فكيف الحيلة على هذا الحال للخلاص وقلّ ما تنجح حيلة العجلة والإرهاق ولكن لا تقنطْ على حال ولا تدَعْ الوان الطلب . ثم انها للحيلة تماوتت فطفتْ على المـاء منقلبة على ظهرها فاخذاها (فاخذها) الصيّادان يحسبان انها ميتة فوضعاها على شفير النهر الذى يصبّ فى الغـدير فوثبت فى النهر فنجت من الصيّادَيْن . واما العاجزة فلم تزل فى اقبال وادبار حتى صيدت » (ص ٧٠) .

اليازجى : « زعموا أنّ غديراً كان فيه ثلاث من السمك كيسة وأكيس منها وعاجزة ،

وكان ذلك الغدير بنجوة من الأرض لا يكاد يقربه أحد وبقربه نهر جار . فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان فأبصرا الغدير فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك فسمع السمكات قولهما فأما أكيسهن فلما سمعت قولهما ارتابت بهما وتخوفت منهما فلم تعرج على شىء حتى خرجت من المكان الذى يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير فنجت بنفسها . وأما الكيسة الأخرى فإنها مكثت مكانها وتهاونت فى الأمر حتى جاء الصيادان . فلما رأتهما وعرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء فإذا بهما قد سدا ذلك المكان . فحينئذ قالت فرطت وهذه عاقبة التفريط فكيف الحيلة على هذه الحال وقلما تنجح حيلة العجلة والإرهاق . غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأى ولا ييأس على حال ولا يدع الرأى والجهد . ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها . فأخذها الصيادان وظناها ميتة فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت إلى النهر فنجت . وأما العاجزة فلم تزل فى إقبال وإدبار حتى صيدت » (ص ١٤٤) .

٦ — نسختنا ونسخة شيخو

أقرب النسخ إلى نسختنا نسخة شيخو . وهى على كثرة تحريفها واضطرابها تقارب نسختنا فى أكثر الفصول ، وقد تختلفان بالزيادة والنقص والإجمال والتفصيل واختلاف الألفاظ .

ونجد فيهما جملا مستقلة لم يتصرف فيها الكتاب كما تصرفوا فى الأخرى ؛ نجد فى باب "بعثة برزويه" أثناء الكلام على برزويه وصديقه المنذى هذه الجملة :

« فلم يطمئنّ الى أحد منهم إلا إلى صديقه ذلك عند ما ورد عليه وكيف فتّش عقله ووثق به واطمأنّ إليه أن قال له الخ » نسختنا وقد أصلحتُ العبارة (ص ١٨) .

« وكان ممّا حكم به برزويه صديقه ذلك والذى ردّ عليه وكيف فتّش عقله حتى وثق به واطمأنّ اليه أن قال له » شيخو (ص ٢٢) .

وهى جملة مضطربة متشابهة فى النسختين .

وبعد هذه الجملة بسطر نجد فى النسختين :

« فاعلم أنى لأمر جئت ، وهو غير ما ترى يظهر منى » نسختنا (ص ١٨) .

« فاعلم انى لامر ما جئت له وهو غير ما ترى يظهر منى » شيخو (ص ٢٢) .

فالجملة : « وهو غير ما ترى يظهر منى » على غرابتها مشتركة فيهما . وقد غُيرت فى النسخ الأخرى إلى : « وهو غير الذى يظهر منى » .

وهذه الجمل المستغربة فى هاتين النسختين تدلّان على أصل صحيح تنتهيان إليه . ومن العجيب أنهما تتفقان أحياناً على تحريف ؛ ففى قصة " الأسد والشعهر " :

« فلما اجتمعوا على ذلك من كيدهم ، دسّوا ذات يوم اللحم كان الأسد استطرفه » نسختنا (ص ٢٤٩) .

« فلمّا أجمعوا على ذلك لكيدهم دسّوا ذات يوم اللحم كان الأسد استطرفهُ » شيخو (ص٢٢١) .

والصواب : « دبّوا » وقد حرفت فى النسختين إلى : « دسّوا » .

وفى الباب نفسه نجد فى النسختين :

« وذلك سريعاً فى إضاعة الأمر ، وجلب عظيم الخطر » نسختنا (ص ٢٥٢) .

« وذلك سريعاً (كذا) فى ضياعة الأمر وانتشاره وجلب عظيم الضرز والعيب » شيخو (ص٢٢٣) .

والصواب : « سريع » وقد حرفت فى النسختين إلى : « سريعاً » .

وبعد هذا بقليل :

« كصاحب الخمر الذى أراد شراءها احتاج إلى اختبار لونها وطعمها » نسختنا (ص٢٥٣) .

« كصاحب الخمر الذى اراد ان يشتريها احتاج الى اختبار لونها وطعمها وريحها » شيخو (ص ٢٢٤) .

والظاهر أنّ الصواب : « كصاحب الخمر إذا أراد الخ » .

وفى باب ابن الملك وأصحابه :

« ثم قال بعضهم لبعض : انصرفوا يومكم هــذا حتى نكسر عليهم ويرخصوه علينا » نسختنا (ص ٢٦٩) .

« انصرفوا يومكم هذا حتى نكسر عليهم فيرخصوا علينا » شيخو (ص ٢٣٥) .

والظاهر أنّ كلمة : « نكسر » محرفة من : « يكسُد » .

وفى باب « الناسك والضيف » فى النسختين :

« وليس فى بلادى الذى أسكنها » نسختنا (ص ٢٧٩) .

« وليس فى بلادى الذى (التى) اسكنها » شيخو (ص ٢٤٣) .

والصواب : « التى » وقد حرفت فى النسختين إلى : « الذى » .

وأرى أنّ الاتفاق على هذا التحريف يدل على أصل واحد قد بعدت الوسائط بينهما وبينه ، وقد أصاب نسخة شيخو من التحريف ما لم يصب نسختنا .

القسم الثـانى

أصول الـكتاب وتراجمه وأبوابه

١ — الشرق مهـد الأمثال

بلاد الشرق مهد القصص والأمثال المضروبة على ألسن الحيوان . وكانت الهند خاصة مهد قصص حكيمة شاعت فى أرجاء الأرض ؛ انتقلت إلى بلاد الصين والتبّت وإيران ، وبلغت أوربا فى عصور قديمة . وكثير من أساطير إيسوب (Æsop) تتخللها أمثال شرقية .

وذاعت من بين قصص الهند وأمثالها طائفة من القصص جُمعت فى كتابين ، أحدهما مأخوذ من الآخر أو كلاهما مأخوذ من أصل واحد ، على اختلافهما فى الأسلوب وفى بعض القصص .

يعرف أحد هذين الكتابين باسم : "پنچَ تنترا" أى : خمسة أبواب . وقد عثر عليه الأستاذ هِرتِل ، وعُنى به الباحثون ، وطبع وترجم إلى لغات أوربية عدّة . ويرى هرتل أنّ مؤلفه حكيم هندى اسمه : بَرَهْمَن وِشنو ، ألفه حوالى سنة ٣٠٠م .

ويسمى الكتاب الثانى : "هِتوپادشا" أى : نصيحة الصديق . وقد شاع فى أوربا وترجم إلى بعض لغاتها وترجم إلى الإنكليزية ثلاث مرات .

٢ — كليلة ودمنة ، كتاب هنـــدى

يقول ابن خلكان : « ويقال إنّ ابن المقفع هو الذى وضع كتاب كليلة ودمنة . وقيل إنه لم يضعه وإنما كان فارسياً فنقله إلى العربية ، وإن كان الكلام الذى فى أول هذا الكتاب من كلامه » . وقد شكّ بعض الناس فى أمر الكتاب ، ورددوا رواية ابن خلكان .

وهذا كلام لا وزن له ؛ فلم يبق ريب فى أن الكتاب هندى الأصل ، وقد عُثر على معظم أبوابه فى الكتابين : "پنچ تنترا" و "هتوپادشا" من الكتب الهندية.

وقد عَرَف هذا من قبلُ العلامةُ المحقق أبو الريحان البيرونى ، فقال فى كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة" :

« ولهم (أى للهند) فنونٌ من العلم أخر كثيرة، وكتبٌ لا تكاد تحصى ؛ ولكنى لم أحط بها علماً. وبودّى أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب پنچ تنترا . وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة ؛ فإنه تردّد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع فى زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضَعَفَى العقائد فى الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية . وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل » .

ليس لدينا إذن ما يدعو إلى الشك فى الرواية المتداولة أن هذا الكتاب ترجم من الهندية إلى الفهلوية، ثم ترجم إلى العربية فى القرن الثانى من الهجرة. وأما الأخبار التى يتضمنها باب "بعثة برزويه" فسنعرض لها من بعدُ .

٣ — نقل الكتاب من الهندية إلى الفهلوية

ليس عندنا ما يمنع من قبول ما تضمنه باب "بعثة برزويه" من أن الكتاب نقل إلى الفهلوية فى عهد كسرى أنو شروان ، نقله بعض أطباء الفرس الذى ساحوا فى بلاد الهند وعرفوا اللغة الهندية .

هذا هو الأصل الذى كتب عليه باب "بعثة برزويه". وهو جدير بالقبول وليس لدينا ما يدعو

إلى الشك فيه . وأما إرسال كسرى برزويه إلى الهند لينقل الكتاب إلى الفهلوية ، واحتياله للاطلاع على الكتاب ، ومبالغة الهنـد فى منع الأجانب أن يطلعوا على كتابهم ، فهو مما حاكه الخيال لإكبار برزويه والإعجاب بعمله والإشادة به ، وتعظيم قدر الكتاب .

وقصة سفر برزويه إلى الهند ترويها "الشاهنامه" وكتاب الثعالبي "غُرر أخبار ملوك الفرس" . ولكن قصة "الشاهنامه" تخالف ما هنا بعض المخالفة ، وإليك إجمالها :

جاء برزويه الحكيم إلى أنوشروان وقال : أيها الملك إنى قرأت فى كتاب هندى أنّ فى جبال الهنـد عشباً إذا ركّب منه دواء فنثر على ميت ارتدّ حياً . فجهزه أنوشروان وسيّره إلى الهند وبعث معه كتاباً إلى الملك . فلما أخذ ملك الهند الهدايا وقرأ الكتاب جمع علماءه وسيّرهم مع برزويه لطلب هذا العشب فى الجبال فجمعوا كل ضرب من العشب وجربوه ، فما أحيا ميتاً . فندم برزويه على ما جشّم نفسه من مشاقّ السفر والطلب ، وتحيّر ماذا يقول للملك أنوشروان . ثم سأل من كان معه من العلماء : أتعرفون فى الهند أعلم منكم ؟ قالوا : نعم ، شيخ يفضلنا علماً وسنّا . فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال : أمّا الجبال فهى العلوم ، وأمّا الموتى فهم الجهال ، وأمّا العشب فكتاب فى خزائن ملك الهنـد يسمى "كليلة ودمنة" يحيى موتى الجهل . فأسرع برزويه إلى ملك الهند يرجو أن يطلع على الكتاب . فاغتمّ الملك وقال : ما طلب أحد هذا الطلب من قبل ، ولكنا لا نضنّ على الملك أنوشروان بشىء . وأمر أن يؤتى بالكتاب وأن يطلع برزويه عليه أمامه حتى لا يظنّ أحد أنه نَسَخه . فكان برزويه يقرأ كل يوم فصلاً — إلى آخر ما فى القصة التى فى باب "بعثة برزويه" .

٤ — هل ترجم الكتاب إلى العربية أكثر من مرة ؟

يقول صاحب "الفهرست" ، وهو يعدّد أسماء كتب الهند فى الخرافات والأسمار والأحاديث : « كتاب كليلة ودمنة . وهو سبعة عشر باباً . وقيل ثمانية عشر باباً . فسّره عبد الله بن المقفع وغيره » . والتفسير هنا معناه الترجمة .

وقد نقل الأب شيخو الجملة الآتية من نسخة محفوظة فى مكتبة أيا صوفيا مكتوبة سنة ٨٨٠ ﻫ :

« هذا كتاب كليلة ودمنة الذى استخرجه برزويه المتطبب الحكيم من بلاد الهند ونقله من الهندية الى الفارسية لكسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز ملك فارس ونقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن علىّ الأهوازى ليحيى بن خالد بن برمك فى خلافة المهدى أحد خلفاء بنى العباس وذلك فى سنة خمس وستين ومائة وقد نظمه سهل بن نوبخت الحكيم الفاضل ليحيى بن خالد البرمكى وزير المهدى والرشيد فلما وقف عليه ورأى حسن نظمه أجازه على ذلك ألف دينار » (مقدمة شيخو ص 20) .

فهذا تصريح باسم مترجم غير ابن المقفع . وفى "كشف الظنون" لحاجى خليفة :

« ثم ترجمه فى الإسلام عبد الله بن المقفع كاتب أبى جعفر المنصور العباسى من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية . ثم نقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن هلال الأهوازى ليحيى بن خالد البرمكى فى خلافة المهدى وذلك فى سنة خمس وستين ومائة . ونظمه سهل بن نوبخت الحكيم ليحيى بن خالد المذكور وزير المهدى والرشيد . فلما وقف عليه أجازه بألف دينار » .

لا يستطيع الباحث أن يقطع رأياً فيما نقله شيخو عن نسخة أيا صوفيا حتى يرى النسخة ويرى موضع هذه الجملة فى مقدمتها ، هل هى ملحقة بقلم أحد القرّاء أو هى من

متن النسخة ؟ فإن كانت الأولى فلعلها نقلت عن " كشف الظنون " . وإن كانت الثانية فلعل صاحب " كشف الظنون " نقلها . والعبارتان متشابهتان فى الكتابين .

وأما إغفال اسم ابن المقفع فى النسخة التى ذكرها شيخو فلا يدل على أنها ترجمة أخرى تخالف النسخ التى بأيدينا ؛ فإنّ النسخة ، كما يتبين من قطعة نقلها شيخو من باب " الأسد والثور " ، تشابه النسخ الأخرى مشابهة قريبة . وأكبر الظن أنّ بعض النسّاخ أو القرّاء كتب فى صدر الكتاب ما كتب نقلاً عن بعض الكتب التى ذكرت مَن ترجموا " كليلة ودمنة " .

ومهما نَقُل فى إغفال هذه النسخة اسم ابن المقفع واقتصارها على اسم المترجم الآخر فقد اجتمع لنا ثلاثة نصوص تذكر غير ابن المقفع : صاحب " الفهرست " يقول : « فسّره عبد الله بن المقفع وغيره » ، ونسخة أيا صوفيا و " كشف الظنون " يسميان : « عبد الله بن علىّ الأهوازى » أو « عبد الله بن هلال الأهوازى » .

وهذه مسألة لها خطرها فى تاريخ الكتاب واختلاف نسخه .

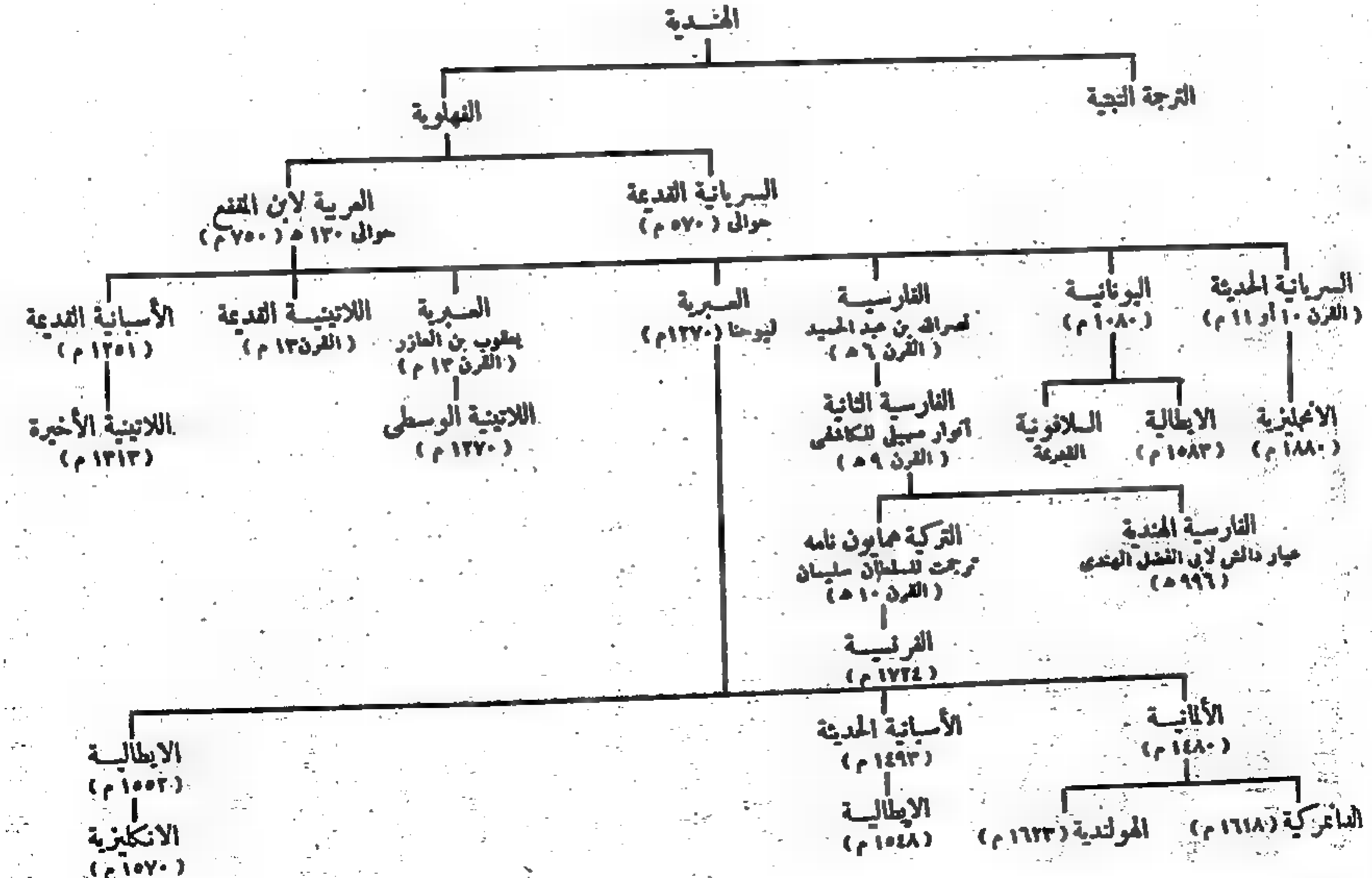
٥ — هل يُفَسَّر اختلاف النسخ باختلاف الترجمة ؟

قلت فيما تقدم إنّ نسخ الكتاب تختلف اختلافاً يدعو الباحث إلى أن يظنّ أنّ الكتاب ترجم أكثر من مرة . فهل اختلاف النسخ التى أمامنا يرجع إلى اختلاف الترجمة ؟

هذا البحث لا يمكن أن يوفّى حقه من النظر ومقابلة النصوص إلا بعد الاطلاع على مخطوطات صحيحة متعددة . وليس لدينا الآن من النصوص التى يوثَق بها بعض الثقة إلا نسختنا ونسخة شيخو ، وهما متقاربتان لا يمكن أن تكونا ترجمتين مختلفتين ؛ وإنما الخلاف الكثير بينهما وبين النسخ الأخرى الملفقة كما بينت آنفاً . وهذا التلفيق

تراجم "كليلة ودمنة"

مأخوذ عن فلكر مع تغيير قليل



Marfat.com

يمنعنا أن نقطع رأياً فى هذا الشأن ؛ فإنى أجد اختلافاً بين نسختنا وهذه النسخ يشبه أن يكون اختلافاً بين ترجمتين ، ثم أجد جملاً متماثلة لا تصدر إلا عن كاتب واحد . ولست أستطيع أن أتبين صلة هذه الجمل المتماثلة بالمتون المختلفة لما دخل النصوص من التلفيق.

على أنى ، مع إعواز النصوص التى تعين على صحة الرأى ، أرجح أن اختلاف النسخ التى بين أيدينا ليس اختلاف ترجمة إلا فى زيادة بعض الأبواب ونقصها ، وهى أبواب يتبين فيها أسلوب يخالف أسلوب ابن المقفع ، وسيأتى بيان هذا .

فإن لم يكن اختلاف النُسَخ اختلافَ ترجمة فكيف وقع فى الكتاب ؟ قبل إجابة هذا السؤال ينبغى أن نجيب سؤالاً آخر : لماذا ترجم الكتاب أكثر من مرة ؟

ترجمه عبد الله بن المقفع ، ثم ترجمه عبد الله بن هلال الأهوازى ، ونظّمه أبان اللاحقى ثم سهل بن نوبخت ثم ابن الهبّارية من بَعد .

وكذلك ترجم من العربية إلى الفارسية أيام السامانيين ، ثم ترجمه نصر الله بن عبد الحميد فى عهد الغزنويين ، ثم ترجمه الكاشفى فى القرن العاشر ، ونُظم بالفارسية أكثر من مرة .

وكذلك تعددت تراجم الكتاب فى بعض اللغات الأوربية (انظر جدول التراجم ص ٤٠) .

سبب تعدد الترجمة فى اللغة الواحدة أنه كتاب أدبى ذو قصص ومواعظ يختلف الكتّاب فى إجمالها وتفصيلها ، وفى طريقة قصصها وأساليب بيانها ؛ فربما يبدو لمترجم أن يخالف من سبقه بالإجمال والتفصيل أو التأنق فى العبارة وتيسيرها ، وهكذا .

وهذا السبب الذى دعا إلى تعدد تراجم الكتاب فى اللغة الواحدة هو الذى أدى إلى اختلاف نسخه وإن رجعت إلى ترجمة واحدة . فقد لقى هذا الكتاب من عناية الأدباء والمؤدبين ما جعله كتاب تأديب ، وحاول بعض الكتّاب والمؤدّبين أن ييسّروا بعض عباراته

أو يُغرِبوا فيها ، وأن يوجزوا فيها أو يطنبوا ، فكان من ذلك اختلاف نسخ الكتاب .

ولعل تعدد الترجمة قد يسّر للناس التصرف فى أساوب الكتاب بعد قياس ترجمة بأخرى ، أو سوّغ لهم أن يدخلوا عبارات ترجمة فى عبارات ترجمة أخرى ، وهكذا . ولعل أسلوب ابن المقفع ، وهو طويل الجمل مستغلق أحياناً ، دعا إلى تغيير كثير فى متن الكتاب .

وبعد فهى قضيّة لا بدّ للفصل فيها من مقايسة مخطوطات لا نستطيع الاطلاع عليها الآن . وعسى أن تتاح الفرصة من بعد ، بتوفيق الله .

٦ — أبواب الكتاب

الأبواب التى تحتويها النسخ المختلفة من هذا الكتاب تنقسم إلى الأقسام الآتية :

١ – المقدمات وهى :

"مقدمة علىّ بن الشاه الفارسى" ، "عرض الكتاب لابن المقفع" ، "بعثة برزويه إلى بلاد الهند" ، "باب برزويه الطبيب" .

٢ – الأبواب الخمسة الأولى ، بعد استثناء "باب الفحص عن أمر دمنة" ، وهى الأبواب التى يحتويها الأصل الهندى "پنچ تنترا" :

"الأسد والثور" ، "الحمامة المطوقة" ، "البوم والغربان" ، "القرد والغيلم" ، "الناسك وابن عرس" .

ويتبع هذا القسم باب "الفحص عن أمر دمنة" ، وهو بعد باب "الأسد والثور" ومكمل له . وباب "السائح والصواغ" وقد جاءت قصته فى أثناء الباب الأول من "پنچ تنترا" .

٣ – والقسم الثالث : الأبواب الثلاثة التى تلى الخمسة المعدودة فى القسم الثانى ، وهى معروفة فى كتاب "المهابهارتا" :

"الجرذ والسنور" ، "الملك والطائر" ، "الأسد وابن آوى" .

٤ – والقسم الرابع الأبواب الأخرى وهى قسمان :

ا – الأبواب التى تتفق عليها النسخ وهى :

"إيلاد وإيراخت وشادرم ملك الهنـد" ، "اللبؤة والأسوار" ، "الناسك والضيف" ، "ابن الملك وأصحابه" .

ب – الأبواب التى توجد فى بعض النسخ دون بعض وهى :

"ملك الجرذان" ، "مالك الحزين والبطة" ، "الحمامة والثعلب ومالك الحزين" .

فهذه واحد وعشرون باباً تتضمنها نسخ الكتاب على اختلافها . وإذا تركنا المقدمات جانباً وأخرجنا الأبواب الأخيرة التى تختلف فيها النسخ بقى أربعة عشر باباً ، منها تسعة معروفة فى اللغة السنسكريتية وهى الخمسة التى فى "پنچ تنترا" وباب "السائح والصواغ" الذى يتضمنهُ الباب الأول من ذلك الكتاب ، والثلاثة التى فى "المهابهارتا" . والخمسة الباقية لم تعرف فى اللغة الهندية حتى اليوم ، وهى باب "الفحص عن أمر دمنة" والأبواب الأربعة الأولى من القسم الرابع .

ونجد فى الترجمة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد فهرس الكتاب فى نهاية باب "بعثة برزويه" على هذه الصورة : « وكتاب كليلة ودمنة هذا ستة عشر باباً منها الأصلى الذى وضعه الهند وهو عشرة أبواب ، ومنها ما ألحقه الفرس وهو ستة أبواب » . ثم يذكر العشرة الهندية وهى خمسة الأبواب الأولى التى يتضمنها "پنچ تنترا" وباب "الفحص عن أمر دمنة" ، وثلاثة الأبواب التى فى "المهابهارتا" يزاد عليها باب "الأسوار واللبؤة" . ويعدّد المترجم بعدها الأبواب التى ألحقها الفرس وهى بابان من المقدمات وأربعة من أبواب الكتاب .

وهذا نسق الأبواب كلها كما ذكرت فى هذا الفهرس :

الأبواب الهندية :

ا – "الأسد والثور"، "الفحص عن أمر دمنة"، "الحمامة المطوقة"، "البوم والغربان"، "القرد والسلحفاة"، "الناسك وابن عرس" (وهى الخمسة التى فى پنچ تنترا).

ب – "الجرذ والسنور"، "الملك والطائر"، "الأسد وابن آوى" (وهى الثلاثة التى فى المهابهارتا).

ج – "الأسوار واللبؤة".

الأبواب الفارسية :

ا – "ابتداء كليلة ودمنة" (وهو الذى يسمى فى النسخ الأخرى باب "عرض الكتاب لابن المقفع" وهو فى هذه النسخة منسوب إلى بزرجمهر) وباب "برزويه الطبيب".

ب – "الناسك والضيف"، "إيلاذ والبراهمة"، "السائح والصائغ"، "ابن الملك وأصحابه".

وأعرض على القارئ فى الصفحات التالية تفصيل الكلام فى أبواب الكتاب كلها.

القسم الأول من أبواب الكتاب

المقـــــدمات

فأما "مقدمة على بن الشاه الفارسى" فلا ريب أنها زيدت على بعض النسخ العربية بعد ابن المقفع بقرنين أو أكثر. وقد خلت منها كثير من النسخ العربية القديمة كنسختنا ونسخة شيخو، كما خلت منها التراجم التى أخذت عن العربية كلها. ويرى نلدكه أنّ كاتب هذه المقدمة هو على بن محمد بن شاه الطاهرى من نسل الشاه ابن ميكال المتوفى سنة ٣٠٢ هـ. وهى مقدمة طويلة تضمنت بعض الأساطير التى خلقتها فتوح الاسكندر المقدونى فى

الشرق ، وأريدَ بها الإبانة عن السبب الذى من أجله وضع هذا الكتاب ، والتعريفُ بدبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف اللذين يُذكران فى فواتح الأبواب .

وإذا اكتفينا بهذه الكلمات عن هذه "المقدمة" بقى من القسم الأول ثلاثة أبواب : باب "عرض الكتاب لابن المقفع" وباب "بعثة برزويه إلى بلاد الهند لتحصيل الكتاب" وباب "برزويه الطبيب" .

والترتيب الطبعى أن تتوالى الأبواب على هذا النسق . وهى كذلك فى نسختنا . ولكن النسخ الأخرى ، عدا نسخة شيخو ، تضع باب "عرض الكتاب لابن المقفع" بين باب "بعثة برزويه" وباب "برزويه الطبيب" . ونسخة شيخو تضع باب "عرض الكتاب لابن المقفع" بعد البابين ، وهو فيها ناقص سقط أكثره . وبعض النسخ العربية وترجمة نصر الله الفارسية تضع فهرس الأبواب فى آخر باب "بعثة برزويه" قبل باب "عرض الكتاب لابن المقفع" .

ويتبين من هذا أنّ النسخ العربية تختلف فى الترتيب بين باب "بعثة برزويه" وباب "عرض الكتاب" . ولكنّ هذه النسخ تتفق على نسبة عرض الكتاب إلى ابن المقفع ، وتخالفها النسخة الفارسية فتفتتح الباب بهذه الجملة : « ابتداء كليلة ودمنة وهو من كلام بزرجمهر البختكان » .

وأما باب "بعثة برزويه" فتنسبه نسختنا ونسخة شيخو إلى بزرجمهر ، وتغفل بعض النسخ تسمية كاتبه . وتفتتحه النسخة الفارسية بقولها : « كذلك يقول أبو الحسن عبد الله بن المقفع » .

فالنسخة الفارسية تجعل الباب الأول : باب "بعثة برزويه" من انشاء ابن المقفع ، والبابين التاليين من إنشاء بزرجمهر . فترتيب الأبواب فيها مقبول إن صحت نسبة الأبواب إلى من نسبتها إليهم . ولكنى أبعد أن يكون باب "عرض الكتاب" لغير ابن المقفع للأسباب الآتية :

١ – اتفاق النسخ العربية التى فى أيدينا على نسبته إلى ابن المقفع .

٢ – وأنه ينتهى فى نسختنا بهـذا الكلام : « وإنا لما رأينا أهل فارس قد فسّروا هذا الكتاب وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية ألحقنا باباً بالعربية ليكون له أسًّا ليستبين فيه أمر هذا الكتاب لمن أراد قراءته ، وفهمه ، والاقتباس منه » .

وظاهر أنّ الباب الذى يبين مقصد الكتاب ، ويدعو القارئ إلى قراءته وفهمه هو باب "عرض الكتاب" . وأبين من هذا ما فى نسخة اليازجي آخرَ هذا الباب : « قال عبد الله ابن المقفع لما رأيت أهل فارس قد فسّروا هذا الكتاب من الهندية إلى الفارسية وألحقوا به باباً وهو باب برزويه الطبيب ولم يذكروا فيه ما ذكرنا فى هذا الباب لمن أراد قراءته واقتباس علومه وفوائده وضعنا له هذا الباب فتأمّل ذلك تُرْشَد إن شاء الله تعالى » .

٣ – والثالث أنّ النسخة الفارسية نفسها تختم هذا الباب بقولها : « يقول ابن المقفع لما رأينا أهل فارس ترجموا هـذا الكتاب من لغة الهند إلى اللغـة البهلوية أردنا أن يكون لأهل العراق والشام والحجاز نصيب منه وأن يترجم إلى العربية وهى لغتهم » .

وإذا رجح أنّ باب "عرض الكتاب" من إنشاء ابن المقفع فكيف وضع بين باب "بعثة برزويه" وباب "برزويه الطبيب" فى بعض النسخ ؟ أيعدّ هذا دليلا على أنّ باب "بعثة برزويه" زيد على الكتاب بعد أن ترجمه ابن المقفع كما زيدت "مقدمة بهنود بن سحوان (أو على بن الشاه الفارسى)" ؟ أو يدل على أنّ ابن المقفع وضع هذا الباب وجعله مقدمة ، ثم وضع باب "عرض الكتاب" كما وضع الفرس باب "برزويه الطبيب" ، وهذا يوافق النسخة الفارسية وهى تنص على أنه من كلام ابن المقفع كما تقدم ؟ أرجّح أنه مزيد على الكتاب بعد ابن المقفع . وأما نسختنا فتنسب باب "بعثة برزويه" إلى بزرجمهر كباب "برزويه الطبيب" ، وتضعه بعد مقدمة ابن المقفع وهو ترتيب لا إشكال فيه .

والخلاصة أنّ الفرس زادوا على الكتاب باب "برزويه الطبيب" ، وأنّ ابن المقفع زاد بابًا آخر هو باب "عرض الكتاب" ، وأنّ باب "بعثة برزويه" موضع نظر : أهو مقدمة لباب "برزويه الطبيب" كتبه بزرجمهر ، أم هو من إنشاء ابن المقفع ، أم هو مزيد على الكتاب بعد ابن المقفع ؟ ولكنى أرجح أنه مما زيد فى النسخ العربية لما ذكرت آنفًا من وضعه فى بعض النسخ قبل باب "عرض الكتاب لابن المقفع" ، ووضع الفهرس بعده ، ولأنّ الترجمتين السريانيتين خاليتان منه ، والأولى مترجمة عن البهلوية والثانية عن العربية . وهو ليس فى منظومة ابن الهبارية أيضًا . ومعنى هذا أنّ النسخ العربية القديمة لم تُجمع على هذا الباب نخلت منه الترجمة السريانية المأخوذة من العربية . وهذا يدل على أنه لم يكن فى الفهلوية أيضًا . ويؤيد هذا أنه ليس فى النسخة السريانية القديمة التى ترجمت عن الفهلوية .

القسم الثانى من أبواب الكتاب

الأبواب الخمسة التى يتضمنها كتاب "پنچ تنترا"

تتفق النسخ العربية وغيرها على وضع هذه الأبواب الخمسة أول الكتاب بعد باب "برزويه الطبيب" ، وعلى ترتيبها . وقد تضمنها كتاب مستقل فى اللغة السنسكريتية . فهى أمهات الكتاب وأثبت أبوابه فى التاريخ . وهى أجملها قصصًا ، وأكثرها مواعظ وعبرًا ، وأطولها حوارًا . وقد سمى الكتاب كله "كليلة ودمنة" باسم ابنى آوى اللذين هما محور القصص فى الباب الأول : باب "الأسد والثور" (تنظر مقارنة القصص التى فى هذه الأبواب بنظائرها فى "پنچ تنترا" فى مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب أنوارِ سُهَيلى الفارسى الذى ترجمه ادورد إيستوِك Edward B. Eastwick) .

وأما باب "الفحص عن أمر دمنة" فلا يُعرف فى الأدب الهندى ، ولا يُلفى فى النسخة السريانية القديمة . وينتهى باب "الأسد والثور" فى "پنچ تنترا" بأنّ الأسد لم يفكر فى شتزبة من بعد ، وأنه جعل دمنة وزيره وعاش سعيداً .

وليس فى خاتمة باب "الأسد والثور" من نسختنا ونسخة شيخو ما يدل على أنّ وراءه باباً للفحص عن أمر دمنة . والنسخ الأخرى العربية المطبوعة والنسخة الفارسية والسريانية الحديثة تختم الباب بأنّ الأسد اطّلع على كذب دمنة فقتله .

والظاهر أنه باب إسلامى وضعه ابن المقفع لئلا ينجو دمنة الخائن من العقاب الجدير به . وفى الباب مسحة إسلامية ولا سيّما فى الكلام على البيّنة ، وقد جاءت فيه كلمة : « الإسلام » فى نسختنا . ولعلّها سهو من الكاتب (انظر تعليقاتنا ص ٢٩٣ (٧)) .

وأما باب "السائح والصوّاغ" فقد جاء فى الباب الأول من "پنچ تنترا" وهو باب "الأسد والثور" . وقد عثر عليه فى مجموعة من الأساطير البوذية اسمها : "سَواهنى" وكتاب آخر بوذى اسمه : "كرماچتكا" . فلا ريب أنه وضع بادئ بدء فى الآداب الهندية .

القسم الثالث من أبواب الكتاب

أبواب "الجرذ والسنور" و"الملك والطائر" و"الأسد وابن آوى"

هذه القصص الثلاث تلفى فى الحماسة الهندية الكبرى التى تسمى : "مهابهارتا" . وقصة "الملك والطائر" تلفى كذلك فى كتاب آخر اسمه : "هرِوَنْشه" .

وهى تتوالى فى النسخ كلها كما تتوالى الأبواب الخمسة التى يتضمنها كتاب "پنچ تنترا" وتليها فى بعض النسخ . ويتخلل بين هاتين المجموعتين فى نسخ أخرى بعض

الأبواب ، يفصل بينهما فى نسختنا باب "إيلاد وإيراخت وشادرم" وباب "ملك الجرذان" ، وفى نسخة شيخو باب "إيلاذ وشادرم وإيراخت" وحده .

وهذه الأبواب الثلاثة والأبواب الخمسة الأولى داخلة فى العشرة التى عدّها نصر الله بن عبد الحميد أبواباً هندية . وبقية العشرة باب "الفحص عن أمر دمنة" وباب "الأسوار واللبؤة" .

ويظهر مما تقدم أنّ النسخ التى توالى بين هذه الأبواب الثمانية أقرب إلى ما عرف من تاريخ الكتاب حتى اليوم ، وأنّ الفصل بين الأبواب الخمسة والأبواب الثلاثة طارئ على الكتاب . ثم أحد البابين الفاصلين فى نسختنا وهو باب "ملك الجرذان" ليس من كلام ابن المقفع بلا ريب . وفى هذا دليل آخر على أنّ الفصل بين الأبواب الخمسة والأبواب الثلاثة حادث فى الكتاب .

القسم الرابع من أبواب الكتاب

وأما القسم الرابع فهو كما قدمت قسمان : أربعة أبواب تتفق عليها النسخ ، وثلاثة تختلف فى إثباتها .

ا - الأبواب التى تتفق عليها النسخ :

١ - والباب الأول من الأربعة المتفق عليها هو فى نسختنا باب "إيلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند" . وهو كما يرى القارئ باب هندى بوذى يمثل العداوة بين البراهمة والبوذية ويشنع على البراهمة . وقد عُثر على القصة فى اللغة التبتيّة . والظاهر أنه نقل إليها من الهندية . ووضعُه فى نسختنا ونسخة شيخو بين الأبواب التى عرف أصلها الهندى يؤيّد هذا . ويرى القارئ أنّ الباب قسمان مختلفان : الأول قصة الأحلام وتأويلها ، والثانى

المحاورة بين الملك ووزيره. والقسم الثانى مختصر فى نسخة دى ساسى والنسخ المصرية، ومطنب فى نسختنا ونسخة شيخو والنسخة السريانية الحديثة.

٢ – وأما باب "اللبوة والأسوار" فظاهر فيه النزعة الهندية: تحريم اللحم والاقتيات بالفاكهة، ثم التحرج من أكل الفاكهة والاجتزاء بالعشب حينما شكت الوحوش قلة الفاكهة.

٣ – والباب الثالث، باب "الناسك والضيف" لا يوجد فى السريانية القديمة المترجمة من الفهلوية، وليس فيه ما يدل على أصل هندى، بل فيه من ذكر التمر واللغة العبرية ما يبعده عن الهند. فإما أن يكون مزيداً فى اللغة الفهلوية وقد أسقط فى الترجمة السريانية القديمة، وإما أن يكون من زيادات النسخة العربية ألحقه ابن المقفع أو ألحق بعده. ولست أرى فى أسلوبه ما يبعده من كلام ابن المقفع. واتفاق النسخ العربية عليه يرجح هذا.

٤ – وأما باب "ابن الملك وأصحابه" فقد رأى بعض الباحثين شبهاً بينه وبين قصة جاءت فى الباب الأول من "بنج تنترا". ويرى الأستاذ فلكنر أن هذه المشابهة ضعيفة لا تبرز الحكم بأنهما من أصل واحد، وينقل عن بنفى (Benfey) رأيه فى أن الباب بوذى الأصل. وأرى أسلوبه ليس بعيداً من أسلوب ابن المقفع. فالظاهر أنه مما ترجمه كذلك.

ب – الأبواب التى توجد فى بعض النسخ دون بعض:

١ – فأما "باب ملك الجرذان" فهو لا يوجد إلا فى نسختنا وحدها. ولا ريب أن لغته وأسلوبه بعيدان من لغة ابن المقفع وأسلوبه كل البعد؛ بل أرى فيه من الركاكة ومقاربة العامية ما يرجح أنه ألحق ببعض نسخ الكتاب بعد ابن المقفع بقرون. وهذا الباب يوجد فى السريانية القديمة، وهو آخر أبوابها. ويظهر أنه ترجم منها أو من كتاب آخر وألحق بهذا الكتاب، ولذا تخلو منه نسخ عربية كثيرة، وتخلو منه أكثر التراجم التى نقلت عن العربية.

ويرى الأستاذ نلدكه أنّ هذا الباب فارسي لا هندى . وقد لخص فلكنر أدلة نلدكه ومنها أنّ الأسماء فى هذا الباب ليست هندية وكثير منها فارسى ، وأنه ورد أثناء الباب عبارة « فى أرض البراهمة » . وهى عبارة لا تقال فى كتاب هندى ، وأنّ فى الباب جملة تذم الانتحار وهذا قريب من مذهب الفرس لا الهند (انظر مقدمة فلكنر ص XXXVI) .

٢ – وأما باب "مالك الحزين والبطة" فقد عثر عليه دى ساسى فى بعض النسخ ، وقد كتب ناسخه أنه باب زيد على الكتاب من بعد . ويخبرنا فلكنر أنه ورد فى بعض المخطوطات العربية ، ولم أجده فى النسخ العربية المطبوعة كلها . ويوجد فى بعض التراجم المأخوذة عن العربية كالترجمة الأسبانية والعبرية .

٣ – وأما باب "الحمامة والثعلب ومالك الحزين" فقد ورد فى النسخ المصرية والشامية المطبوعة إلا فى نسخة شيخو . وليس فى نسختنا ولا فى طبعة دى ساسى ، وهو فى بعض التراجم المأخوذة عن العربية كالاسبانية والعبرية كالباب الذى قبله .

وهذه الأبواب الثلاثة ليست فى ظنى من كلام ابن المقفع .

***

هذه خلاصة ما هدى إليه البحث فى كتاب "كليلة ودمنة" وتاريخه . وعسى أن تكون هذه المقدمة وهذه الطبعة خطوتين سديدتين لم يظفر بمثلهما تاريخ الكتاب فى اللغة العربية من قبل . وعسى أن يجدا من عناية الأدباء والباحثين ما يكافئ قيمتهما ، ويجازى ما بذل من اجتهاد ودأب ، وما احتمل من نفقة وعناء لإخراج الكتاب فى صورة تفخر بها الطباعة فى الأقطار العربية كلها . والله ولىّ التوفيق .

القاهرة فى ١٠ مارس سنة ١٩٤١

عبد الوهاب عزام

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمدُ لله اللطيف الخبير، العليم القدير، القاهرِ فى مُلكه، الدائم فى عِزّه، العادلِ فى قضائه، المنفردِ فى ملكوته، خالقِ الخلق، وباسطِ الرزق. ليس كمثله شئٌ وهو السميع البصير. نعم المولى ونعم النصير. خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسكن فيه حكمته، وتوارث ذلك ذُرِّيتُه؛ فمنهم سعيدٌ بإرادته، وشقىٌّ بقدرته.

وأشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، شهادةً أرجو بها الخلاص وأفوز بها يوم الإخلاص. وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله؛ خلقه للهدى، وقد فاز من به اهتدى. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم[1].

[illegible]



باب عرض الكتاب (1)
لعبد الله بن المقفع

هـذا كتابُ كليلةَ ودِمنة . وهو مما وضعَتْه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التى التمسوا بها أبلغَ ما يجدون من القول ، فى النحو الذى أرادوا . ولم يزَل العقلاء من أهل كل زمان يلتمسون أن يُعقَل عنهم ، ويحتالون لذلك بصنوف الحِيَل ، ويطلبون إخراجَ ما عندهم من العِلَل . فدعاهم ذلك إلى أن وضعوا هذا الكتاب ، ولخّصوا فيـه من بليغ الكلام ومُتقَنه على أفواه الطير والبهائم والسباع . فاجتمع لهم من ذلك أمران : أما هُمْ فوجَدوا مُتصرَّفًا فى القول ، وشِعابًا يأخذون فيها . وأما هو فجمع لَهوًا وحِكمة . فاجتباه الحكماء لِحكمتِه ، والسُّخَفاء لِلَهوه . وأما المتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشِطوا لعِلْمه ، وخَفّ عليهم حِفظُه . فإذا احتنك الحدَثُ واجتمع له أمرُه ،

وثاب إليه عقلُه ، وتدبّر ما كان حَفظ منه ، وما وعاه فى نفسه ، وهو لا يدرى ما هو – عَرَف أنه قد ظَفِر من ذلك بكنوزٍ عِظام . فكان كالرجل يُدْرِكُ فيجدُ أباه قد كنز له من الذهب والفضة ، واعتقد له ما استَغْنى به عن استقبال السعى والطلب . ولم يكنْ – إذ كثُرت صنوفُ أصول العلم ثم تفرّعت فروعها – بدٌّ من أن تَكثُرَ العِلل التى تجرى عليها أقاويل العلماء .

فأول ما ينبغى لمن طلب هذا الكتابَ أن يَبتدئَ فيه بجَودة قراءته والتثبُّتِ فيه ، ولا تكونَ غايتُه منه بلوغَ آخره قبل الإحكام له ؛ فليس ينتفع بقراءته ولا يُفيد منه شيئاً . وإن طمَحتْ عيناه إلى جَمْعه ، ولم يأخذ منه ما يعى الأولَ فالأولَ ، فإنه خليقٌ ألّا يصيبَ منه إلّا كما أصاب الرجلُ الذى بلَغنى أنه رأى فى بعض الصحارى كنزًا . فلما كَشف عنه ونظر إليه رأى شيئاً عظيماً لا عَهْدَ له بمِثْله . فقال فى نفسه : إن أنا أحرزتُ ما ههنا بنقلِه وحْدى لم أنقُله إلّا فى أيام ، وجعلتُ لنفسى عملاً طويلاً ؛ ولكن أستأجِرُ رجالًا يَحْمِلونه . ففعل ذلك وجاء بالرجال فحَمَلَ كلٌّ واحد منهم ما أطاق . وانطلقوا ، فيما زعم ، إلى منزله . فلم يزَل دائبًا فى ذلك حتى فرَغ واستنفد الكنزَ كلَّه . ثم انطلق إلى منزله بعد الفراغ فلم يجد شيئاً ، ووجَد كلَّ رجل منهم قد حاز ما حَمَلَ لنفسه ؛ ولم يكن له إلّا العناء فى استخراجه والتعبُ عليه .

فليس ينبغى أن يجاوز شيئاً إلى غيره حتى يُحكِمه ويتثبّتَ فيه وفى قراءته وإحكامـه . فعليه بالفهم لما يقرأ والمعرفـةِ حتى يضعَ كلَّ شئٍ موضعَه وينسُبَه إلى معناه . ولا يعرِضْ فى نفسه أنه إذا أحكم القراءة له وعرف ظاهر القول ، فقد فرغ مّما ينبغى له أن يَعرِف منه . كما أنّ رَجُلاً لو أُتِى بجَوزٍ صِحاح فى قُشوره لم ينتفعْ به حتى يَكسِره ويستخرجَ ما فيه . فعليه أن يعلم أنّ له خبيئاً وأن يلتمسَ عِلْم ذلك . ولا يكنْ كالرجـل الذى بلغنى أنه طلب علم الفصاحة فأتى صديقاً له ومعه صحيفةٌ صفراء . فسأله أن يَكتب له فيها عِلمَ العربية . فكتب له فى الصحيفة ما أراد . فانطلق الرجل إلى منزله وجعـل يقرؤها ولا يدرى ما معناها . وظنّ أنه قد أحكم ما فى الصحيفـة – وأنه تكلَّم فى بعض المجالس وفيه جماعةٌ من أهل الأدب والفصاحة . فقـال له بعضهم : لحنتَ . فقال : ألحنُ والصحيفةُ الصفراء فى منزلى ؟ فالمرء حقيقٌ أن يَطلُب العلم[٢] فإذا وجد حاجته منه وفهِمه وعَرَفه وبلغ غايته منه ، انتفع بما يرى فيه من الأدب . فإنه يقال فى أمرين لا ينبغى لأحـد أن يقصِّر فيهما بل يُكثِرُ منهما : حُسنُ العمل والتزودُ للآخرة .

ويقـال أيضاً فى أمرين يحتاج إليهما كلٌ من احتاج إلى الحياة : المـالُ والأدب .

ويقال فى أمرين : لا ينبغى لأحد أن يستكبر عنهما : الأدبُ والموت .
ويقال : إنّ الأدب يجلو العقلَ كما يجلو الوَدَكُ النارَ ويزيدُها ضوءًا . والأدب يَرفع صاحبَه كما تُرفع الكرةُ يضربها الرجل الشديد . والعلم يُنجِى مَن استعمله . ومَن عَلِم ولم يستعمل علمه لم ينتفع بعلمه ، وكان كمَثل الرجل الذى بلغنى أنّ سارقًا دخل عليه فى منزله فاستيقظ الرجلُ فقال فى نفسه : لَأَسكُتَنّ حتى أنظر غايةَ ما يصنع ، ولأترُكَنّه حتى إذا فرَغ مما يأخذ قمتُ إليه فنغّصت ذلك عليه وكدّرته . فسكت وهو فى فراشه . وجعل السارق يطوف فى البيت ، ويجمع ما قدَر عليه حتى غلب على صاحب البيت النُّعاس ، وحمله النوم[٣] فنام ووافق ذلك فراغَ السارق . فعمَد إلى جميع ما كان قد جمعه فاحتمله وانطلق به . واستيقظ الرجل بعد ذَهاب السارق فلم ير فى منزله شيئًا . فجعل يلومُ نفسه ويعاتِبُها ويعضُّ كفّيه أسفًا . وعرف أنّ فِطنته وعِلْمه لم ينفعاه شيئًا إذ لم يستعملهما .

والعلم لا يَتِم لامرئ إلّا بالعمل . والعلم هو الشجرة ، والعمل هو الثمرة . وإنما يطلب الرجل العلم لينتفع به . فإن لم ينتفع به فلا ينبغى أن يطلبه . ورُبّ رجلٍ لو قيل له : إنّ رجلاً كان عارفًا بطريق مَخُوف ثم ركبه فأصابه فيه مكروه أو أذًى ، لتعجّب من جهله وفعله . ولعله أن يكونَ يركبُ من الأمور

ما يعرف به القُبح والذّم وشرّ العاقبة ، وهو بذلك أشدُّ استيقاناً من ذلك الرّجل الذى ركِبَ الهولَ بجهله ، وحَمَله على ذلك هواه . ومن لم ينتفع بمعرفته كان كالمريض العالم الذى يعلم ثقيل الطعام من خفيفه ، ثم تحمِلُه الشهوةُ على أكل الثقيل منه .

فأقلُّ الناس عُذرًا فى ترك الأعمال الحسنة مَن قد عرف فضلَها وحُسنَ عائدتها وما فيها من المنفعة . وليس يعذِره أحد على الخطإ ، كما أنه لو أنّ رجلين ، أحدهما أعمى والآخر بصير ، وقعا فى جُبّ فهلكا جميعاً ولم ينجُ البصيرُ من الهَلَكة - لأنه صار والأعمى فى الجبّ بمنزلة واحدة - لكان البصير عند العقلاء أقلّ عُذراً من الأعمى .

ومن كان يطلب العلم ليعلّمه غيرَه وليعرّفه سواه ، فإنما هو بمنزلة العين التى ينتفع الإنسان بمائها وليس لها من تلك المنفعة شئ . فإنّ خِلالاً ثلاثاً ينبغى لصاحب الدنيا أن يقتبسها ويُقبسها : منها العلم ، ومنها المال ، ومنها اتّخاذ المعروف . وقد قيل : إنه لا ينبغى لطالبٍ أن يطلب أمراً إلّا مِن بعد معرفته بفضله ؛ فإنه يُعَدّ جاهلاً من طلب أمراً وعَنّى نفسه فيه وليس له منفعة .

وقد نرى بعض من يقرأ هذا الكتاب فيتعجب منه ويجهد نفسه فى حفظه ويترك العمل به . (ولا ينبغى للعالم أن يعيب أحداً بما هو فيه) فيكون

كالأعمى الذى عيّر الأعور بعَوره . وينبغى لمن عقَــل ألّا يطلبَ أمراً فيه مَضَرّة لصاحبه ، يطلبُ بذلك صلاحَ نفسه فإنّ النادر مأخوذ . ومن فعل ذلك كان خليقاً أن يُصيبه ما أصاب الرجلَ الذى بلغنى أنه كان يبيع السِمسِم ، وكان له شريك . فكان سمسمهما فى بيت واحد ، غيرَ أنّ الذى لِكلّ واحد منهما على حِدة . فأحبّ أحدُهما أن يذهب بالذى لشريكه من السمسم ، ثم أحبّ أن يجعل له علامةً حتى إذا دنا الليلُ عرَفه بها ، فعمَد إلى ردائه فغطّاه به . ثم انطلق إلى صديقٍ له فأخبره بالذى همّ به ، وسأله أن يُعينه عليه ، فأبى صديقُه ذلك إلّا أن يجعل له نصفَ ما يأخذ منه ، ففعل . ثم إنّ شريكه دخل البيت فرأى سمسمه مُغطّى برداء صاحبه ، فظنّ أنه غطّاه من التراب والدوابّ . فقال فى نفسه : لقد أحسن شريكى فى تغطيته سمسمى وإشفاقِه عليه . وسمسمُه أحقّ أن يُغطّى بردائه . فحوّل الرداء على سمسم صاحبـه . فلما كان فى الليـل جاء التاجر ، والرجلُ معه ، ودخلا البيت وهو مُظلِم . فجعل الرجلُ يلتمس ويجسّ حتى وقعت يده على الرداء المغطّى على السمسم ، وهو يُقدّر أنه كما غطّاه ، وأنه سمسمُ صاحِبه . فأخذ نصفه وأعطى صديقـه الذى عاونه نصفه . فلما أصبح جاء هو وشريكه حتى دخلا البيت . فلما رأى الرجل أنّ الذى ذهب سمسمُه ، ورأى سمسم صاحبه على حاله ، دعا بالويل ، وعرف أنّ الذى أخذه ذلك

الرجلُ لِبسَ بِرادِه، ويخشى أن تكون فيه فضيحتُه، فلم يقُل شيئاً.

وينبغى لمن طلب أمراً أن تكون له غايةٌ ينتهى إليها؛ فإنه من أجْرَى إلى غير غاية أوشكَ أن يكون فيه عناؤه وتقومَ فيه دابته. وهو حقيقٌ ألّا يُعَنِّيَ نفسه بطلب ما لا يجد، وأن يكون لآخرته مُؤْثِراً على دُنياه؛ فإنه قد قيل: مَن قلّ تعلّقُه بالدنيا قلّت حسرتُه عند فراقها. وينبغى له ألّا ييئس من أن يُصيب ذلك وإن قسا قلبُه؛ فإنه يقال فى أمرين يجملان بكل أحد؛ وهما النُّسْك والمال. وإنما مثل ذلك كالنار المتأجّجة التى لست تقذف إليها حطباً إلّا قبلته وكان لها موافقاً.

وربما أصاب الرجلُ الشئَ وهو غيرُ راجٍ له، كما أصاب الرجلُ الذى بلغنى أنه كانت به حاجةٌ شديدة، وخَلَّةٌ ظاهرة، وفاقة وعُرْى. فغدا يطلبُ من معارفه، وشكا إليهم، وسألهم ثوباً يلبَسُه. وجَهِد فلم يُصِب شيئاً، ورجع إلى منزله وهو آيِس. فبينا هو نائم على فراشه إذا بسارق قد دخل عليه فى منزله فلما رآه الرجل قال: ما فى منزلى شئٌ يستطيع هذا السارق أن يسرِقه؛ فليصنعْ ما يشاء، وليُجهِدْ نفسَه. وإنّ السارق دار فى البيت، وطلب فلم يجد شيئاً يأخذه. فغاظه ذلك، وقال فى نفسه: ما أرى ههنا شيئاً، وما أُحِبّ أن يذهب عَنائى باطلاً. فانطلق إلى خابية فيها شئٌ من بُرّ

فقال : ما أجِدُ بُدًّا من أخذ هذا البُرّ إذ لم أجد غيره . فبسط مِلحفة كانت عليه ، وصبّ ذلك البُرّ فيها . فلما بصُر به الرجل قد جعل البُرّ في الملحفة وهو يريد أن ينطلق بها قال : ليس على هذا صَبْر ؛ يذهب البُرّ ويجتمعُ علىّ أمران : الجوع والعُرى . ولن يجتمعا على أحد إلّا أهلكاه . فصاح بالسارق فهرب من البيت وترك الملحفة . فأخذها صاحبُ المنزل فلبسها وأعاد البُرّ إلى مكانه . فليس ينبغى لأحد أن ييأس ، ولا يطلبَ ما لا يُنال ! ولكن لا يَدَع جُهداً فى الطلب على معرفة ؛ فإنّ الفضل والرزق يأتيان من لا يطلبهما ؛ ولكن إذا نَظَر فى ذلك وَجَد من طَلَب وأصاب أكثرَ ممّن أصاب بغير طلب ، ولم يكن حقيقاً أن يَقتدىَ بذلك الواحدِ الذى أصاب من غير طلب ، ولكن يَقتدى بالكثير الذين طلبوا فأصابوا . وحقٌّ على المرء أن يُكثِر المقايَسة ، وينتفعُ بالتجارب . فإذا أصابه الشئ فيه مَضرّة عليه حَذِره وأشباهَه ، وقاس بعضه ببعض ، حتى يحذَر الشئَ بما لَقِى من غيره ؛ فإنه إن لم يحذَر إلّا الذى لَقِىَ بعينه لم يُحكِم التجارب فى جميع عُمُره ، ولم يزل يأتيه شئ لم يكن أتاه بعينه . فأما الذى ينبغى ألّا يدعَه على حال فأن يحذر ما قد أصابه . وينبغى له مع ذلك أن يحذَر ما يُصيب غيرَه من الضرر حتى يَسْلَم من أن يأتيَه مِثلُه ، ولا يكونَ مَثَله كمَثَل الحمامة التى يُؤخَذ فرخاها فيذبحان ، وترى ذلك فى وكرها ،

ولا يمنعها من الإقامة فى مكانها حتى تؤخذ هى فتذبح .

وينبغى له مع ذلك أن يكون للأمور عنده حدّ لا يجوزه ولا يقصّر عنه ؛ فإنه مَن جاز الحد كان كمن قصّر عنه ؛ لأنهما خالفا الحدّ جميعاً . وينبغى له أن يَعلم أنّ كل إنسان ساعٍ ؛ فمن كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه[٧] . ويقال فى ثلاثة أشياء : يحقّ على صاحب الدنيا إصلاحُها وأن يتدارك لنفسه فيها : أمرُ دنياه ، وأمرُ معيشته ، وأمرُ ما بينه وبين الناس . وقد قيل فى أمورٍ شتّى : مَن كانت فيه لم يَستقم أمرُه له : منها التوانى فى العمل ، ومنها التضييع للفُرَص ، ومنها التصديق لكل مُخبِر . وربّ رجلٍ يُخبَر بالشئ لا يقبلُه ، ولا يَعرِف استقامته فيصدّقُ به لما يَرى من تصديق غيره ، فيتمادى به ذلك حتى يكونَ كأنه عَرَفه . ورجلٍ يصدّق به لهواه فى الأمر الذى يُخبَر به . فالعاقل لا يزالُ للهوى متّهِماً . وينبغى له ألّا يقبلَ من أحد ، وإن كان صَدوقاً ، إلّا صِدقاً . وينبغى له ألّا يتمادَى فى الخطأ ولا يتوانى فى النظر . وينبغى له ، إذا التبس عليه أمر ، ألّا يلجَ فى شئٍ منه ، ولا يُقدمَ عليه قبل أن يستيقن بالصواب منه ، فيكونَ كالرجل الذى يجور عن سَنَن الطريق فيسيرُ على جَوره وعلى الاعوجاج ، ولا يزدادُ فى السير حثّاً إلّا ازداد من الطريق بُعداً . أو كالرجل الذى يَدخُل فى عينه القَذى فلا يزال يدلِكُها حتى يعلُوَها البياض فتذهب .

وعلى العاقل ألّا يأخذ إلّا بالحزم، ويعلمَ أنّ الجزاء كائن. ومن أتى إلى صاحبه بمثل ما أُتِيَ إليه فشقّ عليه فقد ظَلَم[٨].

فمن قرأ هـذا الكتاب فليقتدِ بما فى هذا الباب؛ فإنّى أرجو أن يَزيده بصَرًا ومعرفة. فإذا عرفه اكتفى واستغنى عن غيره. وإن لم يَعْرفه لم ينتفع به، فيكونُ مَثَلُه كمَثَل الذى رمى بحجَر فى ظُلمة الليل، فلا يَدرى أين وقع الحجر ولا ماذا صَنع[٩].

وإنّا لما رأينا أهلَ فارس قد فسّروا هـذا الكتاب[١٠] وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية ألحقنا بابا بالعربيـة ليكون له أُسًّا ليستبين فيه أمر هذا الكتاب لمن أراد قراءته، وفهمَه، والاقتباس منه.

فأول ما نبتدى بذكر بعث برزويه إلى بلاد الهند.



باب توجيه كسرى أنوشروان برزويه إلى بلاد الهند لطلب الكتاب

قال بُزُرجِمهر[١] : أما بعد ، فإنّ الله ، تبارك وتعالى ، خلق خَلقَه برحمته ، ومنَّ على عباده بفضله ، ورزقهم ما يقدِرون به على إصلاح شأنِهم ومعايِشهم فى الدنيا ، وما يُدرِكون به استنقاذَ أرواحهم من أليم العذاب . وأفضلُ ما رزقهمُ الله ومنّ عليهم به العقلُ الذى هو قُوّةٌ لجميع الأشياء ؛ فما يقدر أحدٌ من الخلق على إصلاح معيشة ، ولا اجترازِ منفعة ، ولا دفعِ مَضرّة إلّا به . وكذلك طالِبُ الآخرة المجتهدُ على استنقاذ روحه من المهلَكة . فالعقلُ سببٌ لكل خير ، وهو مكتسَبٌ بالتجارِب والآداب ، وغريزةٌ مكنونة فى الإنسان كامنةٌ كَكمون النار فى الحجر والعُود ؛ لا تُرى حتى يَقدَحها قادح من غيرها يُظهِر ضوءها وحريقها . كذلك العقل من الإنسان لا يَظهر حتى يُظهِره الأدب

وتقويه التجارب . فإذا استحكم كان هو ولىّ التجارب والمقوّىَ لكل أدب ، والمميزَ لجميع الأشياء ، والدافعَ لكل ضرّ . فلا شئَ أفضلُ من العقل والأدب . فمن منّ عليه خالقُه بالعقل ، وأعان هو على نفسه بالمثابرة على الأدب والحرص عليه سَعِد جَدّه ، وأدركَ أمَلَه فى الدنيا والآخرة .

والعقل هو المقوّى الملكَ السعيدَ الجَدّ ، الجليلَ المرتبة . ولا تصلحُ السُّوقةُ إلّا عليه وعلى تدبيره[٢] .

وقد[٣] جعل الله لكل شئ سبباً ، ولكل سببٍ علّةً ، ولكل علّةٍ مجرى . وكان من علّة انتساخ هذا الكتاب ، ونقلِه من بلاد الهند إلى مملكة فارس ، إلهامُ الله تعالى أنو شروانَ كسرى بنَ قُباذ فى ذلك ؛ لأنه كان من أفضلِ ملوكِ فارسَ عِلماً وحُكماً ورأياً ، وأكثرِهم بحثاً عن مكامن العلم والأدب ، وأحرصِهم على طلب الخير ، وأسرعهم إلى اقتناء ما يَزِينُه بزينة الحكمة ، وفى معرفة الخير من الشرّ ، والضرّ من النفع ، والصديقِ من العدوّ . ولم يَكُن يَعرفُ ذلك إلّا بعون الله خُلَفاءه وساسةَ عباده وبلاده لإقامة رعيّته وأموره . فكان مما خصّ الله به كِسرَى أنو شِروانَ أن أكرمه بهذه الكرامة ، ورزَقه هذه النعمة ؛ حتى استوثقَتْ له الرعيّة ، وأذعنتْ له بالطاعة ، وصفَت له الدنيا ، وانقادت الملوكُ له ، فركَنَتْ إلى طاعته . وتلك نعمة

من الله سابقــةٌ قسَمها له فى دولتـــــه ، وعُباب مُلكه .

فبينما هو فى عِزّ ملكه وبهاء سُلطانه إذ بلَغه أنّ بالهند كتاباً من تأليف العلماء ، وترصيف الحكماء ، وتدبير الفهماء ، قد مُيِّزتْ أبوابُه ، وأُثبِتَت عجائبُه على أفواه الطير والبهائم والوحش والسباع والهوامّ وسائر حَشَرات الأرض ، مما يَحتاج إليه الملوك فى سياسة رَعِيّتها وإقامة أوَدها وإنصافها . فلا قِوامَ للرعيّة إلّا بحُسن سياسة الملوك ، وسَعة أخلاقها ، ورأفتها ورحمتها . ولذلك لم يَدَع كِسرَى أنوشِروانُ اقتناء ذلك الكتاب الذى بَلَغه عنه أنه ببلاد الهند ، وضمَّه إلى نفسه ، والاستعانةَ به على سياسته ، والعملَ بحسن تدبيره .

فلما عَزَم على ما أراد مِن أمْره ، وهمّ بالبِعثة فى طلب كتاب كَليلة ودِمْنة وانتساخِه قال فى نفسه : مَن لِهذا الأمرِ العظيم ، والأدبِ النفيس ، والخطبِ الجليل الذى يَزَيَّن به ملوكُ الهند دون ملوك فارسَ ؟ وقد هممنا ألّا ندعَ – مع بُعد السفر ، وصعوبة الأمر ، ومَخاطر الطريق ، وكثرة النفقـة – طَلبَ هذا الكتاب حتى نصلَ إلى نَسخه ونقفَ على إتقانه ، ورصانة أبوابه ، وعجائبه . ولا بدّ لنا من أن ننتخبَ مَن نُريد إرسالَه فى ذلك من هذين الصِّنفين من الكُتّاب والأطِبّاء ؛ فإنّ أهل هذين يجتمع عندهم جوامعُ من بُحور الأدب ، وكُنوزِ الحكمة ، فى أناةٍ وتُؤدة ، وتجرِبةٍ ونَفاذِ حِيلة ، وتحفُّظٍ وتحرّزٍ ، وكمالِ

مروءة، ودَهاء وفطنة، وحِلمٍ وتصنُّع، ولُطفِ سياسةٍ وكِتمان سِرّ.

فلما فَحَص الرأى فيما أجمع عليه، اختار فى مملكته، وانتخب من علمائه، فلم يجد أحداً على نحو ذلك إلّا بَرْزَوَيْهِ بن آذَرهِربَذ. وكان من رؤساء أطبّاء فارس ومن أبناء مُقاتِلتها. فدعاه كسرى وقال له: إنّا قد انتخبناك لموضع حاجتِنا، وتفرّسْنا فيك الخير. وأمّلنا فيك أن تكونَ على ما أردنا من إصابةِ هذه الحاجةِ التى نحن مُرسِلوك فيها؛ لِما عِلمِنا عنك من الاجتهاد فى العلم والأدب، وحِرصِك على طَلَبهما.

ونحن مُرسِلوك إلى بلاد الهند لِما بلَغَنا عن كتابٍ عند مُلوكها وعُلمائها قد ألّفته العلماء، وهذّبته الحكماء، وأتقنه الفطناء، ليس فى خزائن الملوك مثلُه - يستعين به على عَظائمهم ملوكُ الهند. فتعزمُ على المسير بسببه فتستفيدُه برِفْقٍ وتُؤَدة وتلطُّف. وتحملُ معك من المال ما أردتَ، ومن طُرَف بلاد فارس وهداياها ما تعلمُ أنه يُعينُك على استخلاصه، مع ما تَقدِر عليه من الـكُتُب التى يحتاج إليها الملوك. وليَكن ذلك فى سرّ مكتوم.

فإذا أكملتَ ما تريده وأنت فى بلاد الهند، كتبتَ إلينا بذلك، وأسرعتَ الوُفودَ إلى حضرتنا؛ فإنّا مُجزِلو عطيّتِك، ورافعو درجتِك، ومُبلِغوك فوق ما أمّلته من دولتنا. فبادِرْ لِما أُمِرتَ، واحفظ ما وُصّيتَ به، وليكن مِن

شأنك التثبتُ والتأنّى فى جميع أمورك. فخرّ برزويه ساجداً وقال: سمعاً وطاعةً. سيجِدنى الملك كما أحَبَّ إن شاء الله. ثم نهض إلى منزله فتخيّر من الأيام أيمنها، ومن الساعات أبركها. وسار فى اليوم المختار؛ فلم يزل تخفِضه أرض وترفعُه أخرى حتى قدم إلى بلاد الهند، فأراح من وَعْثاء الطريق.

ثم إنه طاف بباب الملك، وتخلّل مجالس السُّوقة، وسأل عن قَرابة الملوك والأشراف، وعن العلماء والفلاسفة. فجعل يغشاهم فى منازلهم وعلى باب الملك؛ ويتلقّاهم بالتحية والمساءلة، ويُخبرهم أنه قدم بلادهم لطلب العلم والأدب؛ وأنه مُحتاجٌ إلى مَعونتهم على ما طلب من ذلك، ويسألهم إرشاده إلى حاجته، مع شِدّة كِتمانه لما قَدِم له، وكِنايته عنه. فلم يزَل كذلك زماناً طويلًا؛ يتأدّب بما هو أعلمُ به، ويتعلّم من العلم ما هو ماهرٌ فيه، ويكنى عن بُغيته وحاجته.

واتخذ، لطول لُبثه وإقامته، أصدقاء كثيرين من أهل الهند، من الأشراف والسُّوقة وأهلِ كل صناعة. واختصّ من جماعتهم رجلًا كان شريفاً عالماً يسمّى أزويه. وكان صاحبَ سرّه ومَشُورته لِما ظهر له من عِلمه وفَضل أدبه، وصحّ له من إخائه ومَحْض موَدّته، وفصاحة منطقه. وكان يُشاوِره فى جميع أموره، ويستريح إليه فيما يُهِمّه؛ إلّا أنه كان يَكتُمه الأمرَ الذى هو بُغيته. وكان يبلوه باللُّطف لينظرَ هل يراه موضعاً لإطلاعه على سِرّه

فلم يزل يبحثُ عن ذات نفسه حتى وَثِق به ، وعَلِم أنه لِما استُودِع من السرّ موضعٌ ، وفيما سأل مُشَفَّع ، وفيما استعان به عليه مجتهد . فازداد له إلطافاً . فكان ، إلى ذلك اليوم الذى رجا أن يكون قد ظفر بحاجته ، قد أعظمَ النفقةَ معَ طول الغَيبة وإلطافِ الأصدقاء ، ومجالستِهم على الطعام ومنادمتِهم على الشراب لطلبِ الثقاتِ منهم فلم يطمئنّ إلى أحد منهم إلّا إلى صديقه ذلك .

وكان مما حكّ به برزويه صديقه ذلك ورازه وفتّش عقله ووثق به واطمأنّ إليه أن قال له يوماً ، وهما خاليان : يا أخى ما أريد أن أكتمك من أمرى شيئاً فوق ما قد كتمتُك . فاعلَم أنى لأمر جئت ، وهو غير ما ترى يظهرُ منى . والعاقلُ يكتفى من الرجل بالعلامات الظاهرة فيه ، من نظره وإشارته بيده ، فيعلمُ سرَّ نفسه ، وما يُضمِر عليه قلبه . قال الهندى : إنى وإن كنتُ لم أبدأك ، ولم أُخبرك بما له جئتَ ، وإياه طلبتَ ، وأنك تكتم أمرًا تطلبه وأنت تُظهر غيره فإنه لم يكن يخفى علىّ . ولكن ، لرغبتى فى إخائك ، كرهتُ أن أواجِهك بأنه قد ظهر لى ما تَكتُم ، وأنه قد استبان لى ما أنت فيه وما تُخفيه . فأما إذ افتتحتَ الكلامَ فأنا مُخبِرُك عن نفسك ، ومُظهرٌ لك سريرةَ أمرِك ، ومُعلِمُك حالَك الذى قدمتَ عليه . فإنك قدِمتَ بلادنا لتسلُبنا

علومَنا الرفيعة وكنوزَنا النفيسة ، فتذهبَ بها إلى بلادك لتسرَّ بها مَلِكَك .
وكان قدومُك بالمكر ، ومصادقتُك بالخديعة ؛ ولكن لما رأيتُ صبرَك ،
وطولَ مُواظبتك على طلب حاجتِك ، وتحفُّظَك من أن تسقط فى الكلام
- فى طول لُبْثِكَ عندنا - بشئ نستدل به على سريرة أمرك ، ازددتُ رغبة
فى عقلك ، وأحببتُ إخاءك . ولا أعلمُ أنى رأيتُ أوزنَ منك عقلاً ،
ولا أحسنَ أدباً ، ولا أصبرَ على طلب حاجة ، ولا أكتمَ للسرّ منك ،
ولا أحسنَ خُلُقاً ، ولا سيّما فى بلاد غُربة ، وبمملكةٍ غير مملكتك ، وعند
قوم لم تكن تعرف سُنّتهم ولا أمرهم .

واعلم أنّ عقل الرجل يستبين فى أمور ثمان : الأولى منها الرِّفق والتلطف .
والثانية أن يَعرف الرجلُ نفسَه ويحفظَها . والثالثة طاعةُ الملوك وتحرِّى
ما يُرضيهم . والرابعة معرفة الرجل بموضع سرّه ، وكيف ينبغى أن يُطلِع عليه
صديقَه . والخامسة أن يكون على أبواب الملوك جُوّلًا أريباً مِلِقَ اللسان .
والسادسة أن يكون لسرّه ولسرّ غيره حافظًا . والسابعة أن يكونَ قادراً على
لسانه فلا يلفِظ من الكلام إلّا ما قد روّى فيه وقدّره . والثامنة إذا كان فى
المحفل لم يُجِب إلّا بما يُسأل عنه ، ولم يُظهر من الأمر إلّا ما يجب عليه .

فمن اجتمعت فيه هذه الخِصالُ الثمانية كان هو الداعىَ إلى نفسه الخيرَ

والربح ، والمجنبُ لنفسه الشرَّ والخسران . وقد كَمَلت هذه الخِصال بأسرها وهى بيِّنةٌ ظاهرة فيك . ومَن اجتمعت فيه هذه الخصال شُفِّعَ فى طَلِبته ، وأُسعِف بحاجته . وإنَّ حاجَتك التى تطلب قد أرعبتْنى وأدْخَلتْ علىّ الوحشة والخشية ونسأل الله السلامة .

فلما سمع برزويه بذلك تيقّن أنه قد ظفر بحاجته . وأقبل عليه ، وقال : يا أخى لم تُخطِ فِراستى فيك فى أول مَقدَمى عليك ، واستماعى جوابَك . وإنما رمَيْتُك بجملة كلامى ، وإيجاز منطق ، لما علمتُ من حُسن مَنْقَبتك ، وبُعْد مذهبك ، وغَوصك على معدِن الفطنة والحكمة . فلذلك وثِقتُ منك بحسن القول منّى وقبول كلامى ، وإسعاف بحاجتى : وإنّ إفضاء السرّ إلى العلماء والعقلاء وأهل العلم ، والثقةَ بهم أفضلُ عُدّة . وكذلك شبّهَت العلماء مُودِع الأسرار عند أهلها بالجبل الشامخ الذى لا تُزيله الريح ، ولا تحرّكه بكثرة إذرائها . وأنت - بحمد الله - يَدُكَ عندى جميلة ، عليها أعتمد .

قال الهندى : حِفظُ الأسرار وكِتمانُها شبّهته العلماء بغِلاف القارورة المغطّى عليها ؛ تراها واحدةً فإذا نُزِع الغِطاء فجِرمان اثنان ، فإذا فُرِّغت مما فيها فهى ثلاثةٌ مشهورة قد عُلِم بها . ورأسُ الأدب حِفظ السرّ ؛ لأنّ السرّ إذا تكلّم به لسانان صار إلى ثلاثة ، وإذا صار إلى ثلاثة شاع فى الناس . ومثله

فى ذلك مثلُ الغيوم التى فى السماء؛ إذا كانت متقطّعة فادّعى ناس أنها مستوية ليس فيها خَلَل ولا فُرجة، كذّبهم قوم آخرون. وعلى الناظر تمييز صدق ذلك من كذبه. ولك عندى يا أخى - مع قُرب العهد بيننا - من الأيدى الكرام والألطاف، ما أتذمّم لذلك[7] منك. وإنك تسألنى حاجةً أتخوّف أن تَذيع أو يَفطُن بها حاسد فيكونَ ذلك فيه هلاكى واستئصالى، ثم لا أقدرَ على الافتداء بعِوَض ولا مال ولا جاه ولا عَون؛ لأنّ هذا الملِك سُخْطه أدنى شئ، ولا يُرضيه كثرةُ التملّق ولا التضرّع. فذلك دعانى إلى الانقباض منك والتأكيد عليك.

قال برزويه: مِن أفضل الأشياء فى الرجال كتمانُ السرّ، وحفظ ما استُودِع منه؛ فإنما نجاحُ حاجتى بإذن الله فى يدك، وكتمانُ ذلك فى يدى.

قال برزويه[8]: إنّ العلماء قد مدحت الصديقَ إذا كتَمَ سرّ صديقه. وهذا الأمر الذى قدِمتُ له، إياك اعتمدتُ به، وإليك أفشيتُه. ولن يتجاوز منّى ومنك إلى أحدٍ تكرَهُه وتخاف إذاعتَه وإفشاءه. وأنت تعلم أنك من قِبلى آمِن؛ ولكنك تتّقى أهلَ بلادك المُطيفين بالملك أن يُشيعوا ذلك، وأرجو ألّا يَشيعَ؛ لأنى ظاعِن وأنت مقيم. وما أقمتُ فليس بيننا ثالث.

فشفّعه الهندىّ فيما طلب ، وأعطاه حاجتَه من الكتُب ، ودفع إليه كتاب كليلة ودمنة [٩] .

فلما وقع برزويه فى تفسير الكتب ونَسْخها ، أقام على ذلك زماناً عظُمَتْ فيه مئونته ونفقته ، وأنصَبَ فيه بدنَه ، وسهِر فيه ليله ، ودأب فيه نهاره من الخوف على نفسه .

فلما فرغ منه ومن سائر الكتب وأحكمها ، كتب إلى كسرى أنو شِرْوان يُعْلمه بما لقى من التعب والعناء ، وأنه قد فرغ منه ومن سائر الكتب . فأجابه كسرى فى سرّ مكتوم يأمرُه بالأوبة إليه ساعة يَرِدُ عليه الكتاب . فتجهّز برزويه ، وخرج من بلاد الهند حتى ورد فارس ، ودخل على كسرى وخرّ له ساجداً . فلما رفع رأسه واستوى قائماً ، رآه كسرى قد شحَب لونُه وتغيّرت سَحْنته ، وشاب رأسه ، فرقّ له وقال : أبشر أيها العبدُ المطيعُ مولاه ، الناصحُ لمَلِكه ، ببشرى صالحة ؛ فقد استوجبتَ الشكرَ منّا ، ومن جميع الخاصة والعامة ؛ فإنّا لا نَدَع رِفْدَكَ والنظرَ لك . ونحن صانعون لك أفضلَ ما رجوت وأملت . ثم أمره أن ينصرف ويُريحَ بدنه سبعة أيام ثم يأتيَه . ففعل .

فلما كان فى اليوم الثامن دعا به . وأمر أن يُحضَر العلماء والأشراف من أهل مملكته . وأمر بُزُرجِمهر أن يقرأ الكتاب على رءوس الأشهاد . فلما قرأ

الكتاب وسمعوا ما فيه من العلم والأدب والأعاجيب التى حكوها على ألسُن الحيوان والطير تعجّبوا منه وشكروا الله على ما أنعم عليهم به من الأدب والمعرفة على يد برزويه وأحسنوا الثناء عليه .

ثم إنّ الملك أمر بأن تُفتح خزائنُ الذهب والفضة لبرزويه ، وأمره أن يأخذ منها ما أحبّ . فسجد برزويه للملك ، ورفع رأسه وقال : عشتَ أيها الملك حميداً مُخلّداً . إنّا بحمد الله قد أفادنا الله ، فى دولة المِلك وبهاء مُلكه وعِزّ سلطانه ، ما لم نأمُله . وكلُّ ما أنعم الله علينا به ، من الله ومن الملك . ولا حاجة لى إلى شئ من ذلك . لكنى أريد أن أسأل الملكَ حاجةً يسيرة يكون لى فى قضائها ذكرٌ وفخر . قال الملك : وما تلك الحاجة ؟ قال برزويه : إن رأى الملكُ أن يأمر بُزُرجِمهر بنَ البختكان أن يضع لى فى رأس هذا الكتاب باباً باسمى ، وينسِبَ إليه شأنى وفِعلى ليكون لمن بعدى عِبرةً وتأديباً ، ويحيا به ذكرِى ما حييتُ فى الدنيا ، وبعد وفاتى . فإنه إن فعل ذلك فقد شرّفنى وأهلَ بيتى آخر الأبد[10].

فقال الملك : ما أهونَ ما سألتَ فى جنب ما استوجبت . وتقدّم إلى بُزُرجِمهر بأن يضع له باباً وينسِبه إليه ، على موافقة الحق ، ليكون تحريضاً لمن قرأه على طاعة الملوك ، ولا يقصّرَ فى إتقانه وتحبيره بغاية وُسعه وطاقته[11]

فقبل بُزُرجِمهر وصيّة كسرى فى ذلك، لِعلمه بحُسن رأيه فى برزويه وإكرامِه إياه . وأطنَب فى ذلك الباب ، واجتهد فى إتقانه وترصيفِه ، ونسبَه إليه، وذكرَ تنقّلَه من حال إلى حال ، وبحثَه عن الأديان ، والتماسَه طلب الحكمة. ثم استأذن على الملك فقرأه بين يديه . فتعجّب كسرى ومن بحضرته منه[١٢].

فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف السبب الذى وُضِع عليه كتابُ كليلة ودمنة، وحُوِّل من أرض الهند إلى أرض فارس ، وليعرفْ فضلَ الملوك وطاعتهم، ويؤثرها على سائر الأعمال ، وليعلمْ أنّ الشريف من شرّفتْه الملوك ، ورفعَتْه فى دولتها .

انقضى الباب



باب برزويه الطبيب[1]
من كلام بزرجمهر بن البختكان

قال بُزُرجِمهر : إنّ برزويه رأسَ أطبّاء فارس ، وهو الذى وَلِيَ انتساخَ هذا الكتاب وترجَمه من كُتب الهند ، قال :

إنّ أبى كان من المقاتِلة ، وكانت أُمّى من بنات عظماء الزمازِمة ، وفقهائهم فى دينهم .

وكان مما ابتدأنى به ربّى من نِعَمه أنى كنت من أكرم وَلَد أبوىّ عليهما ، وأنهما أسلمانى فى تعليم الطب لمّا صار لى من عمرى سبعُ سنين[2] . فلما بلغتُ وعرفتُ أمر الطب وفضلَه ، شكرت رأيهما فى ذلك ، ورغبتُ فى تعلّمه ؛ حتى إذا شدوت منه عِلما ، وبلغت فيه ما أمِنتُ له نفسى على مداواة المرضى وهممت بذلك ، آمَرتُ نفسى وذكّرتها وخيّرتها بين الأمور الأربعة التى إياها

يطلبُ الناسُ ، ولها يسعَون ، وإليها يجِدّون . فقلت : أىُّ هذه الخِلال ينبغى لمثلى أن يَلتمس ؟ وأيها أحرَى ، إن هو بغاه ، أن يُدركَ منه حاجتَه ؟ آلمالُ أم اللذّاتُ أم الصوتُ أم أجرُ الآخرة ؟ واستدللتُ على المختار من ذلك ، فوجدت الطبَّ محموداً عند العقلاء ، ولم أجده مذموماً عند أحد من أهل الأديان والملل . وأصبت فى كتبهم أنّ أفضل الأطباء مَن واظب على طبّه لا يريد بذلك إلّا الآخرة . فرأيت أن أواظبَ عليه أبتغى ذلك ، ولا ألتمسَ له ثمناً ولا أكونَ كالتاجر الخاسر الذى باع ياقوتة ، كان مصيباً من ثمنها غِنَى الدهر ، بخرَزة لا تساوى شيئاً . ووجدت فى كُتبهم أيضاً أنّ الطبيب المبتغِى بطبّه أجرَ الآخرة ، لا ينقصُه ذلك من حظّه فى الدنيا . فإنما مثَلُه فى ذلك مثَلُ الحرّاث الذى يُثير أرضَه ويَعمُرُها ابتغاء الزرع لا العُشب ، ثم هى لا محالةَ نابتٌ فيها ألوانٌ منه . فأقبلتُ على مداواة المرضى رجاء ذلك . فلم أدَع مريضاً ، أرجو له البُرْء وأطمعُ له فى خِفّة الوجَع ، إلّا بلغتُ فى معالجته جُهدى . ومن قَدَرتُ على القيام عليه قمتُ عليه وفَليتُ به ذلك وإلّا وصفتُ له .. ولم أُرِد لشئ من ذلك جزاء ولا مكافأة ممن فعلتُه به . ولم أغبِط ، من نُظَرائى ومَن هو مثلى فى العلم وفوقى فى المال ، أحداً إلّا بعين صلاح أو حسن سيرة فى الناس قولا وعملا[٢] . وكنت أُقرِّع نفسى إذا هى نازعتنى إلى أن تغبِط أولئك

وتمنّى منازلَهم ، وأبَى لها إلّا الخصومةَ . وأقولُ : يا نفسِ أما تعرفين نفعك من ضُرّك ؟ ألا تنتهين عن الرغبة فيما لم يَنَله أحد إلّا قلّ انتفاعه به ، وكثُر عناؤه فيه ، واشتدت مئونته عليه عند فراقه ، وعظمت التبِعة عليه بعده ؟ يا نفسِ أما تذكُرين ما أمامَك فتنسَىْ ما تَشرَهين إليه فيما بين يديك ؟ ألا تستحين من مشاركة الفجَرة الجهّال فى حبّ هذه الفانية البائدة التى مَن كان فى يده منها شئٌ فليس له ، ولا يباق عليه ، والتى لا يألفها إلّا المغترّون الغافلون ؟ يا نفسِ أقصِرى عن هذا السفَه ، وما أنتِ عليه من خَطَل الرأى فيه ، وأقبِلى بقوّتك وسمعك وما تملكين ، على تقديم الخير والأجر ما استطعت ، وإياكِ والتسويف والتوانى . واعلمى أنّ هـذا الجسَد ذو آفات ، وأنه مملوء أخلاطًا فاسدة قذِرة تجمَعُها أربعةُ أشياءَ متعاديةٍ متغالبةٍ تعمِدُهنّ الحياة ، وهى إلى نفاد . كالصنم المفصّل أعضاؤه إذا رُكِّبتْ جمَعها مِسمارٌ واحد ، وأمسَك بعضها على بعض . فإذا أُخِذ المِسمار تساقطت الأوصال . يا نفسِ لا تغترّى بصُحبة أحِبّائك وأخِلّائك ، ولا تحرِصى على ذلك ؛ فإنها ، على ما فيها من السرور والبهجة ، كثيرةُ الأذى والمئونات والأحزان ؛ ثم تختِم ذلك بقطع الفراق . كالمِغرفة تُستعمل فى سخنها وجِدّتها فى حرارة المرق وسخونته ، فإذا هى انكسرت صار عاقبة أمرها إلى النار . يا نفسِ لا يحمِلنّك ما تريدين من

صلةِ أهلك وأقاربك والتماسِ رضاهم على جمع ما تهلكين فيه ، فإذا أنتِ كالدُّخنة الطّيبة التى تحترِق ويذهبُ بعَرْفها آخرون ، وكالذُّبالة تضىء لغيرها باحتراقها.

يا نفسِ لا تغترّى بالغِنَى والمنزلة التى تُبطر أهلها ؛ فإنها إلى انقلاب . وإنّ صاحب ذلك لا يبصر صِغَر ما يستعظِمُ حتى يفارقه ؛ فيكونُ كشعَر الرأس الذى يُكرمه صاحبه ، ويَخدُمه ما دام على رأسه ؛ فإذا فارق رأسه قذِره وقزّ منه . يا نفسِ دومى على مداواة المرضى ، ولا يعوّقك عن ذلك أن تقولى إنّ الطب مئونة شديدة ، والناسُ بمنافعها ومنافع الطب جُهال ؛ ولكن اعتبرى بمن يفرِج عن رجل كُربةً تحُلُّ به ، ويستنقذُه منها حتى يعودَ بعدها إلى ما كان يكون فيه من السَّعة والرَّوح ، فإنه أهلٌ لعظيم الأجر وحُسن الجزاء ، فكيف بالمتطبّب الذى يفعل ذلك بالعِدّة التى اللهُ أعلمُ بها ، فيعودون – بعد الأسقام المُمِضّة والأوجاع الحائلة بينهم وبين لذّات الدنيا من طعامها وشرابها وأزواجها وأولادها – إلى أحسنِ ما كانوا يكونون عليه من حالاتهم . فإنّ هذا خليق بجزيل الثواب وعظيم الرجاء . يا نفسِ لا يبعُدنّ عليك أمرُ الآخرة الدائمة فتميلى إلى الدنيا الزائلة ، فتكونى فى استعجال القليل وبيع الكثير باليسير كالتاجر الذى زعموا أنه كان له ملء بيتٍ صندلاً ، فقال : إن أنا بعتُه موزوناً طال علىّ . فباعه مجازفة بأخسِّ الثمن .

فلما خاصمتُ نفسى بهذا وأخذتها به وبصّرتها إياه ، لم تجد له نقضاً ، ولا عنهُ مذهباً ولا مُنصرَفاً ، فاعترفتْ وأقرّت ، ولهَت عما كانت تنزِع إليه وترغَب فيه . وأقمتُ على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة . فلم يمنعنى ذلك من أن أصبتُ من الدنيا حظًّا جسيماً ، ونصيباً عظيماً ، من الملوك والأولياء والإخوان ، قبل أن آتىَ الهند ، وبعد رجوعى منها ، وفوق الذى كان طمعى يجنح إليه ، وفوق ما كنت له أهلاً .

ثم نظرت فى الطب فوجدت الطبيب لا يستطيع أن يداوىَ المريض بدواء يُذهب عنه داءه ، فلا يعود إليه أبداً ذلك الداء ولا غيرُه من الأدواء التى هى مثلُه أو أشدُّ منه . فلم أدرِ كيف أعُدّ البُرء بُرْءا - والداء لا تُؤمَن عَودتُه أو اعتِراء ما هو أشدّ منه - ووجدتُ عمل الآخرة هو الذى يُسَلّم من الأذى حتى يبرأ صاحبُها بُرءا يأمَن معه من الأدواء كلِّها . فاستخففتُ بالطب وأردت الدين . فلما وقع ذلك فى نفسى اشتبه علىّ أمرُ الدين ؛ أما كُتُب الطب فلم أجد فيها لشئ من الأديان ذكراً يدُلّنى على أهداها وأصوبِها ؛ وأما المِلَل فكثيرة مختلفة ليس منها شئ إلّا وهو على ثلاثة أصناف : قومٌ ورثوا دينَهم عن آبائهم ، وآخرون أُكرِهوا عليه حتى ولَجوا فيه ، وآخرون يبتغون به الدنيا ، وكلُّهم يزعُم أنه على صواب وهُدًى ، وأنّ مَن خالفه على

خطأً وضلالة . والاختلافُ بينهم كثيرٌ فى امر الخالق والخَلْق ، ومبتدأ الأمر ومُنتهاه ، وما سوى ذلك . وكلٌّ على كلٍّ زارٍ ، وله عدُوّ ، وعليه عائب . فرأيتُ أن أُراجِعَ علماء أهل كل مِلّة ، وأناظرهم فأنظرَ فيما يصفون ، لعلّى أعرفُ بذلك الحقَّ من الباطل فأختارَه وألزَمه على ثقة ويقين ، غيرَ مُصَدِّق بما لا أعرِف ، ولا تابعٍ ما لا يَبلُغه عقلى . ففعلتُ ذلك وسألتُ ونظرتُ فلم أجد أحداً من الأوائل يزيد على مدح دينه ، وذمّ ما يخالفه من الأديان . فاستبان لى أنهم بالهوى يحتجون ويتكلمون ، لا بالعدل . ولم أجد عند أحدٍ منهم صفةً تكون عدلاً يعرفها ذو العقل ويرضى بها .

فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا ، وعرفت أنى ، إن أُوافِقْه على ما لا أعلمُ ، أكُن كالمصدّق المخدوع الذى[6] زعموا أنّ جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيت رجل من الأغنياء ليسرقوا متاعه ، فعلَوْا ظهر بيته ليلاً ، فانتبه صاحب البيت لِوَطْئهم ، وأحسّ بهم ، فعرف أنه لم يعلُ ظهرَ بيته فى تلك الساعة إلّا مُريب . فأيقظ امرأته وقال لها : رُوَيداً ! إنى لأحسَب اللصوص قد علَوْا ظهر بيتنا . وأنا مُتناوِمٌ لكِ ، فأيقظينى بصوتٍ رفيع يسمعُه مَن فوقَ البيت من اللصوص ، ثم قولى لى : ألا تُخبِرُنى عن أموالك الكثيرة هذه وكنوزك ، من أين جمعتها ؟ فإذا أبيتُ عليكِ فألحّى

فى السؤال . ففعلت المرأة ذلك . وسمع اللصوصُ كلامها . فقال الرجل : أيتها المرأة ، قد ساقك القدَر إلى رزقٍ واسع ، فكُلى واشربى واسكتى ولا تسألى عما لو أخبرْتك به لم آمَن أن يسمعه سامع فيكونَ فى ذلك ما أكرَه وتكرهين . فقالت المرأة : لعَمْرى ما بِقُربنا أحد يفهم كلامنا . قال الرجل : فإنى مخبرُك أنى لم أجمع هذه الأموال والكنوز إلّا من السرقة . قالت : وكيف كان ذلك وأنت فى أعيُن الناس عَدْلٌ مَرْضىٌّ لم يتّهمك ولم يسترِب بك أحد ؟ قال : ذلك لعلمٍ أصبتُه فى السرقة كان ألطفَ وأرفقَ من أن يتّهمنى أحد أو يرتابَ فىّ . قالت : وكيف كان ذلك ؟ قال : كنت أذهب فى الليلة المُقمِرة ومعى أصحابى حتى أعلُوَ ظهر البيت الذى أريد أن أسرقه ، فأنتهِىَ إلى الكُوّة التى يدخل منها الضوء إلى البيت فأرقِىَ بهذه الرُّقْية وهى : « شَولَمَ ، شَولَمَ » سبع مرّات ، ثم أعتنق الضوء فأهبِط فيه إلى البيت ، ولا يحسّ بوقوعى أحد . ثم أقومُ فى أسفل الضوء فأعيدُ الرُّقْية سبعَ مرات فلا يبقى فى البيت مالٌ ولا متاع إلّا ظهر لى ، وأمكننى أن أتناوله ، وقويتُ على حمله . ثم أُعيدُها وأعتنقُ الضوء وأصعدُ إلى أصحابى فأُحمِّلهم ما معى ، ثم ننسلّ ولا يَشعر بنا أحد .

فلما سمع اللصوصُ ذلك فرِحوا وقالوا : لقد ظفِرنا من هذا البيت بأمرٍ

هو خيرٌ لنا من المال، وأمِنّا به من السلطان. وأطالوا المُكث حتى ظنّوا أنّ الرجل قد نام. ودنا رئيسهم إلى مَدخل الضوء من الكُوّة فقال: «شَولَمَ، شَولَمَ» سبعَ مرات. ثم اعتنقَ الضوء لينزل إلى البيت فوقع مُنكّسًا. فوثب إليه صاحبُ البيت بِهراوة فأوجعه ضربًا وقال له: مَن أنت؟ قال: أنا المصدِّق المخدوع، وهذه ثمرة تصديقى.

فلما تحرّزت من التصديق بما لم آمن أن يوقِعَنى فى مَهلَكة، عُدتُ إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها؛ فلم أجد عند أحد مِمن كلمتُه، فى جواب ما سألتُه عنه، ولا فيما ابتدأنى به، شيئًا يحقّ علىّ فى عقلى أن أوقِن به وأتّبعه. فقلت: أما إذا لم أُصِب ثقةً آخُذ منه فإنّ الرأى أن ألزَم دين آبائى. وهممتُ بذلك فلم أرَ لى فيه مَخرَجا، ولا وجدت الثبوت على دين الآباء سبيلا، ولا لى فيه حُجّة ولا عذرا. فأردت التفرُّغ للعَود إلى البحث عن الأديان والمسألة عنها. فعرَض لى تخوُّفُ قُرب الأجَل وسرعتِه، وانقطاعُ الدنيا وفناؤها، وفكّرت فى ذلك وقلت: أما أنا فلعل مَوتى يكون أوْشَك من تقليب كفّىّ ورَجْعِ جَفنىّ على عينىّ. وقد كنتُ أعمَل أمورًا أرجو أن تكون من صالح الأعمال، لعل تردّدى وتنقّلى وبحثى عن الأديان يَشغلنى عن خير كنت أفعله، فيكونَ أجَلى دون ما يطمح إليه أمَلى، أو يصيبَنى فى تردّدى وتحوّلى ما أصابَ

الرجلَ الذى زعموا أنه عَلِق امرأةً ذاتَ بعل وعلِقَته. فحفرَت له من بيتها سَرَباً إلى الطريق وجعلَت مَخرجه عند حُبّ الماء، تخوّفاً أن يفاجئها زوجها أو أحد وهو عندها، فبينما هى ذاتَ يوم وهو عندها، إذ بلغها أنّ زوجها بالباب. فقالت للرجل: إعجَل واخرُج من السَرَب الذى عند الحُبّ. فانطلق الرجل إلى ذلك المكان، فوافق الحُبَّ قد رُفع من ذلك المكان. فرجع إلى المرأة قال: قد انتهيت إلى حيث أمرتِ فلم أجد الحُبّ. فقالت المرأة: أيها المائق وما تصنع بالحُبّ؟ وهل سمّيتُه لك إلّا لتستدلّ به على السَرَب؟ قال: لم تكونى حقيقة أن تذكريه لى فتغلّطينى به. فقالت المرأة: وَيحَك! انجُ بنفسك، ودَعِ التردّد والحمق. فقال: كيف أذهب وقد خلّطت علىّ؟ فلم تزَل تلك حالته حتى دخل زوجُها فأوجَعه ضرباً ثم رفعه إلى السلطان.

فلما خفتُ التردّد والتحول رأيت ألّا أتعرّض لهما. وأن أقتصر على كل شئ تشهد العقول أنه برّ، ويتّفقُ عليه كل أهل الأديان. فكففتُ يدى عن الضرب والقتل والسَرِقة والخيانة، ونفسى عن الغضب، ولسانى عن الكَذِب وعن كل كلام فيه ضَرَر لأحد. وكففتُ عن أذى الناس والغِيبة والبُهتان. وحصّنت فَرجى عن النساء، والتمست من قلبى ألّا أتمنّى ما لغيرى، ولا أُحِبّ له سُوءاً، ولا أُكذّب بالبعث والحساب والقيامة والثواب والعقاب،

وزايلتُ الأشرار بقلبي ، وأحببت الصُّلَحاء جُهدى ، ورأيت الصلاح ليس مِثلَه قرينٌ ولا صاحب ، ومُكتَسَبه - إذا وفق الله له - يسيرٌ ، وأصبتُه خيراً على أهله ، وأبرَّ من الآباء والأمّهات . ووجدته يدلّ على الخير ، ويُشير بالنُّصح ، فِعلَ الصديق بالصديق . ووجدته لا ينقص إذا أُنفِقَ منه ؛ بل يزداد على الإنفاق ويكثرُ ، ولا يَخلُق على الابتذال والاستعمال ، بل يَجِدّ ويحسُن ، ولا خوفَ عليه من السلطان أن يسلُبه ، ولا من الآفات أن تُفسِده ، ولا من النار أن تُحرِقه ، ولا من اللصوص سَرَقاً ، ولا من السباع افتراساً ، ولا من ذى حُمَة لَدغاً ، ولا من الغارة ، ولا من الجوائح . ووجدتُ الرجل الذى يزهد فى الصلاح وعاقبته ، ويُلهيه عن ذلك قليلُ ما هو فيه من الحلاوة العاجلة النفاد ، إنما مَثَلُه ، فيما ذهبت فيه أيامُه ، مَثَلُ التاجر الذى زعموا أنه كان له جوهر كثير ، فاستأجر لثقبه وعملِه رجلًا بمائة دينار يومَه إلى الليل فانطلق به إلى بيته . فلما جلسا إذا بصَنْج موضوع ، فنظر إليه ، فقال له التاجر : أتحسِنُ أن تضرِب به ؟ قال نعم : قال : فدونك . فتناولَه ، وكان به ماهراً ، فلم يزل يُسمِعه صوتاً حسَناً مصيباً . وترك سَفَطَ جوهرِه مفتوحاً وأقبل عليه .

فلما أمسى قال : مُرْ لى بأجرتى . قال : وهل عملتَ شيئاً ؟ قال : نعم .

عملتُ ما أمرتنى به . فوفّاه أجرته ، وبقى ما استأجره عليه غيرَ معمول .

فلم أزدَد فى أمور الدنيا نظراً إلّا أحدَثَ لى ذلك فيها زُهداً . ورأيت أن أعتَصِم بالتألّه والنُسك ، ووجدتهما اللذين يمهّدان للعباد ، كما يفعل بالمرء أبوه[7] . وشبّهتُهما الُجنّة الحريزة فى دفع الشر الباقى الدائم . ورأيتُهما البابَ المفتوح إلى الجنّة . ووجدتُ الناسك قد فكّر فعلَته السكينة ، وشكر فتواضع ، وقنع فاستغنى ، ورضِى فلم يهتمّ ، وخلع الدنيا فنجا منَ الشرور ، ورفض الشهوات فصار طاهرًا ، وانفردَ فكُفِىَ الأحزان ، وطرح الحسد فظهرت منه المحبة ، وسخَت نفسُه عن كل شئ فانٍ فاستكمل العقل ، وأبصر العاقبة فأمِنَ من الندامة ، ولم يخَفِ الناس فأمن منهم ، ولم يُذنب إليهم فسلم . فلم أزدَد فى أمر النُّسك تفكّرًا إلّا أحدث لى عليه حرصاً . فهممتُ أن أكون من أهله ، ثم تخوّفتُ ألّا أصبِر على عيشهم وأن تردّنى العادةُ التى جَرَيتُ عليها وغُذِيتُ بها . ولم آمَن ، إن أنا خلعتُ الدنيا وأخذتُ فى النُسك ، أن أضعُف عنه ، وأكونَ قد رفضتُ أمورًا كنتُ أعملُها قبله ، أرجو عائدتَها ، فأكونَ كالكلب الذى مرّ بنهَر وفى فيه ضِلَع ، فرأى ظلّه فى الماء فأهوى إليه ليأخذه وتركَ ما كان معه فذهب ، ولم ينل الذى طمِع فيه . فهِبتُ النُّسك هيبة شديدة . فأحجمتُ عن الإقدام عليه ، وخفتُ على نفسى من الضجَر فيه

وقلة الصبر عليه، ودعاني الهوى إلى الرضا بما كنتُ عليه من حالي في الدنيا، والثبوتِ عليها. ثم بدا لي أن أقيس بين ما أُشفق ألّا أقوى عليه، من الأذى والضيق في النُّسْك، وبين الذي يُصيب صاحبَ الدنيا من البلاء فيها. فكان يتحقّق عندي أنه ليس من شهواتها ولذّاتها شئ إلّا وهو متحوِّلٌ مكروهاً وحُزناً. وأنه كالماء المِلح الذي لا يزداد الظمآن منه شُرباً إلّا ازداد به عطَشًا. وكالعَظْم المتعرِّق الذي يُصيبه الكلب فيجدُ فيه ريحَ لحم فلا يزال يَلوكه، وكلما ازداد له نَهشًا زاد كُدوحاً حتى يُدمِيَ فاه؛ وهو لا يُكثِر التماسَه إلّا جرَحه وأدماه. وكالحِدأة التي تظفر بالبَضعة من اللحم، فتجتمع عليها الطير، فلا تزال في تعب حتى تلفِظها وقد أُعيَتْ وتعبتْ. وكالكوزة من العسل، في أسفلها سمّ، والذائق لها مصيب منها حلاوة عاجلة وفي أسفلها موت زُعاف. وكأحلام النائم التي تُفرِحه، فإذا استيقظ انقطع ذلك عنه. وكالبَرق الذي يُضيء قليلًا ويَذهبُ وشيكاً، ويبقى راجيه في الظلام. وكدودة الأبريسَم التي لا تزداد على نفسها لفًّا إلّا ازدادت تشبُّكاً ومن الخروج بُعداً.

فلما فكّرتُ في ذلك راجعتُ نفسي في اختيار النُّسْك وخاصمتها فقلت: ما يجوز هذا — أنْ أفرّ من النُّسْك إلى الدنيا، إذا فكّرتُ في شرورها

وأحزانها ، ثم أهربُ منه إليها إذا تذكَّرتُ ما فيها من الضيق والمشقة ؛ فلا أزال فى تصرّف وفى تقلّب لا أُبرِم رأياً ، ولا أعزِم عليه . فصرتُ كحديرون قاضى مَرْوْ الذى سمع من أول الخصمين فقضى على الآخَر ، ثم سمع من الآخَر فقضى له على الأول . فنظرتُ إلى الذى يتكاءدُنى من أذى النُّسْك وضيقه فقلت : ما أصغَر هذا فى جنب رَوح الأبد وراحته ! وفكَّرت فيما تشرَه إليه النفس من اللهو واللذة فقلت : ما أوخَمه مع ما يُتَخوَّف من العذاب والهوان ! فكيف لا يَستحلى الإنسان مَرارةً فانية قليلة تُورِثه حلاوةً كثيرة باقية .

ولو أنّ الرجل عُرِض عليه أن يعيش ألف سنة ، لا يأتى عليه يومٌ إلّا بُضِع لحمُه ، غيرَ أنه شُرط له أنه إذا استوفاها نجا من الألم والمشقة ، وصار إلى الأمن والسرور - كان حقيقا ألّا يراها شيئاً . فكيف لا يصبر على أيام يسيرة ، وأذًى حقير يُصيبه من الدنيا ؟ أوَ ليس إنما الدنيا كلُّها عذاب وبَلاء ؟ فإنّ الإنسان يتقلّب فى ذلك من حين يكونُ جنيناً إلى أن يستوفىَ أيامَه . فإنّا نجد فى كتب الطب أنّ الماء الذى يُقَدَّر منه الولد السوِىّ ، إذا وقع فى رَحِم المرأة ، اختلط بمائها ودمها ، فخَثَر وغلُظ ، فمخضته الريح حتى يصير كماء الجُبن ، ثم يصيرُ كاللبن الرائب ، ثم تنقسم أعضاؤه لإبّان أجله . فإن كان ذكرًا فوجهه قِبَل ظَهر أمّه . وإن كانت أنثى فوجهها قِبَل بطنها . ويداه على وجهه ، وذقنه

على ركبتيه ، مقبَّض فى المشيمة كأنه مصرور فى صُرّة . وهو يتنفّس من متنَفَّس شاقّ عليه . وليس منه عضو إلّا كأنه فى وثاق ؛ فوقه حرّ البطن وثِقَله ، وتحتُه ما تحتَه . منوطٌ بِقمع سُرّته إلى مرىء بأمعائها ، يمص به من طعامها وشرابها . وبذلك يعيش ويحيا . فهو بهذه المنزلة وعلى هذا الحال إلى يوم ولادته . فإذا كان إبّانُ ذلك سُلّطتْ الريح على الرحِم ، وقوىَ على التحريك ، فيتصوّب رأسُه قِبَل المخرج ، فيجد من ضيقه مِثلَ ما يجد صاحبُ الوَهَقِ من عَصره . فإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو مسّته يد ، وجد لذلك من الألم ما يجد الإنسان الذى قد سُلِخ جلده . ثم هو فى ألوان العذاب إذا جاع وليس به استطعام ، أو عطش وليس به استسقاء ، أو اشتكى وليس به استغاثة ، مع ما يلقى من الوضع والرفع واللف والحلّ والدّهن والمسح . وإذا أُنيم على ظهره أو بطنه لم يستطع تقلباً ولا تحوّلا ، مع أصناف من العذاب ما دام رضيعاً . فإذا هو أفلَت من ذلك أُخِذ بالأدب ، وأُذيق منه فنوناً وألواناً ، ثم الدواء والحِمية ، والأوجاع والأسقام ، وغير ذلك . فإذا هو أدرك فهمّه المالُ والأهلُ والولدُ ، وتَعَبُ الشرَه والحرص والمخاطرةِ والسعى ، ومجاهدةِ العدوّ . وفى كل ما وصفتُ يتقلّب معه أعداؤه الأربعة ، من المِرّة والبلغمِ والدمِ والريح ، والسمُّ المميتُ والهوامّ والسباع والناس ، والحرُّ والبرد والأمطار والرياح ، وألوانُ مكاره

الهَرَم لمن بلَغه . فلو لم يخَفْ من هذه الأمور شيئاً ، ووُثِق له بالسلامة منها ، وكان حقيقاً ألّا يفكّرَ إلّا فى الساعة التى يَحضُرُهُ فيها الموتُ ، ويفكّرَ فيما هو نازلٌ به عندها – من فراقِ الأهل والأحبة والأقارب ، وكل مضنون به ومرغوب فيه ، والإشرافِ على الهول العظيم الفظيع المهول بعد الموت – لكان حقيقاً أن يُعَدّ عاجزاً مُفرّطاً واهناً ، إن لم يُعِدّ لذلك ، ويتأهّبْ لفجأته قبل حلوله ونزوله بعَقْوته ، ويرفضْ ما يشغله ويُلهيه من شهوات الدنيا وشرورها . لا سيّما فى هذا الزمان الهَرِمِ البالى الشبيه بالصُبابة والكَدَر ؛ فإنه وإن كان الله تعالى قد جعل الملك سعيدَ الأمر ، ميمونَ النقيبة ، حازمَ الرأى ، بعيدَ المقدرة ، رفيعَ الهمّة ، بليغَ الفحص ، عَدلاً برّاً جواداً صادقاً شكوراً رَحْبَ الذراع ، متفقّداً للحقوق ، مواظِباً فهِماً حليماً رءوفاً رحيماً ، عالماً بالناس ، محبّاً للخير وأهله ، شديداً على الظَلَمة ، مُوَسّعاً على رعيّته ، فإنّا نرى الزمان مُدبِراً بكل مكان ، حتى كأنّ الفضل قد وُدِّع . وأصبح مفقوداً ما كان عزيزاً فقده ، موجوداً ما هو ضارٌّ لمن ظفر به . وكأنّ الخير أصبح ذابلًا والشر نضيراً . وكأنّ الغَىّ أقبلَ ضاحكاً ، وأدبر الرشد باكياً . وكأنّ العدل أصبح غابراً ، وأصبح الجور غالباً . وكأنّ العلم أصبح مستوراً ، وأصبح الجهل منشوراً . وكأنّ اللُؤم أصبح آمراً ، وأصبح الكرم موطوءاً . وكأنّ الوُد أصبح مقطوعاً ، وأصبح الحِقد موصولًا

وكأنّ الكرامة قد سُلبت من الصالحين وتُوُخّى بها الأشرار. وكأنّ الغدر أصبح مستيقظًا، وأصبح الوفاء نائمًا. وكأنّ الكذب أصبح غضًّا، والصدق قاحلًا. وكأنّ الحق وَلّى عاثرًا وأصبح العُدوان قد جرى سبيله، والانصاف بائسًا والباطلُ مستعليًا، والهوى بالحكّام مُوَكّلاً، والمظلومُ بالخسف مُقِرًّا، والظالمُ لنفسه فيه مستطيلًا، والحِرصُ فاغرًا فاه يتلقّف من كل جهة ما قَرُب منه وما بَعُد عنه، والرضا مجهودًا مفقودًا، والأشرارُ يُسامُون السماء، والأبرار يُريدون بطن الأرض. وأصبحت المُروءةُ مقذوفًا بها من أعلى شَرَف إلى أسفل مَهواة، والدناءةُ مكرّمةً، والرفعةُ مجفُوّة، والسلطانُ مُنتقلًا من أهل الفضل إلى أهل النقص، والدنيا جذِلة مسرورة تقول: قد غُيّبَت الحسنات، وأُظهِرت السيئات.

فلما فكّرتُ في أمر الدنيا وعلمتُ أنّ هذا الإنسان هو أشرفُ الخلق وأفضلُه فيها، ثم هو، على منزلتِه، لا يتقلّب إلّا في شرٍّ ولا يوصف إلّا به، علمتُ أنه ليس من أحد له أدنى عقل يفهمُ هذا ثم لا يحتاطُ لنفسه ولا يَعملُ لنجاتها ويلتمسُ الخلاص لها إلّا وهو ضعيفُ الرأي قليلُ المعرفة بما عليه وله. ونظرتُ فإذا هو لا يغنمه من ذلك إلّا لذّةٌ حقيرةٌ يسيرةٌ من المَشرَب والمَطعَم والشمّ والنظر والسمع واللمس، لعلّه يصيب منه طفيفًا

لا يُوصَف ، سريعٌ انقطاعُه وامتحاقُه وزوالُه . فالتمستُ له مثَلًا فإذا مثله مثلُ رجل ألجأه الخوف إلى بئر تدلّى فيها وتعلّق بغصنين نابتَين على شُفرها فوقع رجلاه على شئ عَمِدَهما فنظر فإذا هو بأربعِ أفاعٍ قد أطلعن رءوسهنّ من أجحِرتهنّ . ونظر إلى أسفلها فإذا هو بتِنّينٍ فاغرٍ فاه نحوَه . ورفع بصره إلى الغصنين فإذا فى أصولهما جُرَذان أبيضُ وأسودُ يقرضانهما دائبَين لا يفتُران . فبينما هو على ذلك يهتمّ بالحيلة لنفسه إذ نظر فإذا قريب منه كُوارة نحل فيها شئ من عسل ، فتطعّم منه واشتغل بحلاوته عن التفكر فى أمره ، ونسى الحيّاتِ الأربعَ التى رجلاه عليها ولا يدرى متى يَثُرن به ، أو إحداهنّ . ولم يَذكُر أن الجرذين دائبان فى قطع الغصنين ، وأنهما إذا قطعاهما وقع فى فم التِنّين فهلك . فلم يزل لاهياً ساهياً حتى هلك .

فشبّهتُ البئرَ بالدنيا المملوءةِ آفاتٍ وشرورًا ومخاوفَ ومتالفَ ، وشبّهتُ الحيّاتِ الأربعَ بالأخلاط الأربعة التى تعمّدت الإنسان ، ومتى يَهِج منها شئ فهو كالحُمَة من الأفعى والسم المميت . وشبّهتُ الغصنين بالحياة . وشبّهتُ الجرذين بالليل والنهار ، وقرضُهما دأبُهما فى إنفاد الآجال التى هى حصون الحياة . وشبّهتُ التِنّين بالموت الذى لا بدّ منه . والعسلُ هذه الحلاوة القليلة التى يصيبُها الإنسان فتَشغَلُه عن نفسه ، وتُلهيه عن التحيّل لخلاصه ، وتصُدّه عن سبيل نجاته .

فصار أمرى إلى الرضا بحالى ، وإصلاح ما استطعت من عَملى لمَعادى ؛ لَعلّى أصادف فيما أمامى زمانًا فيه دليلٌ على هداى ، وسلطانٌ على نفسى ، وأعوانٌ على أمرى . فأقمتُ على ما وصفتُ من حالى . وانصرفتُ من أرض الهند إلى بلادى[1] ، وانتسخت من كتبهم كتبًا كثيرة ، ومنها هذا الكتاب .



باب الأسد والثور

قال دَبشَليم[1] ملك الهند لبَيْدَبا[2] رأسِ فلاسفته : اضرب لى مَثَل الرجُلين المتحابَّين يقطعُ بينهما الكذوب الخئون ويحملُهما على العداوة والشنآن .

قال بيدبا الفيلسوف : إذا ابتُلِيَ الرجُلان المتحابّان بأن يَدخل بينهما الخئون الكذوب تقاطَعا وتدابَرا وفَسَد ما بينهما من المودّة . ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دَستابَند[3] تاجر مُكثِر ، وكان له بنون . فلما أدركوا أسرعوا فى مال أبيهم ، ولم يحترفوا حِرفة تَرُدُّ عليه وعليهم[4] . فلامهم أبوهم ووعظهم فكان من عِظته لهم أنه قال : يا بَنِيّ ، إنّ صاحِبَ الدنيا يطلبُ ثلاثة أمور لا يُدرِكها إلّا بأربعة أشياء : أما الثلاثة التى يَطلُب ، فالسَعةُ فى المعيشة ، والمنزلةُ فى الناس ، والزادُ إلى الآخرة . وأما الأربعة التى يحتاج إليها فى دركها ، فاكتسابُ

المال من معروف وُجوهه ، وحُسنُ القيام عليه ، والتثمير له بعد اكتسابه ، وإنفاقُه فيما يُصلِح المعيشة ويُرضى الأهل والإخوان ، ويعود عليه فى الآخرة ، ثم التوقِّى لجميع الآفات بجُهده . فمن أضاع هذه الخِلال الأربَع لم يُدرِك ما أراد ؛ لأنه إن هو لم يكتسب لم يكن له مالٌ يعيش به . وإن هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يُحكِم تقديره أوشَكَ أن ينفَد فإذا هو ليس له شئ . وإن هو وضعه ولم يُثمِّره ، لم تمنعه قلةُ الإنفاق من سُرعة النَّفاد ؛ كالكُحل الذى لا يُؤخذ منه إلّا مثلُ الغُبار ثم هو سريع الفَناء . ثم إن كانت نفقته فى غير مواضعِ الحقوق اكتسب المذمّة ، وصار إلى عواقب الندامة . وإن هو اكتسب وأصلح ثم أمسك عن إنفاقه فى وجوهه كان كمن يُعَدّ فقيرًا لا مال له ، ثم لا يمنعُ ذلك مالَه من أن يُفارقه ويذهب حيث لا يريد بالمقادير والعلل ؛ كالمكان الذى لا تزال المياه تنصبّ إليه ؛ فإن لم يكن له مَفيض ومَخرج يخرُج منه بالقدر الذى ينبغى ، تحلّب وسال من نواحٍ كثيرة ، وربما انبثق البثقَ الذى لا يغادر قطرة[5] ، وذهب الماء ضياعاً .

ثم إنّ بنى التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم . وانطلق كبيرُهم متوجِّهاً بتجارة له إلى أرض يقال لها مَثور[6] فأتى فى طريقه على مكان شديد الوَحل ، ومعه عَجَلة يجرّها ثوران يُدعى أحدهما شَنزَبة[7] والآخر نَندَبة[8] ، فوحِل شَنزَبة فى ذلك

الوحل . فلم يزل الرجُل وأعوانه حتى أخرجوه بعد ما بلغ الجهد ، وأشرف على الهلَكة . وخلّف التاجر عنده رجُلًا وأمره أن يقوم عليه ؛ فإن رآه قد أبلّ وصلَح لِحقه به . فلما كان من غدِ ذلك اليوم بَرِم الأجير بمكانه ، وترك الثور ولحق ابنَ التاجر ، فأخبره أنه قد مات .

وإنّ شنزبة انتعش بعد ما فارقه الرجل ، فلم يزل يدِبّ حتى أتى مَرْجًا خصيباً كثير الماء والكلأ ، لِما قُضِي أن يُصيبه فى ذلك المكان من العَرَض الذى لم يكن لِيُخطئه ؛ فإنهم يزعمون أنّ رجلًا[٩] كان يجرّ خشباً فقصده ذئب ليأكله ، فلم يفطَن حتى دنا منه . فلما رآه اشتد وجَله ، وخرج هارباً نحو قرية على شاطئ نهر . فلما انتهى إلى النهر وجد عليه قنطرة منكسرة . ورَهِقه الذئب ، فقال : كيف أصنع ؟ الذئبُ يتلُونى ، والنهرُ عميق ، والقنطرةُ مكسورة ، وأنا لا أُحسِن السباحة . غير أنّ الأحرز أن أرمىَ بنفسى فى الماء . فلما وقع فيه رآه أهلُ القرية ، فأرسلوا إليه مَن استخرجه ، وقد أشرف على الهلَكة ، ثم أتاهم به ؛ فتساند إلى حائط فلما أفاق حدّثهم بما لقى ، وعظّم هول ما خلّصه الله منه ؛ فبينما هو على ذلك إذ تهدّم عليه الحائط فقتله[١٠] .

ثم إنّ شنزبة لم يلبث أن عَكِد وشحُم وتَرّ وجعل يحُكّ بقرنيه الأرض ويخور[١١] ، ويرفع صوته بالخُوار . وكان بقربه أسَد يقال له بِنكلة[١٢] . وكان

مَلِكَ تلك الناحية ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك . وكان مزهُوًّا متكبّراً منفرداً مكتفياً برأيه . وإنّ ذلك الأسد ، لمّا سمع خُوار الثور ، ولم يكن رأى ثوراً قطّ ، ولا سَمع خُواره ، رُعِب منه ، وكَرِه أن يَفطَن لذلك جُندُه ، فلم يبرَح من مكانه .

وكان فيما معه ابنا آوى ، يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة[١٣] . وكانا ذوَىْ دَهاء وأدب . وكان دمنة أشرَهَهما نفساً ، وأبعدَهما همّة ، وأقلَّهما رضاً بحاله . ولم يكن الأسد عرفهما . فقال دمنة لكليلة : ما ترى يا أخى ؟ ما شأنُ الملِك مقيماً فى مكانه لا يتحوّل ولا ينشَط كما كان يفعل ؟ فقال كليلة : ما شأنُك والمسألةَ عما ليس لك ولا يعنيك ؟ أما نحن فحالُنا حالُ صِدق ، ونحن على باب الملك واجدون ما نأكل . ولسنا من أهل المرتبة التى يتناول أهلُها كلامَ الملوك وما يكونُ من أمورهم ؛ فاسكُتْ عن هذا ، واعلَمْ أنه مَن تَكلَّف من القول والعمل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القِرد . قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا أنّ قرداً رأى نجّاراً يشقّ خشبة على وَتَدَيْنِ راكباً عليها كالأسوار على القَرَس ، وكلّما شقّ منها ذراعاً أدخل فيه وَتداً ، وأنّ النجّار قام لبعضِ شأنه . فانطلق القرد يتكلّف من ذلك ما ليس من صناعته ،

فرَكِبَ الخشبة ، ووجهُه قِبَل ذلك الوتَد ، وتدلَّت خُصيتاه فى الشق ؛ فلما نَزَع الوتدَ انضمّت الخشبة على خُصيتيه ، فخرّ مَغشِيًّا عليه . وجاء النجّار فكان ما لَقِى منه من الضرب أشدَّ مما مرّ به أضعافاً كثيرة .

قال دمنة : قد فهمتُ ما ذكرتَ ، وسمعتُ المثل الذى ضربتَ ، ولكن اعلَمْ أنه ليس كلُّ مَن يدنو من الملوك إنما يدنو منهم لبطنه ؛ فإنّ البطن يُحشى بكل مكان ؛ ولكنه يلتمس ، بالقرب منهم ، أن يَسُرَّ الصديق ، ويسوء العدوّ . فأدنأُ الناس وأضعفُهم مُروءةً الذين يرضَون بالقليل ، ويفرحون به ؛ كالكلب الجائع الذى يُصيب عَظماً يابساً فيفرحُ به . فأما أهلُ المروءة والفضل فلا يُغنيهم القليلُ ، ولا يفرحون به دون أن يَسمُوا إلى ما هُم له أهل ؛ كالأسد الذى يفترس الأرنب ، فإذا رأى العَير تركها وأخذه . أوَلا ترى أنّ الكلب يُبَصبِص بذنَبِه حتى تُلقَى إليه الكِسرة ، وأنّ الفيل المغتلم يَعرِف فضلَ نفسه ؛ فإذا قُدِّم إليه عَلَفه مكرّمًا لم يأكله حتى يُمسَح رأسُه ويُتَملَّق ؟ فمن عاش ما عاش غير خامل المنزلة ، ذا فضلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو - وإن قلّ عُمُره - طويلُ العُمُر . ومن كان عيشه فى وحدة وضِيق وقِلّة خَير على نفسه وأصحابه ، فهو - وإن طال عُمُره - قصيرُ العُمُر ! فإنه يقال : إنّ البائس من طال عمره فى ضُرّ . وقيل : لِيُعَدّ من البقر والغَنَم من لم تكن هِمّته إلّا بطنَه وفرجَه .

قال كليلة : قد فهمتُ ما ذكرتَ . فراجِعْ عقلك ، واعلم أنّ لكل إنسان منزلةً وقدراً ؛ فإذا كان فى منزلته التى هو فيها مكتفياً متماسكَ الحال فى أهل طَبقته ، كان حقيقاً أن يَقنع ويَرضَى . وليس لنا من المنزلة ما نَسخَط له حالنا التى نحن عليها .

قال دمنة : إنّ المنازل متنازَعة مشتركة ، فذو المُروءة ترفعه مُروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة ، والذى لا مُروءةَ له يَحُطّ نفسَه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة ، والارتفاعُ من ضَعة المنزلة إلى شَرفها شديدُ المُؤْنة ، والانحطاطُ منها إلى الضَّعة هيّن يسير . وإنما مثلُ ذلك كالحجر الثقيل الذى رَفعُه من الأرض إلى العاتِق شاقّ ، وطرْحُه من العاتق إلى الأرض يسير . فنحن أحقُّ أن نروم ما فوقنا من المنازل بمُروءاتنا ، ولا نقيم على حالنا هذه ، ونحن نستطيع ذلك . قال كليلة : فما هذا الذى تُجمِع عليه ؟ قال دمنة : أريدُ أن أتعرّض للأسد عند هذه الفرصة ؛ فإنه ضعيفُ الرأى ، وقد التبس عليه وعلى جُنده أمرُهم . فلعلّى أدنو منه وأصيبُ حاجتى عنده .

فقال كليلة : وما يدريك أنّ ذلك على ما وصفتَ ؟ قال دمنة : أعرِف ذلك بالرأى والفطنة والظن والحدس ؛ فإنّ الرجُل ذا الرأى ربما عرف حال صاحبه ، وغامِضَ أمرِه بما يظهر له من أمره وضنيه ، حتى لعل ذلك أن يكون

من قِبَل ذلّه وشكله. قال كليلة: كيف ترجو المكانةَ عند الأسد ولستَ صاحبَ سلطان، وليس لك علمٌ بخدمتهم[١٤] وآدابهم، وما يوافقهم ويخالفهم؟ قال دمنة: إنّ الرجل القويّ الشديد لا يعيا بالحمل الثقيل وإن بُدِه به؛ بل يستقلّ به وتكون له القوّة عليه؛ فلا يُعيِّف الشديدَ حملٌ، ولا القُلَّبَ عملٌ، ولا العاقلَ أرضٌ، ولا المتواضعَ الليّنَ الجانب أحدٌ. قال كليلة: إنّ السلطان لا يتوخّى بكرامته أفضلَ مَن بحضرته، ولكنه يُؤثِر بذلك مَن قرُب منه. ويقال إنّ مَثَل السلطان فى ذلك كالكَرْم الذى لا يتعلّق بأكرم الشجَر ولكن بأدناها منه. وكذلك السلطان. فكيف ترجو المنزلةَ عند الأسد ولستَ ممن يغشاه ولا تدنو منه؟ قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ وصدقتَ. ولكن اعلمْ أنّ الذين لهم المنازلُ الحسَنةُ عند السلطان قد كانوا وليست تلك حالَهم. فتقرّبوا منه بَعد البُعد عنه، ودنَوا إليه. فأنا ملتمسٌ مثلَ ذلك، وطالبٌ بلوغَه. وقد قيل: لا يواظب أحدٌ على باب السلطان ويطرح الأنَفة، ويحمِل الأذى، ويُظهر البِشْر، ويكظِم الغيظ، ويَرفُق فى أمره إلّا خَلَص إلى حاجته منه. قال كليلة: فهَبْك قد وصلتَ إلى الأسد! فما رِفقُك[١٥] الذى ترجو أن تَنالَ به المنزلةَ عنده؟ قال دمنة: لو قد دنوت من الأسد وعرفتُ أخلاقه، رفقتُ فى متابعته وقلة الخلاف عليه، ثم انحططتُ

فى هواه ؛ فإذا أراد أمراً هو فى نفسه صوابٌ، زَيَّنْتُه له وشجّعتُه عليه ، حتى يعملَ به ويُنفِذَ رأيَه فيه . وإذا همّ بأمر أخاف ضرّه إياه ، بصّرتُه ما فيه من الضرَر والشين ، بأرفق ما أجد إليه السبيل وألينه ؛ فإنى أرجو أن يَرى منّى فى ذلك أفضلَ مما يَرى من غيرى . فإنّ الرجل الأديب الأريب الدّهِىّ لو شاء أن يُبطِل الحقّ ويُحِقّ الباطل أحياناً لفعل ، كالمصوّر الماهر الذى يصوّر فى الحائط تماثيل كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست كذلك . فإذا هو عَرف نُبْلى وكمالَ ما عندى ، كان هو الذى يلتمس إكرامى وتقريبى .

قال كليلة : أما إذا كان هذا من رأيك فإنى أُحذِّرك صحبةَ السلطان ؛ فإنّ فى صحبة السلطان خطراً عظيماً . وقد قالت العلماء : أمورٌ ثلاثة لا يجترئ عليها إلّا الأهوجُ ، ولا يسلمُ منها إلّا القليلُ : صحبةُ السلطان ، وائتمانُ النساء على الأسرار ، وشُربُ السمّ للتجربة . وإنما شبّه العلماء السلطانَ بالجبَل الوعْر الذى فيه الثمار الطيّبة ، وهو معدِن السباع المخوفة ؛ فالارتقاء إليه شديد ، والمُقامُ فيه أشدُّ وأهوَل .

قال دمنة : قد صدقتَ فيما ذكرتَ ، وفهمتُه ؛ ولكنى أعرف أنه مَن لم يَركب الأهوال لم ينَل الرغائب . ومَن ترك الأمر الذى لعله أن يَبلُغ منه حاجته ، مخافة لِما لعله يتوقاه ويُشفِق منه ، فليس يبالغ جسيماً . وقد قيل فى أمور

لا يستطيعها أحدٌ إلّا بمعونةٍ من ارتفاعِ همّة وعِظَم خَطَر، منها عَمَلُ السلطان، وتجارةُ البحر، ومناجزةُ العدو. وقيل أيضاً: لا ينبغى للرجل ذى المروءة أن يُرى إلّا فى مكانين، ولا يليق به غيرُهما: إما مع الملوك مُكرَّماً، وإما مع النُّسّاك متبتلًا؛ كالفيل الذى إنما بَهاؤه وجَماله فى مكانين: إما فى البرّية وَحشيًّا، وإما مَرْكبًا للملوك.

قال كليلة: خار الله لك فيما عزمت عليه.

ثم إنّ دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلّم عليه. فقال الأسد لقرابينه[١٦]: مَن هذا؟ قالوا: ابن فلان. قال الأسد: قد كنت أعرف أباه. ثم قال له: أين كنت تكون؟

قال دمنة: لم أزل بباب الملك مرابطاً رجاء أن يحضُر أمرٌ أُعِينُ الملكَ فيه برأيى ونفسى؛ فإنّ باب الملك يكثُر فيه الأمور التى ربما احتيج فيها إلى من لا نباهة له؛ وربما كان صغير المنزلة فيكون عنده منفعة بقدره؛ فإنّ العُود المطروح فى الأرض ربما انتفع به الإنسان فى حَكّ أُذُنه. فالحيوان العالِم بالضرَر والنفع حَرِىٌّ بأن يكون ذلك عندَه، وينتفع به.

فلما سمع الأسد كلامَ دمنة أعجبه واستظرفه، ورجا أن يكون عنده نصيحةٌ ورَأْيٌ. فأقبل على قرابينه فقال لهم: إنّ الرجل ذا النُبل والفَضل ليكون

خاملَ الذِّكر ، غامضَ الأمر ، فتأبى مُروءته إلّا أن يظهر ويستبين ، كالشُّعلة من النار التي يصونها[١٧] صاحبُها وتأبى إلّا ضياء وارتفاعاً . فلما عرف دمنة أنّ الأسد قد أعجبه كلامُه قال : إنّ رعيّـــة الملك ومن بحضرته منهم يجب[١٨] أن يُعرّفوه ما عندهم من المروءة والعلم ، ويبذلوا له نصيحتَهم . فإنّ الملك لا يعرفهم ولا يضعهم فى منازلهم التى هم أهلُها ومستحقّون لها إلّا بذلك ؛ كالزرع المدفون فى الأرض من الحنطة والشعير وسائر الأنواع ، فلا يستطيع أحد أن يعرفه ولا يصفه حتى يكون هو الذى يَنجُم ويَظهر ويَخرج على الأرض . وقد يحِقُّ على من خصّه السلطانُ أن يُطلِعه على ما عنده من المنفعة والأدب . ويحقّ على السلطان أن يَبلُغ بكل امرئ مرتبته على قدر رأيه وما يجدُ من المنفعة عنده . فإنه كان يقال : أمران لا ينبغى لأحد ، وإن كان ملكاً ، أن يجعل شيئاً منهما فى غير مكانه ، وأن يُنزله غيرَ منزلته : الرجال والحلية ؛ فإنه يُعدّ جاهلًا من عقد على رأسه حلية الرجلين ، وعلى رجليه حلية الرأس . ومن ضبّب اللؤلؤ والياقوت بالرّصاص ، فليس ذلك بتصغير للياقوت واللؤلؤ ؛ ولكنه جهل ممن فعل ذلك . وكذلك كان يقال : لا تصاحبَنّ رجلًا لا يعرف موضعَ يمينه وشماله . وإنما يَستخرج ما عند الرجال وُلاتُهم ، وما عند الجنود قادتُهم ، وما فى الدين علماؤه . وقد قيل فى أشياء ثلاثةٍ ، فضلُ ما بينها متفاوِت :

فضلُ المقاتِلِ على المقاتِل ، وفضلُ العالِم على العالِم ، وفضل الفيل على الفيل[١٩] .

وكثرةُ الأعوان ، إذا لم يكونوا نصحاء مجرَّبين ، مَضَرّة على العمل ؛ فإنّ العمل ليس بذلك رجاؤه ، بل بصالح الأعوان وذوى الفضل ؛ كالرجُل الذى يحمل الحجر الثقيل فيُثقِله ، ولا يجد له ثمناً ؛ والرجل الذى يحمل الياقوت فلا يَثقُل عليه ، وهو قادر على بيعه بالكثير من المال . والعملُ الذى يحتاج فيه إلى الجِذْع لا يُجزئه القَصَبُ وإن كثر . والوالى حقيقٌ ألّا يحتقر مُروءةً وجَدَها عند أحد وإن كان صغير المنزلة ؛ فإنّ الصغير ربما عظُم ؛ كالعَصَب الذى يؤخَذ من الميتة ، فإذا عُمِلت منه القوس أُكرِم فيَقبِضُ عليه المَلِك ، ويحتاجُ إليه فى لهوه وبأسه .

وأحبّ دمنة أن يصيب الكرامة من الأسد ، والمنزلة عنده وعند جنده ، ويعلمهم أنّ ذلك ليس لمعرفة أبيه فقط ولكن لرأى دمنة ومروءته ، فقال : إنّ السلطان لا يُقرّب الرجال لقرب آبائهم ولا يباعدهم لبعدهم ؛ ولكنه ينظر إلى ما عندهم وما يحتاج فيه إليهم ، ثم يُمضِى رأيَه على ما يحقّ عليه فيهم ، من إنزالهم مَنازِلَهم ؛ فإنه لا شئَ أقربُ ولا أخصُّ بالرجُل من جَسَده ؛ وربما دَوِىَ عليه حتى يؤذيَه ، فلا يدفعُ ما به عنه إلّا الدواء الذى يأتيه من بعيد . والجُرَذ مُجاوِرُ الإنسان فى البيت ؛ فمن أجل إضراره نُفِي . والبازى

وحشىّ غريب ؛ فلما صار نافعاً اقتُنِى واتُّخِذ وأُكرِم .

فلما فرغ دمنة من مقالته ، ازداد الأسد به إعجاباً ، وله استظرافاً ، وأحسن عليه الرد ، وقال لجلسائه : إنه ينبغى للسلطان ألّا يَلِجّ فى تضييع حقِّ ذى الفضل والمروءة ولا وضعِ منزلته ، وأن يَستدرك ما فاته من ذلك ولا يغرَّه أن يَرى مِن صاحبِه المفعولِ به ذلك رضاً ؛ فإنّ الناس فى ذلك رجلان : أحدُهما طِباعه الشَّراسة ؛ فهو كالحيّة التى إن وطئها الواطئُ فلم تلدغه ، لم يكن جديراً أن يعود لوطئها ثانية . وآخر طِباعه السُّهولة واللِّين ؛ فهو كالصَّندل الذى إذا أُفرِط فى حكّه صار حارًّا مؤذياً .

فلما استأنس دمنةُ بالأسد وخلا به ، قال : إنى قد رأيتُ الملك أقام منذ زمان بمكان واحد لا يبرح منه ؛ ففيم ذلك ؟ قال له الأسد ، وكَرِه أن يَعلم منه دمنةُ جُبناً : لم يكن ذلك لبأس .

فبينما هما على ذلك إذ خار الثور خُواراً شديداً ، فهيَّج الأسدَ على أن يُخبِر دمنة بما فى نفسه ، فقال : هذا الصوت الذى تسمعُ ، ما أدرِى ما هو . غير أنه خليق أن تكون الجُثة على قدر الصوت ؛ فإن يكن ذلك كذلك فليس مكانُنا هذا لنا بمكان . قال دمنة : هل رابَ الملكَ شئٌ غيرُ هذا ؟ قال الأسد : لم يكن غير هذا . قال دمنة : ليس الملكُ بحقيقٍ أن يبلغ منه هذا الصوت

أن يدع مكانه ؛ فإنّ السُّكرَ الضعيف آفتُه الماء ، والشرفَ آفتُه الصَّلَف ، والمودّةَ آفتُها النميمة ، والقلبَ الضعيف آفتُه الصوت والجَلَبة . وفى بعض الأمثال بيانُ أنه ليس كلُّ الأصوات تُهاب . قال الأسد : وما ذلك المثَل ؟ قال دمنة :

زعموا أنّ ثعلباً جائعاً مرَّ بأجَمة فيها طبل معلّق فى شجرة ؛ فهبّت الريح ، فجعلت قُضبـانُ الشجرة تقرعُ ذلك الطبـلَ فيصوِّت صوتاً شديداً ؛ فسمع الثعلبُ ذلك الصوتَ فتوجّه إليه حتى أتاه . فلما رآه ضخماً ظنّ أنّ ذلك لكثرة شحمه ولحمه ، فعالَجه حتى شقّه . فلما رآه أجوفَ قال : ما أدرى ؛ لعل أفسل الأشياء أعظمُها جُثّة ، وأشدُّها صوتاً .

وإنما ضربتُ لك هذا المثل رجاء أن يكون الذى يَذعَرنا من هذا الصوت ويروعنا لو قد انتهينا إليه ، وجدناه أيسَر أمراً مما فى أنفسنا . فإن شاء الملك فليَبعثْنى نحوه ، وليُقِم مكانه حتى أرجعَ إليه ببيان ما يُحِبّ أن يَعلم منه . فوافق ذلكَ الأسدَ . وانطلق دمنة إلى المكان الذى فيه شَنزَبة .

فلما فَصل دمنة من عند الأسد ، فكّر الأسد فى أمره ، فندِم على إرساله ، وقال فى نفسه : ما أصبتُ باتّمانى دمنةَ على ما ائتمنتُه ، ووجّهتُه فيه ؛ فإنّ الرجل الذى بحضرة السلطان إذا كان قد أُطيلت جَفْوته عن غير جُرم كان منه ، أو كان مَبغيًّا عليه ، أو كان معروفاً بالحِرص والشرَه ، أو كان قد أصابه ضُرٌّ

أو ضِيقٌ فلم يُنعَش ، أو كان قد أجرم جُرماً فهو يخافُ العقوبة ، أو كان شِرِّيرًا لا يُحب الخير ، أو كان قد وُقِف على خيانته ، أو كان قد حيل بينه وبين ما كان فى يده من سلطان ، أو كان يلى عملًا فعُزِل عنه أو فُرِّق عليه أو انتُقِص منه أو أُشرِك بينه وبين غيره فيه ، أو كان أذنب فى نظرائه فعُفِى عنهم وعوقب ، أو عوقبوا جميعاً فبُلِغ منه ما لم يُبلَغ من أحد منهم مثله ، أو كان قد أبلَى بلاء نُظرائه ففُضِّلوا عليه فى المنزلة والجاه ، أو كان غيرَ موثوق به فى الهوى والدين ، أو كان يرجو فى شئ مما يضر بالولاة نفعاً ، أو يخافُ فى شئ مما ينفعهم ضرًّا ، أو كان لعدوّ السلطان مُوادًّا . كلُّ هؤلاء ليس السلطان حقيقاً بالاسترسال إليهم ، والطُّمأنينة إلى ما قِبلَهم ، والائتمان لهم . وإنّ دمنة داهٍ أريب . وقد كان ببابى مطروحًا مجفُوًّا ؛ فلعله قد احتمل علىّ بذلك ضِغناً . ولعل ذلك يدعوه إلى أن يخوننى ويبغى علىّ . ولعله يصادِف صاحبَ الصوت أقوى منّى وأعظمَ سلطاناً فيرغبَ فيما عنده ، ويميلَ علىّ معه فيدلّه على عورتى . فلم يزَل الأسد يُحدّث نفسَه بذلك ويراجعها فيه حتى استخفّه ذلك وقام من مجلسه . فجعل يمشى وينظر إلى الطريق حتى رُفِع له دمنة من بعيد مُقبِلًا وحده . فاطمأنّ ورجع إلى مكانه ، كراهةَ أن يَظُن دمنةُ أنّ شيئاً أقلقه وأزعجه من مكانه .

فلما دخل عليه دمنة ، قال له الأسد : ما صنعتَ وما رأيت ؟ قال دمنة : رأيتُ ثوراً ، وهو صاحب الصوت الذى سمعتَ . قال الأسد : فما حاله وشدته ؟ قال : لا شدة له ؛ قد دنوتُ منه وحاورتُه محاورةَ الأكفاء ؛ فلم يستطع لى شيئاً . فقال الأسد : لا يغرّنّك ذلك منه ، ولا تضعَنّ ذلك على الضعف . فإنّ الريح الشديدة لا تضُرّ بصغير الحشيش ، ولا تحطِمه ، وهى تحطِم الشجر . وكذلك الصناديد إنما يصيد بعضها لبعض . قال دمنة : لا يهابَنّ الملكُ أمرَه ولا يُكبِرَنّ فى صدره شيئاً منه ؛ وأنا آتيه به حتى يكونَ له عبداً سامعاً مطيعاً . ففرح الأسد بذلك ، وقال له : دونك .

ثم إنّ دمنة انطلق إلى شنزبة فقال له غير هائب ولا مُتعتِع : إنّ الأسد أرسلنى إليك لآتيه بك . وأمرنى ، إن أنت عجّلتَ الإقبال عليه طائعاً ، أن أؤمّنك على نفسكَ وما سلَف منك من الذنب فى التأخير عنه والترك للقائه ، وإن تأخّرتَ ، أن أعجّل الرّجعة إليه فأخبره بذلك . قال شنزبة : ومَن هذا الأسد الذى أرسلك إلىّ ، وأين هو ؟ قال دمنة : هو مَلِك السّباع . ومعه جُنْد كثيرٌ منهم . فرُعِب الثور من ذلك ، وقال : إن أنت جعلت لى على نفسك عهداً ، أو أخذتَ لى منه الأمان ، أقبلتُ معك . فأعطاه دمنة ما سأل من ذلك .

ثم أقبلا جميعاً حتى دخلا على الأسد. فأحسنَ الأسدُ مسئلة شنزبة، وألطفه، وقال له: متى قدمتَ هذه الأرض؟ وما نزع بك إليها؟ فقصّ عليه أمرَه. فقال له الأسد: الزَمْنى؛ فإنى مُكرمك ومحسِنٌ إليك. فدعا له شنزبة وأثنى عليه.

ثم إنّ الأسد قرّب شنزبة وأدناه وكرّمه وآنَس منه رأيا وعقلًا. فائتمنه على أسراره، وشاوره فى أموره. ولم تزده الأيام إلّا إعجاباً به، ورغبةً فيه، وتقريباً له، حتى صار أخصَّ أصحابِه عنده منزلة. فلما رأى دمنة أنّ الملك قد استخصّ شنزبة واستدناه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحِبُ رأيِه وخلَواتِه وأُنسِه ولهوِه، اشتدّ ذلك عليه. فشكا ذلك إلى كليلة أخيه وقال: ألا تَعجَب لعجز رأيى وصنيعى بنفسى، ونظرى فيما ينفع الأسد، وإغفالى أمرَ نفسى، حتى جلبتُ ثوراً غلبنى على منزلتى؟ قال كليلة: أصابك ما أصاب الناسكَ؟ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة:

زعموا أنّ ناسكاً أصاب من بعض الملوك كُسوة فاخِرة. فبصُر بها لِصٌّ فرغِب فيها، فصرّف الحِيَل وقلّب الأمور لاستراقه إياها. فأتاه فقال: إنى أريد أن أصحبَك وأتعلّمَ منك وآخذَ عنك. فأجابه إلى ذلك. فلزمه ولطَف به، وأحسنَ الخدمةَ له حتى أمِنه، ووثِق به، وفوّض إليه أمره.

حتى إذا ظفِر من الناسك بغفلةٍ أخذ الثياب وذهب بها . فخرج فى طلبه نحو مدينة من المدائن . فمرّ فى طريقه على وَعِلَين يتناطحان . وقد سالت دماؤهما ، وجاء ثعلب فجعل يَلَغُ فى الدماء . فبينما هو يَلَغ إذ التقيا عليه وهو غافل فقتلاه . ثم مضى حتى أتى المدينة مُمسياً فنزل على امرأة فاجرة من غير معرفة . وكان لها جارية تُؤاجِرها قد عشِقت رجلاً فهى لا تريد غيره . فأضرّ ذلك بمولاتها ، فاحتالت لقتل ذلك الرجل الذى عشقته جاريتها ، فى تلك الليلة التى أضافت بها الناسك . فسقَتِ الرجلَ من الخمر صِرفاً حتى سكِر ونام . فعمَدت إلى سمٍّ فوضعته فى قَصَبة . وجاءت بها إلى دُبُره لتنفخه فيه ، وفمُها على رأس القصبة . فلما وضعتها بدَرتها ريح خرجت من دُبُر الرجل ، فرجع السمّ فى حَلقها فوقعت ميْتة . وكل ذلك بعين الناسك .

ثم أصبح غادياً فى طلب منزل غير ذلك المنزل . فأضافه رجل إسكاف . فقال الإسكاف لامرأته : انظرى هذا الناسك فأكرميه وأحسنِي إليه ؛ فإنه قد دعانى بعضُ أصحابى إلى منادمتهم .

وكان لامرأة الإسكاف صديق قد عَلِقها وعَلِقته . وكان الرسول فيما بينهما امرأةُ حَجّام ، جارةٌ لها . فأرسلت امرأة الإسكاف إلى امرأة الحجّام . فأمرَتها أن تأتىَ صديقها ، وتخبِرَه أنّ الإسكاف غائب فى الشُرب ، وأنه لا يرجع إلّا

مُمسِياً وهو سكران ، فتأمرَه أن يأتىَ عند العِشاء فيقعدَ على الباب حتى تأذن له فيدخلَ عليها . فأقبل صديقها عَشِيًّا حتى قعد على الباب ينتظر أمر المرأة .

وانصرف الإسكاف إلى بيته حين أمسى وهو سكران . فلما رأى الرجلَ قاعداً على باب منزله ارتاب به وغضب . ودخل إلى البيت فأخذ امرأته فأوجَعها ضرباً وأوثقها إلى سارية من سوارى البيت . فلما هدأتِ العيون جاءت امرأةُ الحجّام إليها فقالت لها : قد أطال الرجلُ صديقُك القعود . فماذا تريدين ؟ فقالت : لو أحسنتِ إلىّ بأن تُخلِّيني وترِبطى نفسَك مكانى ساعة ، حتى آتيه ثم أسرِع الكَرَّة إليك . ففعلتْ وحلَّتْها وربطت نفسها مكانها . فانتبه الإسكاف قبل أن ترجع امرأته . فناداها باسمها فلم تجبه امرأة الحجّام مخافةَ أن يَعرِف صوتها . ثم دعاها مراراً كثيرة وهى لا تجيبه ، فازداد عليها غَيظاً وحَنَقاً . ثم قام إليها بسِكّين فجدَع أنفها ، وقال لها : تناوَلى هذا وأتحِفى به خليلك .

فلما رجعت امرأة الإسكاف ورأت زوجها نائماً ، وعرفت ما حلّ بامرأة الحجّام ، حلّتها وربطت نفسها مكانها ؛ وأخذت امرأةُ الحجام أنفها بيدها ومضت إلى بيتها . وكلُّ هذا بعين الناسك .

ثم إنّ امرأة الإسكاف فكَّرت فى أمرها ، وطلبت المَخرَج . فرفعت صوتها

تدعو وتتضرّع وتبكى وتقول : اللهمّ إن كان زوجى قد ظلمنى واعتدى علىّ فأعِد إلىّ أنفى صحيحاً كما كان . ثم نادت الإسكاف أن قُم أيها الظالم ! وانظر إلى أمر ربّك وقضائه ونعمته علىّ ! فإنه قد أعاد أنفى صحيحاً كما كان . فقال الإسكاف : ما هذا الكلام يا ساحرة ؟ ثم قام فأوقد ناراً ونظر ، فإذا الأمر كما قالت . فتاب إلى ربّه واعتذر إلى امرأته وترضّاها وتنصّل إليها وسأل الله المغفرة .

ولما انتهت امرأةُ الحجّام إلى بيتها قلّبت الحِيَل ظهرًا لِبطن والتمست المخرج مما وقعت فيه . وقالت : ما عُذرى عند زوجى وعند الناس فى جَدع أنفى ؟ فلما كان عند السَّحَر استيقظ الحجّام وناداها أن ائتينى بمتاعى كلّه ؛ فإنى أريد أن أنطلق إلى بعض الأشراف . فلم تأته إلّا بالموسى وحده . فقال : هاتى متاعى كلّه . فلم تَزِده على الموسى . فغضب ورماها بالموسى . فألقت نفسها إلى الأرض ووَلوَلت ، وقالت : أنفى أنفى . وأقبلت تصيح وتضطرب . فجاء أقاربها فأخذوه وانطلقوا به إلى القاضى . فقال القاضى للحجّام : ما حَمَلك على جَدع أنف امرأتك ؟ فلم تكن له حُجّةٌ يحتجّ بها . فأمر بالحجّام أن يعاقَب . فلما أقيم لذلك ، قام الناسك فتقدم إلى القاضى فقال : أيها القاضى ! لا يَشتبِهنّ عليك ! إنّ اللص ليس سرقنى ، وإنّ الثعلب ليس الوعلانِ قتلاه ، وإنّ البَغىّ ليس السمّ قتلها ، وإنّ امرأة الحجّام ليس زوجُها جَدَع أنفها . بل

نحن فعلنا ذلك بأنفسنا . فسأله القاضى عن تفسير ذلك فأخبره .

قال كليلة لدمنة : وأنت أيضاً فعلتَ ذلك بنفسك . قال دمنة : نعَم ! ما ضرّنى غيرُ نفسى ، ولكن ما الحيلة ؟ قال كليلة : بل أخبِرنى أنت عن رأيك . قال دمنة : أما أنا فلستُ ألتمس أن تزداد منزلتى فوق ما كنت ؛ ولكنى أريد أن تعود إلى ما كانت عليه ؛ فإنّ خِلالًا ثلاثًا المرءُ حقيقٌ بالتفكّر فيها والاحتيالِ لها : ما يمضى من الضُّر والنَّفع ؛ بأن يحترس من الضُّر الذى أصابه لئلّا يعود إليه ، ويرفق فى المحبوب طلبَ مراجعته . وما هو مقيم فيه من ذلك ؛ فيستوثق مما يوافقه ، ويهرُب مما يخالفه . وما هو منتظِر له ؛ فيطلب المرجُوّ ويلتجئ من المحذور بالاستعداد لما يرجو أو يخاف .

وإنى لمّا نظرتُ فى أمرى الذى أرجو أن يعود لى منه ما غُلِبت عليه مما كنتُ فيه ، لم أجِد شيئاً غير الاحتيال لشنزبة حتى يفارق الحياة . فإنى إن قدَرتُ على ذلك صرتُ إلى حالى عند الأسد . ولعل ذلك أن يكون خيراً له ، فإنّ إفراطه فيه[21] خليق أن يَشينَه .

قال كليلة : ما أرى على الأسد فى شنزبة مضرّة ولا منقصة ولا شيناً .

قال دمنة : إنّ السلطان إنما يؤتَى من قِبَل سِتّ خلال : الحِرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخُرق . فأما الحرمان فهو أن يَفقِد الأعوان

والنصحاء والساسة من أهل الرأى والنجدة والأمانة ، أو يُبعد بعض من هو كذلك . وأما الفتنة فهى تحزّب الناس ووقوع التحارب بينهم . وأما الهوى فهو الإغرام بالنساء أو الحديث والشُرب والصّيد وما أشبه ذلك . وأما الفظاظة فالإفراط فى الشّدة حتى يُبتَلَى اللسان بالشتم ، واليدُ بالبطش والضرب . وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من القحط والموت ونقص الثمرات وأشباه ذلك . وأما الخُرق فإعمال الشّدة فى موضع اللين ، والرفق فى مكان الغلظة .

وإنّ الأسد قد أُغرِم بشتزبة إغراماً شديداً . فهو خليقٌ أن يُزرِىَ به ويَشينَه . قال كليلة : وكيف تُطيق الثور وهو أشـدُّ منك ، وأكرَمُ على الأسد ، وأحسنُ منزلة ، وأكثرُ أصدقاء وأعوانا ؟ قال دمنة : لا تنظرنّ إلى صِغَرى وضعفى ؛ فإنّ الأمور ليست بالقوّة والعِظَم . ورُبَّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه ما يعجِز عنه كثير من الأقوياء . أوَ لم يَبلغك أن غُراباً احتال لأسْوَد حتى قتله . قال كليلة : وكيف كان هذا الحديث ؟ قال دمنة :

زعموا أنه كان وَكْر لغراب فى شجرة فى جبل . وكان بقربه جُحر أسوَد . وكان الغراب كلما فرّخ عَمَد الأسوَد إلى فراخه فأكلها . فاشتدّ ذلك عليه ، وبلَغ منه مَبلغاً شديداً . فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى ، وقال : أردتُ أن استأمِرك فى شئ هممتُ به إن أنت وافقتنى عليه . قال : وما هو ؟

قال : أن آتى الأسودَ وهو نائم ، فأنقُرَ عينيه لعلّى أفقأهما . فقال ابن آوى : بئست الحيلة هممتَ بها ! فالتمِسْ أمراً تصيبُ منه حاجتك ، ولا يصلُ فيه مكروهٌ إليك . وإياك أن يكون مَثَلُك مَثَلَ العُلجوم الذى أراد قتل السرطان فقَتَل نفسه . قال الغراب : وكيف كان ذلك ؟ قال ابن آوى :

كان عُلجوم مُعَشِّشاً فى أجمة مُخصِبة كثيرةِ السمك . فعاش هنالك ما عاش ، ثم هرِم فلم يستطع الصيد ، فأصابه جوع وجَهد ، فالتمس الحِيَل وقعد مفكّرًا حزينًا ، فرآه سَرَطان من بعيد . فلما رأى حاله عرف ما به ، فأتاه فقال له : مالى أراك كئيباً حزيناً ؟ قال العُلجوم : وكيف لا أكتئب وأحزن ، وإنما كان معاشى من السمك ههنا . وهنّ كثير . وإنى رأيت اليوم صيّادَين أتيا مكاننا هذا فقال أحدهما لصاحبه : إنّ ههنا سمكاً كثيراً أفلا نصيده ؟ فقال صاحبه : إنى عرفت أمامنا مكاناً فيه سمك أكثر منه . فأنا أحِبّ أن نبدأ به ثم نرجعَ إلى ما ههنا ، فنفنيَه . وقد علمتُ أنهما لو فرغا من هناك رجعا إلينا فلم يدَعا فى هذه الأجمة سمكةً إلّا صاداها ، فإذا كان ذلك فإنّ فيه هلاكى وموتى . فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهنّ بذلك . فأقبلن إلى العُلجوم وقُلن : أتيناك لتُشير علينا ؛ فإنّ ذا العقل لا يدع مشاورة عدوّه ، إذا كان ذا رأى فى الأمر الذى يشركه فيه .

وأنت ذو رأيٍ ، ولك فى بقائنا صلاحٌ ، فأشِر علينا برأيك . قال العُلجوم : أما مُكابرة الصيادَين وقتالُهما فليسَا عندنا ولا نطيقهما ، ولا أعلمُ حيلة إلا أنى قد عرفت مكاناً كثيرَ الماء والخُضر ، فإن شئتُنّ فانتقِلن إليه . فقلن له : ومن يَمُنّ علينا بذلك ؟ فقال : أنا . وجعَل يَحمِل منهنّ اثنتين فى كل يوم ، ينطلق بهما إلى بعض التِّلال فيأْكلُهما .

ثم إنّ السرَطان قال له : إنى قد أشفقتُ مما حذّرتنا ؛ فلو ذهبتَ بى . فاحتَمله حتى دنا من المكان الذى كان يأكلهُنّ فيه . فلما بَصُر بعظامهنّ مجموعة تلوح ، عرف أنه هو صاحِبُهُنّ وأنه يريد به مثلَهنّ . فقال : إذا لقى المرء عَدوّه فى المواطن التى يعلم أنه هالِكٌ فيها ، فهو حقيقٌ أن يقاتِل كَرَماً وحِفاظاً . فأهوى بكَلاليبه على عُنُق العُلجوم فعَصَره ، فوقع إلى الأرض ميتاً . ورجع السرَطان إلى السمك فأخبرهنّ .

وإنما ضربتُ لك هذا المَثَل لتعلم أنّ بعض الحِيَل مُدمِّر على صاحبه ، مُهلِك له . ولكن انطلِق فالتمِس حَلْياً ، فإذا ظفِرتَ به فاخطفْه ، ثم طِر به — وأصحابُه ينظرون إليك حيث لا تفوتُهم فإنهم سيطلبونك — حتى تنتهىَ به إلى جُحر الأسوَد فترمىَ به عليه .

فحلّق الغُراب طائراً ، فإذا بجارية قد ألقت ثيابها وحُلِيّها ، وهى تغتسل .

فأهوى فأخذ عِقداً نفيساً ، وحلّق به طائراً حيث يراه الناس حتى رماه قريباً من جُحر الأسوَد . فأتى النـاسُ وأخذوا الحَلْى ، ورأوا الأسوَد نائماً على باب جُحره فقتلوه .

وإنما ضربتُ لك هذا المَثَل لتعلم أنّ الاحتيال ربما أجزَى ما لا تُجزِى القوّة .

قال كليلة : إن شنزبة لو لم يجمع مع شِدّته رأياً ، كان كذلك ؛ ولكنه قد أُعطِىَ ، مع ما ذكرتَ ، فضلًا نبيلًا وقِسماً جسيماً . قال دمنة : إنّ شنزبة لعَلَى ما وصفتَ ؛ ولكنه بى مغترّ ، فأنا خليقٌ أن أصرَعه كما صرعَت الأرنبُ الأسدَ . قال كليلة : وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة :

زعموا أن أسداً كان فى أرض مُخصِبة كثيرة الوحوش والماء والمرعَى . وكان لا ينفعُهنّ ما هنّ فيـه من خوفِهنّ منَ الأسد . فأتمرن فيما بينهنّ ، وأتَيْنه فقلن له : إنّك لا تُصيبُ منا الدابّة إلّا بعد تعب ونَصَب ، وقد اجتمعنا على أمرٍ لنا ولك فيه راحة ، إن أنت أمّنتنا فلم تُخِفنا . فقال : أنا فاعل . فقلن : نُرسِل إليك لغَدائك كل يوم دابّة منّا . فرضى بذلك وصالحهُنّ عليه ، ووفَى لهنّ بما أعطاهنّ من نفسه ، ووفَيْن له به . ثم إنّ أرنباً أصابتها القُرعة فقالت لهنّ : أىُّ شئٍ يضرّكُنّ إن أنتُنّ رَفَقْتُنّ بى فيما لا يضرّكنّ ، وأرِيحُكُنّ من الأسد ؟ فقلن لها : وما ذلك ؟ قالت : تأمُرْن من يذهب معى ألّا يتبعنى

لعلى أُبطِئُ على الأسد حتى يتأخّر غَداؤه فيغضبَ لذلك . ففعلن بها ما ذكرته ، وانطلقت مُتّئدة حتى جاءت الساعةُ التى كان يتغدّى فيها . فجاع الأسد وغضب وقام عن مربضه يمشى وينظر . فلما رآها قال : من أين جئت ؟ وأين الوحوش ؟ فقالت : مِن عِندهنّ جئتُ ، وهُنّ قريب ، وقد بعثن معي بأرنب ، فلما كنتُ قريباً منك ، عَرَض لى أسد فانتزعها مني ، فقلت : إنها طعام الملك فلا تَغصِبنّه . فشَتَمك وقال : أنا أحق بهذه الأرض وما فيها منه . فأتيتُك لأخبرك . فقال : انطلق معى فأرينيه . فانطلقت به إلى جُبّ صافى الماء . فقالت : هذا مكانُه ، وهو فيه ، وأنا أفرَق منه ، فاحمِلنى فى صدرك[٢٢] . فحملها فى صدره ونظر فى الجُبّ فإذا هو بظلّها وظلّه . فوضع الأرنبَ من صدره ، ووثب لقتال الأسد فى الجبّ وطلبه فغرِق ، وانفلتت منه الأرنب ورجعت إلى سائر الوحوش فأعلمتهُنّ بخبره .

قال كليلة : إن قدرتَ على هَلاك شنزبة ، فى غير مشقّة تدخلُ على الأسد ، فافعل ؛ فإنّ مكانه قد أضرّ بى وبك وبغيرنا من الجُند . وإن لم تستطع ذلك إلّا بما ينغّص الأسد ، فلا تشترينّ ذلك بذلك ؛ فإنه غَدْر منى ومنك ولُؤم وكُفر .

ثم إنّ دمنة تَرَك الدخول على الأسد أياماً ، ثم أتاه على خَلوة متحازناً .

فقال له الأسد : ما حبَسك عنى ، منذ مدّة لم أرَك ، أذلك لخير ؟ قال دمنة : حَدَث ما لم يكن الملك يريده ولا نحن . قال الأسد : وما ذلك ؟ قال دمنة : هو كلام فظيع . قال الأسد : فأخبِرنى به . قال دمنة : إنه ما كان من كلام يكرهه سامعه ، لم يكد يتشجّع عليه قائله - وإن كان ناصحاً مُشفِقاً - إلّا أن يثِق بعقل المقول له ، وإلّا كان القائل خَرِقاً ؛ فإنه إذا كان المقول له ذلك عاقلًا احتمله واستمعه وعرف ما فيه ، لأنه ما كان فيه من نفع فإنما هو للسامع ، وأما قائله فلا ينتفع به ، بل قلما يسلم من ضرره . وأنت أيها الملك ذو فضيلة فى الرأى ، ورُجحانٍ فى الحلم ، فأنا متشجّع على أن أُخبرك بما تكره ، واثقٌ بأنك تعرف نصيحتى ، وإيثارى إياك على نفسى . وإنه ليعرض لى أنك غيرُ مصدّق بما أنا مُخبرك به ؛ ولكنى إذا نظرتُ فذكرتُ أنّ أنفسنا ، معْشرَ السباع ، مُعلّقةٌ بنفسك ، لَم أجد بُدًّا من أداء الحقّ الذى يلزمنى لك ، وإن أنت لم تسلنى عنه ، وخِفتُ ألّا تقبلَه منى ؛ فإنه مَن كتم السلطانَ نصيحتَه ، والأطبّاء مرضَه ، والإخوانَ رأيَه ، كان قد غشّ نفسه . فقال الأسد : وما ذلك ؟ قال دمنة : حدّثنى الأمين الصادق عندى ، أنّ شتربة خلا برءوس جُندك فقال لهم : قد جرّبتُ الأسد ، وبَلَوتُ رأيَه ومَكيدته وقوّته ، فاستبان لى فى كل ذلك ضعف ، وإنه كائن لى وله شأن . وأنه لمّا بلغنى هذا عرفتُ

أنَّ شتربة خئون غادِر ، وقد عرف أنك أكرمته الكرامة كلّها ، وجعلته نظيرَ نفسك ، فهو اليومَ يظنّ أنه مثلُك ، وأنك إن زُلتَ عن مكانك صار له مُلكك ؛ فهو لا يدع جُهداً . فإنه كان يقال : إذا عرَف الملك من الرجل ، أنه قد ساواه فى الرأى والمنزلة والهيبة والمال والتبع ، فليصرَعْه ؛ فإنه إن لم يفعل كان هو المصروع . وأنت أيها الملك أعلمُ بالأمور ، وأبلغُ فيها رأياً . وأنا أرى أن تحتال للأمر قبل تفاقُمِه ، ولا تنتظرَ وقوعَه ، فإنك لا تأمَنُ أن يفوتَك ثم لا تستدركَه ؛ فإنه كان يقال : الرجالُ ثلاثةٌ : حازمان وعاجز . فأحد الحازمَين مَن إذا نزل به البلاء لم يَدهَش ، ولم يذهب قلبُه شَعاعاً ، ولم يَعْىَ برأيه وحيلتِهِ أو مكيدتِهِ التى بها يرجو المخرج والنجاة . وأحزَمُ مِن هذا ، المتقدّم ذو العدّة ، الذى يَعرِف الأمر مبتدَأً قبل وقوعه ، فيُعظِمه إعظامه ، ويحتالُ له حيلته كأنه قد لزمه ، فيحسمُ الداء قبل أن يُبتلَى به ، ويدفع الأمر قبل وقوعه . وأما العاجز فهو الذى لا يزال فى التردّد وتمنّى الأمانىّ حتى يُهلِك نفسه . ومَثَل ذلك مثلُ السمكاتِ الثلاث . قال الأسد : وكيف كان مَثَلُهنّ ؟ قال دمنة :

زعموا أنّ غَديراً كان فيه ثلاثُ سمكاتٍ : كيِّسةٌ ، وأكيسُ منها ، وعاجزة . وكان ذلك المكانُ بنجوةٍ من الأرض ، لا يكاد يقربُه من الناس أحد . فلما كان

ذات يوم ، مرّ صيادان على ذلك الغدير مجتازَين ، فتواعدا أن يرجعا إليه بشِباكهما فيصيدا الثلاثَ السمكات اللواتى رأياهنّ فيه . فلما رأتهما الحازمة ارتابت بهما ، وتخوّفت منهما ، فلم تعرّج أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر . وأما الكيّسة فتلبّثت حتى جاء الصيادان ، فلما أبصرتهما قد سدّا مخرجها ، وعرفت الذى يريدان بها ، قالت : فرّطتُ ، وهذه عاقبة التفريط ، فكيف الخلاص وقلما تنجح حيلة المرهوق ؟ ولكنّ العالِم لا يقنطُ على كل حال ، ولا يدعُ الأخذ بالرأى . ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة ، فأخذاها فألقياها على الأرض غير بعيد من النهر ، فوثبت فيه فنجت منهما . وأما العاجزة فلم تزل فى إقبال وإدبار حتى صاداها .

وأنا أرى لك أيها الملك ، معاجلةَ الحزم والحيلةِ ، فتحسمُ الداء قبل أن تُبتلَى به ، وتدفعُ الأمر قبل نزوله .

فقال الأسد : قد فهمتُ ما ذكرتَ ؛ ولكن لا أظنّ شتربة يبغينى سوءا ولم أفعله به . قال دمنة : ألا إنه لا يحمله على ذلك إلّا ذلك ؛ فإنك لم تدَع خيراً إلّا صنعتَه به ، ولا مرتبةً شريفة إلّا بلّغتَه إياها ، فلم يبق شئ يسمو إليه إلّا مكانُك ؛ فإنّ اللئيم الكفور لا يزالُ ناصحا نافعا ، حتى يُرفَع إلى المنزلة التى ليس لها بأهل ، فإذا فُعِل ذلك به ، التمس ما فوقها بالغش والخيانة .

ولا يخدِم السلطان ولا ينصح له إلّا عن فَرَق أو حاجة ؛ فإذا استغنى وأمِن عاد إلى أصله وجوهره ؛ كذَنَب الكلب الأعقف ، لا يزال مستقيماً ما دام مربوطاً ، فإذا حُلّ عاد إلى ما كان عليه . واعلَمْ أنه من لم يقبل من نُصحائه ما يثقُل عليه مما ينظرون له فيه ، لم يحمَد مَغَبّة أمره ورأيه ؛ كالمريض الذى يترك ما يَنعت له الطبيب ويعمِد لما تشتهى نفسُه . وحقٌّ على وزير السلطان أن يبالغ فى الحِضّيضَى له على ما يزينه ، ويكون فيه رشده وكفُّ الشَّين والغىّ عنه . وخيرُ الأعوان أقلُّهم مصانعة ، وأفضلُ الأعمال أحلاها عاقبة ، وأحسنُ الثناء ما كان على أفواه الأحرار ، وأشرف السلطان ما لم يخالطه بطر ، وأيسَر الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وأفضلُ الأصدقاء من لم يُخاصِم ، وأمثلُ الأخلاق أعونُها على الورَع . وقد قيل لو أنّ امرأً توسّد النارَ ، وافترش الحيّات ، كان أحقَّ بأن يَهنِئَه النومُ عليها ، منه إذا أحسّ من صاحبه الذى يغدو عليه ويروح ، بعداوة يُريد بها نفسه . وأعجزُ الملوك آخَذُهم بالهُوَينا ، وأشبَهُهم بالفيل المغتلم الذى لا يلتفت إلى شئ ؛ فإن حزَبَه أمر تهاون به ، وإن أضاع ما ينفعه ، جعل ذلك على قرابينه .

قال الأسد : لقد أغلَظتَ القول ، وذلك من الناصح مقبول ، ولو كان شتزبة لى عدُوًّا كما تذكر ، لم يَقدِر على ضُرّى ؛ وكيف يستطيع ذلك وهو

آكِل عُشب ، وأنا آكل لحم . وإنما هو لى طعام ، وليس علىّ منه مكروه ، ولا إلى الغدر به سبيل ، بعد إعطائى إياه ، وإكرامى له ، وثنائى عليه على رءوس جندى . فإن أنا غيّرتُ ذلك أو بدّلته فقد جهّلتُ نفسى وختَرتُ بذمتى . قال دمنة : لا تغترّ إلى ذلك ؛ فإنّ شتربة إن هو لم يستطعك بنفسه احتال لك من قِبَل غيره . وقد قيل : إن نزل بك ضيفٌ ساعةً من النهار ، وأنت لا تعرف أخلاقَه ، فلا تأمَنه على نفسك ، واحذَر أن يصلَ إليك منه مِثلُ ما وصل إلى القَملة من ضيافة البُرغوث . قال الأسد : وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة :

زعموا أنّ قملةً لزِمَت فِراش رجُل من الأشراف ، فكانت تُصيب من دمه وهو نائم ، وتدِبّ دبيباً رفيقاً فلا يشعرُ بها . ثم إنّ بُرغوثاً ضافها فقالت له : بِت هُنا الليلة فى دم طيّب وفراش وطيء ليّن ؛ ففعل . فلما آوى الرجُل إلى فراشه ، لدغه البرغوث فأوجعه ، فاستيقظ وأمر بفراشه أن يفتّش وينظَر ما فيه . فوثب البرغوث فنجا ، وأخذوا القملة فقتلوها .

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنّ صاحب الشر لا يُسلم منه ، وإن ضَعُف احتال بغيره ؛ فإن كنت لا تخاف شتربة وقد وثقت به ، فرُبّ موثوقٍ به غادِر . فأشفِق من جندك ؛ فإنه قد ألّبهم وحمّلهم على عداوتك وجرّأهم

عليك، مع أنى قد عرفتُ أنه لا يريد مناظرتك، ولا يَكِلُ العملَ إلى غيره فى ذلك من أمرك. فوقع فى نفس الأسد ما قاله دمنة، وقال له: ما ترى؟ فقال دمنة: إنّ صاحبَ الضِّرس المأكول لا يزال فى أذًى منه حتى يفارقه، والطعامَ الذى غَثِيَت منـه النفس راحتُها فى قذفه، والعدُوَّ المخوف دواؤه فى فقده أو قهره. قال الأسد: لقد تركتنى كارهاً لمجاورة شتربة، فأنا مُرسِلٌ إليه فذاكرٌ له ما وقع فى نفسى، وآمِرُه باللحاق حيث أحبّ. فكره دمنة ذلك، وعرف أنّ الأسد إن كلّم شتربة وسمع مرجوعه عليه، عَذَره وصدّقه ولم يَخْفَ عليه أمره، فقال: ما أرى ذلك لك أيها الملك؛ فإنه لا يزال لك من رأيك الخيارُ ما دام لا يعلم بأنّ أمره قد وصل إليك. فإنه إن شَعَر بذلك خِفتُ أن يكابرك أو يتنحّى عنك؛ فإن قاتلك قاتلك مُستعِدًّا، وإن فارقك فارقك حَذِراً، وكان له عليك فى ذلك الفضلُ. مع أنّ الملوك حَزَمَة لا يُعلِنون بالعقوبة إلّا لمن ظهر ذنبه، وما كان من ذلك مكتوماً ستروها منه.

قال الأسد: إنّ الملك إذا عاقب أحداً أو أهانه عن أمرٍ - يظُنّه به - لا يستيقنُه، ثم علم أنّ ذلك ليس كما بلغه، فبِنفسه فعل ذلك، وإياها عاقب ونكّب.

قال دمنة: فلا يدخلَنّ عليك شتربة إلّا وأنت مستعدّ له، واحذَر أن يصيبَ منك غِرّة؛ فإنى لا أحسبك، لو قد نظرتَ إليه حين يدخل عليك،

إلّا ستعرف أنه قد همّ بعظيمة . ومن علامات ذلك أن ترى لونَه متغيّرًا وأوصاله ترتعد ، وهو يلتفت يمينًا وشمالًا ، ويهيّئ قرنيه كأنه يهمّ بالنطح .

قال الأسد : سآخذ بمشورتك فى ذلك . ولئن أنا رأيتُه على ما وصفتَ ، فليس فى أمره عندى شك .

فلما فرغ دمنة من تضريب الأسد على الثور ، وأوقع فى نفسه الذى أراد ، همّ بأن يذهب إلى شنزبة ليُغريَه به ويحمله عليه . وأحبّ أن يكون ذلك بأمر الأسد وعن علمه ، لئلّا يبلُغه ذلك عن غيره فيتّهمَه فيه ، فقال : ألا آتى شنزبة فأنظرَ إلى حاله وأسمعَ كلامه لعلّى أطّلع على بعض أمره ، فأُعلِم الملك به ؟ قال الأسد : شأنُك وما تريده . ثم إنّ دمنة انطلق إلى شنزبة فدخل عليه كالحزين المكتئب . فرحّب به شنزبة ، وقال : لم أرَك منذ أيام ، فما خَبَسك ؟ أهو خير ؟ فقال دمنة : ومتى كان من أهل الخير مَن لا يملك نفسه ، ومَن إنما أمرُه بيد غيره ، ممن لا يُوثَق به ، ومَن لا ينفكّ فى خوف منه ، حتى ما مِن ساعةٍ يأمَنُه فيها على نفسه ؟

قال شنزبة : فما ذلك ! قال دمنة : حَدَث أمر ؛ فمَن ذا يغلِب القدَر ؟ ومَن بلغ فى الدنيا جسيماً فلم يبطَر ، أو اتّبع الهوى فلم يعثَر ، أو جاور النساء فلم يفتَتِن ، أو طلبَ إلى اللئام فلم يُهَن ويُحرَم ، أو واصَل الأشرار فسلم ، أو

صاحبَ السلطان فدام له منه الإحسان ؟ لقد صدق الذى يقول : إنما مَثَلهم ، فى قِلَّة وفائهم لأصحابهم وسخاء أنفسهم عمن فقَدوا منهم ، مَثَل المكارى[٢٣] كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه . فقال شنزبة : أسمع لك كلاماً أعرف به أنه قد رابك من الأسد شئ . قال دمنة : ذلك كذلك ؛ ولكن ليس فى أمر نفسى . وقد تَعرِف حقّك علىّ ، ووُدّ ما بينى وبينك ، وما كنتُ جعلتُ لك من ذِمّتى أيامَ كان الأسد أرسلنى إليك . فلم أجِد بُدّا من حِفظِك والنصيحةِ لك ، وإطلاعِك على ما أخاف فيه الهَلَكة عليك . قال شنزبة : وما ذلك ؟ قال دمنة : حدّثنى الأمينُ الصدوق أنّ الأسد قال لبعض أصحابه : لقد أعجبَنى سِمَن شنزبة ، وليست بى حاجةٌ إليه ، وما أرانى إلّا آكِلَه ومُطعِمَكم منه . فلما بلغنى ذلك عرفتُ كفره وغدره ، وأقبلت إليك لأحَذِّرك لتحتال فى نجاتك فى رِفق .

فلما سمع شنزبة كلام دمنة ، وتذكَّر ما كان جعل له ، وفكَّر فى أمر الأسد ، ظنّ أنه قد صدَقه ، فاهتمّ وقال : ما ينبغى للأسد أن يَغدِر بى ، ولم أُذنِب إليه ، ولا إلى أحد من جُنده . وأظنّه قد حُمِل علىّ ، وشُبِّه عليه فى أمرى ؛ فإنه قد صحِبه قوم سَوء ، جرّب وعرف منهم أشياء هى تُصدّق عنده ما بلَغه عن غيرهم ؛ فإنّ مقارنة الأشرار ربما أورثت أهلَها تُهمَة الأخيار ، وحَمَلهم ذلك

على خطإٍ كخطإِ البطّـة التى رأت فى الماء ضوء كوكب فحاولت أن تَصيده ، فاما لم تره شيئاً تركته ، حتى إذا كان عند المساء أبصرتْ فيه نوناً ، فحسبت أنه مِثلُ ما رأت قبلَه ، فرفضت طلبه .

فإن كان ما بلغه عنى باطلاً فحقّقه ، لِما اختبر من غيرى ، فبالحرِىّ ؛ وإن كان لم ينتهِ إليه من ذلك شئ فأراد هلاكى عن غيرِ عِلّة ، فذلك عجب . وأعجب منه أن أكون أطلبُ رضاه وموافقته فلا يرضى . وأعجب من ذلك أن ألتمس محبّته وأجتنب مخالفته فيغضب ويَسخَط . وإن كانت مَوجِدته عن غير سبب انقطع الرجاء ؛ لأنّ العِلّة إذا كانت المعتبَة فى وُرودها ، كان الرضا فى إصدارها ؛ وهى تذهب أحياناً وتوجد أحياناً ، والباطل قائم غير مفقود . وقد تذكّرتُ فلا أعلم لى ذَنباً فيما بينى وبين الأسد - إن كان - إلّا صغيراً . ولعمرى ما يستطيع امرؤ صاحَبَ أحداً ، أن يتحفّظ حتى لا يفرُط منه شئ يكرهه ؛ ولكنّ الرجلَ ذا العقل والوفاء ، إذا سَقَط صاحبُه نظر فى ذلك ، وما حدُّ مَبلغه ، وخطأً كان أو عمداً ، وهل فى الصفح عنه مَخوف ، ثم لا يؤاخذه مهما وجَد إلى العفو عنه سبيلًا . فإن كان الأسد يعتدّ علىّ جُرماً فلست أعرفه إلّا أنى كنتُ أُخالف عليه فى بعض رأيه ؛ فلعله يقول : ما جرّأه على أن يقول « نعم » إذا قلت « لا » ، أو يقول « لا » إذا قلت « نعم » ؟ ولا أجدنى فى ذلك مخصوماً ،

لأنى لم أكُن أريد بذلك إلّا منفعته ، ولم أكن أجاهره به على رءوس جنده ، ولكن أخلو به فأكلّمه فيه وأنا هائب له . وعرفتُ أنه مَن التمس الرُخصة من الإخوان عند المشاورة ، والأطبّاء عند المرض ، والفقهاء عند الشُبهة ، فقد أخطأ الرأى ، وزاد فى المرض ، واحتمل الوِزر . فإن لم يكن هذا فسى أن يكون من سَكرات السلطان ؛ فإنّ منها أن يسخط على مَن لم يستوجب السخط ، ويَرضى عمّن لم يستحق ذلك فى غير أمر معلوم . وكذلك قيل ، قد غرّر من لجّج فى البحر ، وأشَدُّ منه مخاطَرةً صاحبُ السلطان ؛ فإنه خليقٌ ، وإن هو لزمهم بالوفاء والاستقامة والمودّة والنصيحة ، أن يَعثُر فلا ينتعش . وإن[٢] لم يكن هذا فلعل بعضَ ما أُعطيتُه من الفضل جُعل فيه هلاكى ؛ فإنّ الشجرةَ الحسنة ربما كان فسادها فى طيب ثمرتها إذا تُنُوولت أغصانها وجُذِبت حتى تُكسر وتفسد ؛ والطاووسَ ربما صار ذنَبه الذى هو حسنه وجماله ، وبالًا عليه ، فاحتال إلى الخفة والنجاة ممن يطلبه ، فيشغله عن ذلك ذنَبه ؛ والفرسَ الجواد القوىّ ربما أهلكه ذلك فأُجهد وأتعِب واستُعمِل لما عنده من الفضل حتى يَهلِك ؛ والرجلَ ذا الفضل ربما كان فضله ذلك سببَ هلاكه ، لكثرة من يحسُده ويبغى عليه من أهل السوء ، وأهلُ الشرّ أكثرُ من أهل الخير بكل مكان ، فإذا عادَوه وكثُروا عليه أوشكوا أن يُهلِكوه . فإن لم يكن هذا فهو

إذاً القَدَرُ الذى لا يُدفع ؛ فإنّ القَدَر هو الذى يسلُب الأسد شِدته وقوّته حتى يُدخله التابوت ، وهو الذى يحمل الضعيف على ظهر الفيل ، وهو الذى يسلّط الحوّاء على الحية فينزِعُ حُمَتها فيلعبُ بها كيف شاء ، وهو الذى يُعجِز الأريبَ ويُحرِم العاجز ، ويثبّط الشهم ويشهّم الثَبيط ، ويُوسّع على المُقتِر ويُقتّر على المُوسِر ، ويشجّع الجبان ويجبّن الشجاع عند ما تعثر به المقادير من معاريض العلل التى عليها قُدّرت مجاريها [٢٥]

قال دمنة : إنّ إرادة الأسد لما يريد ، ليس لشئ مما ذكرت من تحميل الأشرار ولا غير ذلك ، ولكنه الغدر والفجور ؛ فإنه جبّار غدّار ، أوّلُ طعامه حلاوة ، وآخِره مَرارة ، بل أكثرُه سمّ مُميت . قال شنزبة : صدقتَ . لعمرى لقد طَعِمتُ فاستلذذت ؛ فأرانى قد انتهيت إلى الذى فيه الموت . وما كان ، لولا الحَين ، مُقامى مع الأسد ؛ هو آكل لحم وأنا آكل عشب . فقبحاً للحرص وقبحاً للأمل ؛ فهما قذفانى فى هذه الورطة ، واحتبسانى عن مذهبى كاحتباس النحل فوق النيلَوفر - إذا وجَدتْ ريحَه واستلذّت به وأغفلت منهاجها الذى ينبغى لها أن تطير فيه قبل انضمام النيلوفر - فتلجّ فيه فتموت . ومن لم يرضَ بالكفاف من الدنيا ، وطمحت نفسه إلى الفضول والاستكثار ، ولم ينظر فيما يتخوّف أمامه ، كان كالذُباب الذى ليس يرضى بالشجر والرياحين ، حتى يطلبَ الماءَ الذى يسيل

من أُذُن الفيل المغتلِم ، فيضربُه الفيل بأذنيه فيقتلُه . ومن بذل نصيحته واجتهاده لمن لا يشكر له ، فهو كمن بذر بذره فى السباخ ، أو أشار على الميت .

قال دمنة : دَعْ عنك هذا الكلام ، واجتهد لنفسك . قال شنزبة : بأىّ شئ أحتال لنفسى ، إن أراد الأسد قتلى ؟ فما أعرَفَنى بأخلاق الأسد ورأيه ، وأعرَفَنى بأنه لو لم يُرِد بى إلّا الخيرَ ، ثم أراد أصحابه ، بمكرهم وفجورهم ، هلاكى عنده ، قَدَروا على ذلك ! فإنه لو اجتمع المَكَرة الظَلَمة على البرىء الصحيح كانوا خُلَقاء أن يُهلكوه ، وإن كانوا ضعفاء وكان قويًّا ؛ كما أهلك الذئبُ والغرابُ وابنُ آوى الجَمَل ، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخِلابة . قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟ قال الثور :

زعموا أنّ أسداً كان فى أجمة مجاورةٍ طريقاً من طرق الناس ، له أصحاب ثلاثة : ذئبٌ وابنُ آوى وغُراب ، وأنّ أناساً من التجّار مرّوا فى ذلك الطريق فتخلّف عنهم جمل لهم ، فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد ، فقال له الأسد : مِن أين أقبلتَ ؟ فأخبره بشأنه . فقال له : ما تريد ؟ قال أريد صُحبة الملك . قال : فإن أردتَ صُحبتى فاصحَبْنى فى الأمن والخِصب والسَّعة . فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يومٌ توجّه الأسد فى طلب الصيد فلقِى فيلًا فقاتله قتالًا شديداً . ثم أقبل الأسد تسيل دماؤه مما جرحه الفيل بنابه ، فوقع مُثخَنًا

لا يستطيع صيداً . فلبث الذئب وابن آوى والغراب أياماً لا يُصِبنَ شيئاً مما كُنّ يَعِشنَ به من فضول الأسد ، وأصابهم جوع وهزال شديد . فعرف الأسد ذلك منهم فقال : جُهِدتُنّ واحتجْتُنّ إلى ما تأكلن . فقلن : ليس هَمُّنا أنفسَنا ونحن نرى بالملك ما نرى ، ولسنا نجد للملك بعضَ ما يُصلحه . قال الأسد : ما أشُكُّ فى مودّتكم وصحبتكم ، ولكن إن استطعتم فانتَشِروا ، فعسى أن تُصيبوا صيداً فتأتونى به ، ولعلّى أُكسِبكم ونفسى خيراً . فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد فتنحَّوا ناحية ، وائتمروا بينهم وقالوا : ما لَنا ولِهذا الجمل الآكل العُشب ، الذى ليس شأنُه شأنَنا ، ولا رأيُه رأينا ؟ ألا نُزيِّن للأسد أن يأكله ويطعمنا من لحمه ؟ قال ابن آوى : هذا ما لا تستطيعان ذِكرَه للأسد ، فإنه قد أمّن الجمل ، وجعل له ذمّة . قال الغراب : أقيما مكانكما ودَعانى والأسد . فانطلق الغراب إلى الأسد . فلما رآه قال له الأسد : هل حصّلتم شيئاً ؟ قال له الغراب : إنما يجد مَن به ابتغاء ، ويُبصر مَن به نظر . أما نحن فقد ذهب منّا البصر والنظر لِما أصابنا من الجوع ؛ ولكن قد نظرنا فى أمر واتفق عليه رأينا ، فإن وافقتَنا عليه فنحن مُخصِبون . قال الأسد : وما ذلك الأمر ؟ قال الغراب : هذا الجمل الآكل العشب ، المتمرّغ بيننا فى غير منفعة . فغضب الأسد وقال : ويلك ! ما أخطأ مقالتَك ،

وأعجزَ رأيك، وأبعـدَك من الوفاء والرحمة. وما كنتَ حقيقاً أن تستقبلني بهذه المقالة. ألم تعلمَ أني أمّنتُ الجمل، وجعلت له ذمّة؟ ألم يبلُغك أنه لم يتصدّق المتصدّق بصدقة – وإن عظمت – هي أعظم من أن يُجير نفساً خائفة، وأن يَحقِن دماً مهدوراً؟ وقد أجَرتُ الجمل، ولستُ غادراً به. قال الغراب: إني لأعرف ما قال الملك؛ ولكنّ النفسَ الواحدة يَفتدِي بها أهلُ البيت، وأهلَ البيت تَفتدِي بهم القبيلةُ، والقبيلةَ يَفتدِي بها المِصر، والمصرُ فدى الملك إذا نزلت به الحاجة. وإني جاعلٌ للملك من ذِمّته مَخرجًا، فلا يتكلّفُ الأسدُ أن يتولّى غدراً ولا يأمرَ به؛ ولكنّا محتالون حيلة فيها وفاءٌ للملك بذمّته وظفرٌ منّا بحاجتنا. فسكت الأسد.

فأتى الغراب أصحابه فقال: إني قد كلّمت الأسد حتى أقرّ بكذا وكذا. فكيف الحيلةُ للجمل إذا أبى الأسدُ أن يلِيَ قتلَه أو يأمرَ به؟ قال صاحباه: برفقك ورأيك نرجو ذلك. قال الغراب: الرأى أن نجتمع والجملَ، ونذكرَ حال الأسد، وما قد أصابه من الجوع والجهد، ونقول: لقد كان إلينا مُحسناً، ولنا مُكرِماً. فإن لم يرَ منّا اليوم – وقد نزل به ما نزل – اهتماماً بأمره وحِرصاً على صلاحه، أنزلَ ذلك منّا على لُؤم الأخلاق وكُفر الإحسان. ولكن هلمّوا فتقدّموا إلى الأسد نذكر له حسن بلائه عندنا، وما كنا نعيش به في جاهه،

وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا ، وأنّا لو كنا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم ندّخر ذلك عنه . فإن لم نقدر على ذلك فأنفسُنا له مبذولة . ثم ليَعرض عليه كلٌّ واحد منا نفسَه وليقل : كُلني أيها الملك ، ولا تَمُت جوعاً . فإذا قال ذلك قائل ، أجابه الآخرون وردّوا عليه مقالته بشئ يكون له فيه عُذر ، فيسكت ويسكتون . ونسلمُ كلّنا ونكونُ قد قضينا ذمام الأسد . ففعلوا وواطأهم الجمل على ذلك .

ثم تقدّموا إلى الأسد ، فبدأ الغراب وقال : إنك احتجتَ أيها الملك إلى ما يُقيمك ، ونحن أحقُّ أن نَهبَ أنفسَنا لك ؛ فإنّا بك كنا نعيش ، وبك نرجو عَيش مَن بعدنا من أعقابنا ، وإن أنت هلكتَ فليس لأحد منّا بعدك بقاء ، ولا لنا فى الحياة خير ؛ فأنا أُحِبُّ أن تأكلنى ، فما أطيبَ نفسى لك بذلك . فأجابه الذئب والجملُ وابن آوى أن اسكتْ فما أنت ؟ وما فى أكلك من الشِبَع للملك ؟ قال ابن آوى : أنا مشبع الملك . قال الذئب والجمل والغراب : أنت مُنتِن البطن والريح ، خبيثُ اللحم ؛ فنخافُ إن أكلك الملك ، أن يقتله خُبْث لحمك . قال الذئب : لكنّى لست كذلك ، فليأكلنى الملك . قال الغراب وابن آوى والجمل : مَن أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب ، فإنه يأخذه منه الخُناق . وظنّ الجمل أنه ، إذا قال مثل ذلك عن نفسه ، يلتمسون

له مَخرجًا كما صنعوا بأنفسهم ، ويسلمَ ويُرضِى الأسد . قال الجمل : لكن أيها الملك ، لحمى طيّب ومرىء ، وفيه شِبَع للملك . قال الذئب والغراب وابن آوى : صدقتَ وتكرّمت وقلت ما نعرف . فوثبوا عليه فمزّقوه .

وإنما ضربت هذا المثل للأسد وأصحابه ؛ لعلمى بأنهم إن اجتمعوا على هلاكى لم أمتنع منهم ، ولو كان رأىُ الأسد فىّ غيرَ ما هو عليه ، ولم يكن فى نفسه إلّا الخير . فإنه قد قيل : إنّ خير السلطان من أشبه النسور حولها الجِيَف ، لا من أشبه الجيف حولها النسور . ولو أنّ الأسد لم يكن فى نفسه إلّا الرحمةُ والحبُّ لم تُلبِثه الأقاويل ، إذا كثرت عليه ، أن يَذهب ذلك كلّه ، حتى يستبدل به الشرارةَ والغلظة . ألا ترى أنّ الماء أليَنُ من القول ، وأنّ الحجَر أشدُّ من القلب ؛ وليس يلبث الماء إذا طال تحدُّرُه على الحجر الصَّلْد أن يؤثِّر فيه ؟

قال دمنة : فماذا تريد أن تصنع ؟ قال شنزبة : ما إن أرى إلّا أن أُجاهده . فإنه ليس للمصلّى فى صلاته ، ولا للمتصدق فى صدقته ، ولا للورِع فى ورَعه مثلُ أجر المجاهد بنفسه ساعةً من نهار إذا كان مُحقًّا ، وكان عدوّه مُبطِلًا ؛ فإنه من ذلك على أمرين يستيقن منهما الأخيار : إن قُتِل فالجنّة ، وإن قَتل فأجْر وظَفَر .

قال دِمنة : ليس ينبغى لأحـد أن يخاطِر بنفسه ؛ فإنه إن فعل ذلك وهلك ، كان قد أضاع نفسه وأَثِم ، وإن ظَفِر كان من قِبَل القضاء ؛ ولكنّ

ذا العقلِ يجعلُ القتالَ آخرَ حِيَله ، ويبدأُ بما استطاع من رِفق أو تمحّل ولا يَعجَل . وقد قيل : لا تحقِرَنّ العدوّ الضعيفَ المَهين ، ثم لا سيما إن كان ذا حيلة ؛ فكيف بالأسد ، وهو فى جُرأته وشدّته على ما قد عرفت ؟ فإنه مَن استصغر أمر عدوّه وتهاون به ، أصابه ما أصاب وكيلَ البحر من الطِيطَوَى .

قال شنزبة : وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة : زعموا أنّ طائراً من طيور الماء يُدعَى الطيطوى كان هو وزوجتُه فى بعض سواحل البحر . فلما كان إبّانُ بَيضها أعلمتْه بذلك ، وقالت له : التمس مكاناً حريزاً أبيض فيه . فقال لها : ليكُن ذلك فى منزلنا ؛ فإنّ العُشب والماء كثير ، ومنّا قريب ، وذلك أرفَقُ بنا من غيره . فقالت : يا غافِلُ لِتُحسِن نظرك فيما تقول ؛ فإننا بمكاننا هذا على غَرَر ؛ لأنّ البحر لو قد مَدّ ذَهَب بفراخنا . فقال : لا أراه يحمِل علينا لما يخاف الوكيلُ عليه من الانتقام منه . فقالت : ما أشدّ بَغيك فى هذه المقالة ! أوَ ما تستحي وتعرفُ قَدْر نفسك ، فى وعيدك مَن لا طاقة لك به ، وتهدُّدِك إياه ؟ وقد قيل : إنه ليس من شئ أشدّ معرفةً لنفسه من الإنسان[٣٦] . وذلك حقّ فاسمع كلامى ، وأطِع أمرى ؛ فأبى أن يجيبها إلى ما تدعوه إليه .

فلما رأت ذلك قالت : إنّ من لا يسمع القول النافعَ من أصدقائه ، يُصيبه ما أصابَ السُلَحفاة . قال : وكيف كان ذلك ؟ قالت : زعموا أنّ عيناً كان

فيها بطّتان وسُلَحفاة ، وكان قد أَلِف بعضُهم بعضاً وصادَقه . ثم إنّ تلك العين نقص ماؤها فى بعض الأزمان نقصاناً فاحشاً . فلما رأت البطّتان ذلك قالت : إنه لينبغى لنا تَرْكُ ما نحن فيه ، والتحوّلُ إلى غيره . فودّعتا السلحفاة وقالتا : عليكِ السلام ؛ فإنا ذاهبتان . قالت السلحفاة : إنما يشتدّ نُقصان الماء على مِثلى ، لأنى لا أعيش إلّا به ؛ فاحتالا لى واذهَبا بى معكما . فقالتا : لا نستطيع أن نفعل ذلك بك ، حتى تشترطى لنا أننا إذا حملناك فرآك أحد فذكرَكِ ، ألّا تُجيبيه . فقالت : نعم ؛ ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما ؟ فقالتا : تَعَضّين على وسَط عُود ، وتأخذُ كلٌّ واحدة منا بطرَفه . فرضيتْ بذلك وطارا بها ، فرآها الناس فقال بعضهم لبعض : انظروا إلى العجَب ! سلحفاة بين بطّتين تطيران بها فى الهواء . فلما سمعت ذلك قالت : رَغْمٌ لأنفكم . فلما فتَحت فاها بالمَنطِق ، وقعت إلى الأرض فماتت .

فقال الطيطوى للأنثى : قد فهِمتُ ما ذكرتِ ، فلا تخافى وكيلَ البحر ، ولا ترهبيه . فباضت مكانَها وفرّخت . فلما سمع وكيلُ البحر ذلك أحبّ أن يعلم كُنْه الذى يقدر عليه الطيطوى من الاجتزاء منه ، وما حيلته فى ذلك . وأمهله حتى مدّ البحرُ ، وذهب بالفراخ فى عُشهنّ فغيّبهنّ . فلما فقدَتهنّ أُمُّهنّ قالت للطيطوى : قد كنتُ عارفةً فى بدء أمرِنا أنّ هذا كائن ، وأنها سترجع

علىّ وعليك ، قِلّة مَعْرِفتك بنفسك . فانظر إلى ما أصابنا من الضُّر فى سبب ذلك . فقال : ستَرَين صُنعى ، وما يصيرُ إليه عاقبةُ أمرى . وانطلقَ إلى أصحابه فشكا ذلك إليهم ، وقال : إنكم إخوتى وأهلُ مودّتى وثقتى ، وأنا أطلب ظُلامتى ، فأعينونى وظاهِرونى ؛ فإنه عسى أن ينزل بكم مثلُ ما نزل بى . فقالوا له : نحن على ما وصفتَ ، وأنت أهل لأن تُسعف بما طلبتَ ؛ ولكن ما عَسَينا أن نقدِر عليه من ضُرّ البحر ووكيله ؟ قال : فاجتمِعوا بنا ، فلنأْتِ سائرَ الطير ، فلنذكُرْ ذلك لهم . فأجابوه إلى ذلك ، وأعلَمهنّ ما أصابه وحلّ به ، وحذّرهنّ أن ينزل بهنّ مثلَه . فقلن له : الأمرُ على ما ذكرتَ ؛ فما الذى نستطيع من مساءة البحر ووكيله ؟ فقال : إنّ مَلِكنا معشرَ الطير العنقاء[٢٧] ، فتعالَوا نَصرُخْ بها حتى تبدُوَ لنا . ففعلوا ذلك ، فظهرت لهنّ وقالت : ما جَمعكنّ ؟ ولِمَ دعوتمونى ؟ فأنهَين إليها ما لَقين من البحر ووكيله ، وقلن لها : إنك مَلِكتُنا ، والملك الذى يَقْتعدك أقوى من وكيل البحر ، فانطلقى إليه فليُعِنّا عليه . ففعلت ذلك ، فأجابها إلى ما سألت ، وانطلق ليقاتله . فلما عَلِم بذلك وكيل البحر ، وعرَف ضعفه عند قوّته ، ردّ فِراخ الطيطوى عليه .

وإنما ضربتُ لك هذا المثَل لأنى لا أرى لك قتالَ الأسد ، ولا المجاهرةَ له به . قال شتربة : ما أنا بناصِبٍ للأسد العداوة ، ولا متغيّرٍ له عما كنتُ

عليه حتى يبدُوَ لى ما أتخوف منه ، فأُغالبَه . فكَرِه ذلك دمنة ، وظنّ أنّ الأسد ، إن لم يرَ من شنزبة العلاماتِ التى وصف له ، اتهمه . فقال : انطلِق ! سيستبين لك ، إذا دخلتَ عليه ، آياتُ ما ذكرتُ لك . قال شنزبة : وكيف أعرف ذلك ؟ فقال دمنة : إن أنت رأيت الأسد حين تدخل عليه ، ينتصبُ مُقعِياً ، ويرفعُ صدره ، ويسدِّد إليك بصره ، ويضرب بذنَبه ، ويتلمّظ ، فاعلَم أنه يريد قتلك ، فاحذره ولا تغترّ إليـه . فقال شنزبة : لئن أنا عاينتُ منه ما وصفتَ ، فما فى أمره عندى شك .

فلما فرغ دمنة من تحميل الأسد على شنزبة ، وشنزبة على الأسد ، توجّه إلى كليلة . فلـما لقيه قال : إلامَ انتهى عملك الذى كنتَ فيه ؟ فقـال دمنة : يا أخى قد تقارب نجاحه على الذى تُحب . فلا تَشُكّن فى ذلك ، ولا تظنّن أنّ الإخاء بين الأخوين ثابت إذا احتال لقطعه الأريب الرفيق . فانطلقا حتى أتيا الأسد فى عَرينه ؛ ووافقا شنزبة قد دخل عليه فرآه على حال ما ذكر دمنة ، ووصَفه له . فاستيقن بالهَلَـكة ، وقال : ما صاحِبُ السلطان – فيما يُتخوّف من بوادِره عند ما يرقَى أهلُ البغى إليه – إلّا كمجاوِر الحيّة فى بيته ، والأسدِ فى عرينه ، والسابح فى المـاء الذى فيه التماسيح [٢٨] لا يدرى متى يهيج به بعضُهنّ . ففكّر فى ذلك وتهيّأ لقتاله . ونظر إليـه الأسد فعرف ما كان

دمنة ذكر له منه، فواثبه؛ فاقتتلا قتالاً شديداً سالت منه الدماء بينهما.

فلما رأى كليلة ذلك قال لدمنة: أيها الفسل! انظر إلى حيلتك؛ ما أنكدَها وأوخَمَ عاقبتَها! فإنك قد فضحتَ الأسد، وأهلكتَ شنزبة، وفرّقت كلمةَ الجند، مع ما استبان لى من خُرقك فيما ادّعيت فيه الرفق. أوَلستَ تعلم أنّ أعجزَ الرأيِ ما كلّف صاحبَه القتال، وهو عنه غنيّ؟ وأنّ الرجل ربما أمكنته فرصتُه فى عدوّه فتركها، مخافة تعرّض النكبة، ورجاء أن يقدِر على حاجته بغير ذلك. وإذا كان وزير السلطان يأمُرُه بالمحاربة فيما يقدر على بُغيته فيه بالمسالمة فهو أشدُّ من عدوّه له ضرراً. وكما أنّ اللسان يُدركه الضَعف عن نهكة الفؤاد، فكذلك النّجدة تلحقها السخافة عن خطأ الرأى، فإنهما إذا فقد أحدُهما صاحبَه لم يكن للآخر عمل عند اللقاء. وللرأى عليها الفضل؛ لأنّ أموراً كثيرة يجزى فيها الرأى، ولا تبلغُ هى شيئاً إلّا به. ومَن أراد المكر، ولم يعرِف وجهَ الأمر الذى يأتيه منه ويحيدُ فيه عنه، كان عَملُه كملك. ومن عرف التمحّل والرِفق، وهو ضعيفٌ بنفسه وعدوُّه قوىّ، فإنه أقوى من عدوّه؛ لأنّ الفيل والأسد مع قوّتهما، والحيةَ الأسوَد مع سمّه ونهشته، وقوةَ الماء والنار والريح والشمس؛ فإنّ الرجل الضعيف، بالرفق والحيل يظفرُ بهم، وبالحيل يركَبُ الفيل، ويأخذ الحيّــة ويلعب بها،

ويُصَيِّر الأسدَ فى التابوت ، ويُجرِى الماء على موضع ما يُريد ، ويَمنَع مضرّة النار والريح والشمس ، ويَستخدم القوىّ . وقد كانت لى معرفة ببغيك وعُجْبك بنفسك . ولم أزل أتوقّع ، منذ رأيتُ شرَهك وحِرصَك ، داهيةً تجنِى بها علىّ وعليك ؛ فإنّ ذا العقل يُفَكّر فى الأشياء قبل مُلابَستها ؛ فما رجا أن يَتمّ له أقدَم عليه ، وما خاف أن يتعذّر عليه انصرف عنه . ولم يمنعنى من تأنيبك فى أول أمرِك ، ووَقفِك على خطَل رأيك ، إلّا أنّ ذلك كان ما لا أستطيع إظهاره ، ولا ابتغاء الشهود عليك فيه . فأما الآن فإنى سأفسّر لك ما أنت عليه من ذلك ؛ فإنك تُحسِن القولَ ولا تُحكِم العمل . وقد قيل : ليس شئٌ بأهلَكَ للسّلطان ممن كان كذلك . وهذا الذى غرّ الأسدَ منك . ولا خيرَ فى الكلام إلّا مع الفعل ، ولا فى الفِقه إلّا مع الوَرَع ، ولا فى الصدقة إلّا مع النيّة ، ولا فى المَنظر إلّا مع المَخْبر ، ولا فى المال إلّا مع الجود ، ولا فى الحياة إلّا مع الصحة والسرور والأمن . وقد سوّطتَ أمرًا لا يداويه إلّا العاقل الرفيق ، كالمريض الذى يجتمع عليه فساد المِرّة والبلغم والدم ، فلا يُذهِب ذلك عنه إلّا الطبيبُ الحاذق الماهر . واعلم أنّ الأدب يدفع عن اللبيب السُكر ، ويزيد الأحمقَ سكرًا ؛ كالنهار فإنه يُنير لكل ذى بصر من الطير وغيره ، ولا تستطيع الخفافيش الاستقلال فيه . وذو الرأى لا تُبطره

منزلةٌ أصابها ؛ كالجبل الذى لا يتزلزل وإن اشتدّت الريح . وذو السُخف يُنزِقه أدنى أمر كالحشيش الذى يُميله الشئُ اليسير . وقد قيل : إنّ السلطان إذا كان صالحاً ، ووزراؤه غيرَ صالحين ، قلّ خَيره على الناس ، وامتنع منهم فلم يجترِ عليه أحد ، ولم يدنُ منه ؛ كالماء الصافى الطيِّب الذى فيه التماسيح ، فلا يستطيع الرجل دُخولَه وإن كان سابحاً ، وإليه محتاجًا . وإنما حِليةُ الملوك وزينَتُهم قراينهم أن يكثُروا ويَصلُحوا . وإنك أردتَ ألّا يدنُوَ من الأسد غيرُك . وإنما السلطان بأصحابه وأعوانه كالبحر بأمواجه . ومِن الُحمق التماس الإخوان بغير الوفاء ، والأجرِ بالرياء ، ومودّة النساء بالغِلْظة ، ونفعِ المرء نفسَه بضرّ الناس ، والفضلِ والعِلم بالدّعَة والخفض ؛ ولكن ما غَناء هذه المقالة وجَدا هذا التأنيب ، وأنا أعرف أنّ الأمر فيه كما قال الرجل للطائر : لا تلتَمِس تقويم ما لا يَعتدل ، ولا تُبصِّر من لا يفهم . فقال دمنة : وكيف كان ذلك ؟ قال كليلة :

زعموا أنّ جماعةً من القِردة كُنّ فى جبل . فرأيْنَ فى ليلة باردة يراعةً، يحسبنَها ناراً ، فجمَعن حطباً فوضَعنه عليها ، وجعَلن ينفُخن بأفواههنّ ، ويروِّحن بأيديهن . وقُرْبَ ذلك الموضعِ شجرةٌ عليها طائر ، فقال لهنّ : لا تُتعِبْن أنفُسَكنّ ، فإنّ الذى ترَين ليس بنار كما تحسَبْن . فلم يسمَعن منه ، ولم يُطِعنه .

فلما طال ذلك عليه، نزل اليهنّ، فمرّ به رجل، فقال: أيها الطائر، لا تلتمِس تقويم ما لا يَعتدل، وتبصيرَ مَن لا يفهم؛ فإنّ الحجَر الذى لا يُقدَر على قطعه لا تُجرَّب به السيوف، والعودَ الذى لا ينحنى لا يُعالَج حَنْيه؛ فإنّ مَن فعل ذلك ندم. فلم يلتفت إلى قوله، ودنا منهنّ ليبصِّرهنّ، فتناوله بعضهم وضرب به الأرض فقتله. فهذا مَثَلُك فى قِلّة الانتفاع بالموعظة؛ مع أنه قد غلب عليك المكر والعُجب، وهما خَلّتا سُوء. إنه سيصيبك، من عاقبة ما أنت فيه، ما دخل على الخَبّ شريكِ المغفّل. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ فقال كليلة:

زعموا أنّ رجلين، أحـدهما خَبّ والآخرُ مغفّـل، اشتركا. فبينما هما يتمشّيان إذ وجدا بَدرةً فيها ألفُ دينار فأخذاها. وبدا لهما أن يَرجعا إلى مدينتهما، فلما دنَوَا منها قال المغفل للخَبّ: خذ نِصفَها وأعطِنى نصفها. فقال الخبّ، وكان قد أضمر الذهاب بها كلّها: لا؛ فإنّ المفاوضة أدوم للمصافاة؛ ولكن يقبضُ كل واحد منّا منها شيئاً ينفقه، وندفن بقيتها مكاناً حريزاً. فإذا احتجنا إليها استثرناها. فأجابه إلى ذلك، ودفناها تحت شجرة عظيمة. ثم خالف إليها الخبّ، فذهب بها. ولقيه المغفّل فقال: اخرُج بنا إلى وديعتنا فلنقبِضْها. فانطلقا إلى المكان فاحتفراه فلم يجداها. فجعل الخبّ ينتِف شَعره، ويدُقّ صدره، ويقول: لا يَثِقَنّ أحد بأحد! رجعتَ إليها فأخذتَها. وجعل

المغفَّل يحلف أنه ما فعل. ثم انطلق به إلى القاضى فقصّ عليه الأمر. فقال له: هل من يشهد؟ قال نعم! الشجرةُ تشهد لى بما أقول. فأنكر ذلك عليه القاضى أشدّ الإنكار، وأمر به فكُفِل. وقال: وافُونى به غدًا باكرًا. فانصرَف إلى أبيه وأعلمه بذلك، وقال: إنى لم أقل الذى ذكرتُ إلّا لأمر قد رَوَّأتُ فيه؛ فإن أنتَ طاوعتنى أحرزْنا ما أخذنا، وأضفنا إليه مثلَه من المغفَّل. فقال: وما ذاك؟ قال: إنى قد كنتُ توخّيتُ بالدنانير شجرة عظيمة من الدَوح جوفاء فيها مدخل لا يُرى، فدفنته فى أصلها، ثم خالفته إليها فأخذتها وادّعيت على المغفَّل[٢٩]؛ فأنا أحِبّ أن تذهب الليلة فتدخلها. فإذا جاء القاضى فسألها قلتَ: «المغفَّل أخذ الدنانير». فقال: يا بُنىّ إنه رُبّ امرئٍ قد أوقعه تمحُّله فى ورْطة؛ فإياك أن تكون كالعُلجوم الذى أهلكه تحيُّلُه[٣٠]. قال: وكيف كان ذلك؟ قال:

زعموا أنّ عُلجومًا كان مُجاوِرًا لأسوَد. وكان لا يدع له فرخًا إلا أكله. وكان وطَنُه قد وافقه وأعجبه، فحزِن لذلك واهتمّ. ففطِن له سرَطان، فسأله عن حاله فأخبره به. فقال: ألا أدُلّك على شئ يُريحك منه؟ قال: بلى! فأشار إليه، وقال: انظر إلى ذلك الجحر، إنه[٣١] جُحر ابنِ عِرس — وأعلَمه عداوتَه إياه، وجوهرَه — وقال: اجمع سمكًا واجعله له سطرًا فيما بين مكانيهما؛

فإنه يأكل الأولَ فالأول حتى ينتهيَ إليه فيُهلكه . ففعل ذلك به فتبعه حتى وجد الأسوَد ، فقتله . ثم جعل ابنُ عرس يخرج بعد ذلك يلتمس العادة . فلم يزل يطوف حتى وقع على عُشّ العُلجوم ، فأكله وفراخه .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه مَن لم يتثبّت ، أوقعه ما يحتال به فيما عسى ألّا يَخْلُص منه . قال : قد فهمتُ ما ذكرتَ فلا تهابَنّ ، فإنّ الأمر يسير . فلم يزل به حتى أطاعه ، واتّبع رأيه .

فلما انتهى القاضى إلى الشجرة وسألها ، أجابه من جَوفها بأنّ المغفَّل أخذ الدنانير . فاشتد عجبُه من ذلك ، وطاف بها فلم يرَ شيئاً ، فأمر بحَطَب فجُمِع ، وأُلقِي عليها ، وجعل فيه ناراً . فلما دخل عليه الدخان ووصل إليه الوَهَج ، تصبَّر ساعة ثم صاح ، فأُخرِج بعد ما أشفَى على الموت . ثم عاقبه القاضى وابنَه . فمات الشيخ وانصرف به ابنُه يحملُه ميتاً ، ورجع المغفل وقد أخذ الدنانير وفَلَج عليهما .

وإنما ضربتُ لك هذا المثل ، لأن الخديعة والمكر ربما كان صاحبهما هو المغبونَ . وأنت يا دمنةُ جامعُ الخصال الرديّة التى وصفتُ . فكان الذى اجتنيتَ من ثمرة عملك ما ترى ؛ مع أنى لا أحسَبك تنجو ، فإنك ذو لونين ولسانين . وإنما صلاح أهلِ بيتٍ ما لم يدخلْ فيه مُفسِد ، وبقاء إخاء الإخوان ما لم

يحتمل له مثلك . فإنه لا شيءَ أشبهُ بك من الحيّة التى يجرى من نابها السمّ وقد كنتُ لذلك من لسانك خائفاً مُشفِقاً . لقربك منى كارهاً ؛ فإنّ العقلاء قد قالوا : اجتَنِب أهلَ الفُجور ، وإن كانوا ذوِى قرابتِك ؛ فإنّ مَن كان كذلك فإنما هو بمنزلة الحيّة التى يرقيها صاحبُها ويمسحها ، ثم لا يكون له منها إلا اللدغ . وكان يقال : الزَم ذا العقل والكرم واسترسل إليه ، وإياك وفراقه ؛ ولا عليك أن تصحب مَن لا جُودِ له إذا كان محمودَ الرأى ، واحترس من سيئ أخلاقه ، وانتفِع بما عنده ؛ ولا تدَع مواصلة السخِىّ وإن كان لا نُبل له ، واستمْتِع بسخائه ، وانفعه بلُبّك ؛ واهرُب من اللئيم الأحمق . وأنا بالفِرار منك والتنحّى عنك جدير حقيق . وكيف يرجو إخوانك وفاءك لهم ، وقد صنعتَ بمَلِكك الذى شرّفك ما أرى ؟ ومَثَلُك فى ذلك قولُ التاجر : إنّ أرضاً يأكل جُرذانها مائةَ منٍّ من الحديد ، غيرُ مُستنكَر أن تخطَف بُزاتُها الفِيلة .

فقال دمنة : وكيف كان ذلك ؟ قال كليلة :

زعموا أنه كان بأرض مردات[٣٢] تاجرٌ مُقِلّ . فأراد الشخوص إلى حاجة له ، وكان له مائة منٍّ من حديد ، فاستودعها رجلًا من معارفه ، وانطلق إلى حاجته . فلما رجع طلبها منه ، وكان قد باعها واستنفق ثمنها ، فقال له : كنتُ تركتُها فى ناحية البيت فأكلها الجرذان . فقال له : لقد بلغنا أنه ليس شئ

بأقطعَ للحديد من أنيابهنّ ؛ وما أهوَنَ المرزيَةَ فى ذلك إذا سلّمك الله . ففرح بما سمع منه ، وقال : اشرَب اليوم عندى . فوعده بذلك ، وخرج فأخذ ابنًا له صغيرًا حتى خبّأه فى بيته ثم رجع إليه ، فلم يزالا فى شأنهما حتى ذكر التاجرُ ابنَه وافتقده ، فقال له : هل رأيت ابنى ؟ فقال صاحب الحديد : لقد رأيتُ حين دنوتُ منكم ، بازيًا اختطف غلامًا فلعله هو . فصاح التاجر وقال : يا مَن حضر ! هل سمعتم بمثل هذا قطّ ؟ فقال : إنّ أرضًا يأكل جرذانها مائةَ مَنٍّ حديدًا ليس بمستكبَرٍ لها أن تختطف بُزاتها الفِيَلة . فقال : أنا أكلتُ حديدك ، وسُمًّا أدخلتُ جوفى ، فادفَعْ إلىّ ابنى ، وأردّ إليك ما أكلتُ لك . وما كنتَ استودعتَنى ، ففعلا ذلك .

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنك ، إذا غدرتَ بملِكك ذى البلاء الحسَن عندك ، فإنه لا شكّ فى صنيعك مثلَ ذلك بمن سواك ، وأنه ليس للمودّة عندك منزلة ولا مكافأة . فإنه لا شئ أضيع من إخاء يُمنَح مَن لا وفاء له ، وبلاء يُضيَّع عند مَن لا شُكر له ، وأدبٍ يُستودع مَن لا يفهمه ، وسرٍّ يُستَكتمه مَن لا يحفظه . ولستُ فى طَمَعٍ مِن تغيّر طبيعتك ، ولا تحوُّل أخلاقك ؛ فإنى قد عرفتُ أنّ ثمرة الشجرة المرّة لو طُلِيَتْ بالعسَل لم تنقلب عن جوهرها ، وقد خفت صحبتَك على رأيى وأخلاقى ؛ فإنّ صُحبة الأخيار

تورث الخير ، وصحبةَ الأشرار تورث الشرّ ؛ كالريح إذا مرّت على النتن حملت نتناً ، وإذا مرّت بالطّيب حملت طيباً .

وقد عرفتُ ثِقَل كلامى عليك . وكذلك الجهّال لم يزالوا يستثقلون عقلاءهم ، واللؤماء كِرامهم ، والسفهاء حلماءهم ، والمعوجّ منهم المستقيم .

فانتهى كلام كليلة إلى هذا المكان ، وقد فرغ الأسد من شتربة . وفكّر بعد ما قتله وقد ذهب عنه الغيظ ، فقال : لقد فجعنى شتربة بنفسه ، وقد كان ذا رأى وعقل ، ولا أدرى لعله كان مَبغِيًّا عليه . فحزِن وندم .

وبصُر به دمنة ، فترك محاورة كليلة وتقدّم إلى الأسد ، وقال : قد أظفرك الله أيها الملك ، وأهلك عدوّك ، فما الذى تهتمّ له ويحزُنك ؟ فقال الأسد : لقد أشفقتُ على قتل شتربة لعقله وكرم خُلُقه . فقال دمنة : لا تفعلنّ ذلك أيها الملك ولا ترحَمْ مَن تخافه ؛ فإنّ الملك الحازم ، ربما أبغضَ الرجلَ وأقصاه ، ثم تكاره عليه ، فقرّبه وولّاه لِما يَعرِفُ من غنائه وفضلِه ، فعلَ المتكاره على الدواء البشِع رجاء منفعته ومغبّته . وربما أحبّ الرجلَ وأدناه ، ثم أهلكه واستأصله ، مخافة ضرّه ، كالذى تلدغ الحيّة إصبَعه فيقطعُها مخافة أن ينتشر السمّ فى جسده كلّه فيقتله . فلما سمع الأسد ذلك منه صدّقه وقرّبه .

ثم [٣٣] قال الفيلسوف للملك : فكان فى صُنع دمنة – فى صِغَره وضعفه وهو

من أرذل السباع وأحقرها – بالأسد والثور ما شغّب به بينهما ، وألّب كل واحد منهما على صاحبه ، حتى قطع وُدَّهما وإخاءهما – من الأعاجيب والعبر لذوى الألباب ، فى الاتقاء والحذر لأهل النميمة والوهس ، والنظر فيما يزوّقون من خديعتهم ومكرهم وسعايتهم . وذوُو العقول أحقُّ أن يتّقوا كذب أولئك ويجتنبوا عطَبهم ، ويفحَصوا عن هذه الأشياء منهم ، ثم لا يُقدموا على شئ من أقاويلهم إلّا عن تثبّت وضياء ونور ، وأن يرفضوا كل من عرَفوا مِثلَ ذلك منه ؛ فإنه الرأىُ والحزمُ والأخذُ بأمر السعادة ، إن شاء الله .



باب الفحص عن أمر دمنة [1]

قال دَبشَليم ملك الهند لبَيْدَبا الفيلسوف : قد سمعتُ خبرَ الواشى المحتال الماهر بالخِلابة كيف يُفسد – بتشبيهه وتلبيسه – الودَّ الثابت بين المتحابَّين ؛ فأخبِرْنى إلامَ آل أمره ، وما كانت عاقبته ؟ .

قال بيدبا : إنّا وجدنا فى الكتب أنّ الأسد لما قتل شنزبة ، ومرّ لذلك أيام ، خرج النَمِر ذات يوم – وكان يُدعَى المعجِب الوشْى ، وكان معلّمَ الأسد وأمينَه وموضعَ سرّه – يطلب قبساً ، فاضطرّته السماء إلى منزل كليلة ودمنة . فلما انتهى إلى الباب سمع كليلة يعاتب دمنة ويلومه على سوء رأيه وصنيعه وما ارتكب من شنزبة فى غير ذنب أتاه إليه ؛ فكان فى بعض قوله : إنّ الذى أتيتَ من النميمة والخِلابة سيظهر للأسد ويطّلع طِلعَه بعد اليوم .

ولستَ بناجٍ منه إلّا بأكثرَ مما يُعاقَب به أهلُ الذنوب. ولستُ أنا أيضاً - فيما بعد اليوم - بمتخذِك خليلًا، ولا مُفشٍ إليك سرّاً، ولا مُقارِبك فى شئ؛ فإنّ العلماء قد قالوا: تباعَدْ ممّن لا رغبة له فى الصلاح، وإنما عَمَله النميمة والخِلابة. وكذلك حملتَ الملكَ على خليله البرىء الرفيق العالم شنزبة، ولم تزل به حتى اتّهمه فقتله.

فلما سمع النَمِر قول كليلة، رجع فدخل على أمّ الأسد فحدّثها الحديث الذى سمع كلّه. فلما أصبحتْ انطلقتْ إلى ابنها فرأته حزيناً كئيباً؛ فلما عاينت ذلك منه عرفت أنه ليس إلّا على شنزبة، فقالت: إنّ الأسف والهمّ لا يردّان شيئاً، وهما يُنحِلان الجسم، ويُذهِبان العقل، ويُضعِفان القوّة. فأعلِمنى شأنَك، فإن كان مما ينبغى لك أن تحزن له وتخبَل عنه فلستُ ولا أحدٌ من جندك يخلو من ذلك. وإن كان إنما هو لقتل شنزبة فقد استبان لنا ولك أنك ركبتَ ذلك منه ظُلماً على غير جُرم ولا غِشّ ولا حَدَث؛ فلو كنتَ فكّرتَ فى أمره، وقستَ مالك فى نفسه بما تجد فى نفسك له، لكان فى ذلك مُعْتَبَر؛ فإنه يقال إنّ امرأً لا يَوَدّ أحداً ولا يُبغِضه إلّا وجد له فى نفسه مثلَ ذلك. فأعلِمنى هل ترى ضميرك يشهد أنّ الذى فعلتَ بشنزبة كان على حقد وعداوة؟ فإن كان كذلك فهو لك عدوّ، وقد أظفرك الله به وأراحك منه؛

فدَع الحزن عليه والتأسّف لفراقه ، فإنّ العداوة لا تُستقال . وإن كان قلبك لا يشهد بعداوته ولا يذكر منه حقداً ولا مخالفة لك ، فأنت حريّ بالحزن عليه . فقال الأسد : ما زلتُ لشنزبة سليمَ الصدر ، واثقاً به ، مُعجبًا برأيه ، محبًّا له ، مسترسلًا إليه ؛ وقد دخل عليّ لقتله همّ شديد ، وما أنكرتُ من نفسى له شيئاً قبل قتله ولا بعده ؛ وإنى لنادم على ما كان منّى ، متلهّف له موجَع ؛ وما أشكل علىّ الرأىُ أنه برىء مما لُطخ به غيرُ متّهم ؛ ولكن قُتِل لتحميل الأشرار وبَغيهم وزخرفتهم الكلامَ الكاذب . ولكن أعلمينى هل سمعتِ شيئاً أو حدّثك به أحد ؟ فإنه إذا كان الرأى موافقاً لإخبار الموثوق به ، كان أسدّ للبصيرة وأثلج للصدر ، وأحرى أن يُقدم المرء به على غيرِ الشبهة والشك . فقالت أمّ الأسد : حدّثنى الأمينُ الصَدوق عندك أنّ دمنة لم يركب من شنزبة الذى ركب من تحميله إياك عليه ، إلّا لحَسَده إياه على منزلته منك ، ومكانه عندك . فقال الأسد : ومن خبّرك بهذا ؟ فقالت أمّ الأسد : قد استحفظَنيه ، والمستكتَم مؤتمَن ، ومَن أفشى سرًّا استُودِعه فقد خان أمانته ؛ ومَن فعل ذلك كان بشرّ المنازل فى المَعاد . فقال الأسد : لعمرى لقد صدقتِ ، ولكن ليس هذا مما ينبغى أن يُكتَم ، بل يحقّ على صاحبه أن يُعلنه ، ويُظهرَ شهادته عليه ، ويستكملَ الأجر فيه ، ولا يبطلَ حقًّا عليه – ولا سيّما فى دم المظلوم – فإنّ

الكاتم لجرم المجرم فى وَتَغ، مُبتغِ شركه فيه[٣]، وإنّ السلطان لا ينبغى له أن يعاقِب على الظنّ والشبهة؛ فإنّ الدم عظيم شأنه. وأنا - وإن كنتُ أُوطِئتُ عَشوة فى شنزبة - أكره أن أركب مِن دمنة مِثلها بغير بيّنة ولا يقين. وقد رمى إليكِ مَن أخبرك بما ذكرتِ، وقذفه فى عنقك. قالت أمّ الأسد: صدقتَ، ولكنى كنتُ أظنّ أنك تستكفى بى فيما حدّثتُك وتصدّقنى به فلا تتهمنى عليه. فقال الأسد: ما أنتِ عندى بمردودة القول، ولا أنتِ فى نفسى بمتّهَمَة، ولا أنا فى نصحك بمرتاب؛ ولكن أُحِبّ أن تُعلِمينى مَن هو ليكون أشفى لصدرى. قالت أمّ الأسد: فإن كنتُ عندك كذلك، فعاقِب هذا الفاجر عقوبةَ مِثله. قال الأسد: وما عليكِ أن تُخبرينى مَن ذكر ذلك لك؟ فإنه لا مضرّة فيه عليك. فقالت أمّ الأسد: ضرَر هذا علىّ فى خلالٍ ثلاث: أما الأولى فانقطاع ما بينى وبين صاحب هذا السرّ من المودّة لإباحتى بسرّه، والثانية خيانتى ما استُحفِظت من الأمانة، وأما الثالثة فوَجَل مَن كان يسترسل إلىّ قبل اليوم وقطعُهم أسرارهم عنى؛ ومتى أفعلْ ذلك لا يثِقْ بى أحد، ولا يطمئنّ إلىّ. فلما سمع الأسد ذلك منها وعرف أنها غير مخبرته باسم من أخبرها، قال: الأمر على ما قلتِ؛ وما أنا عمّا كرهتِ بالمفتّش، وما يختلج فى صدرى الارتياب بنصحك، فأخبرينى بجملة الأمر إذ كرهتِ أن تخبرينى باسم

صاحب السرّ . فأخبرته بجملة الأمر ، وقالت : لستُ أجهل قول العلماء فى تعظيم فضل العفو عن أهل الجرائم ، ولكنّ ذلك إنما هو فيما دون النفوسِ ، أو خيانة العامة التى يقع بها الشرّ ، ويحتجّ بها السفهاء عند ما يكون من أعمالهم السيئة ، واستغشاش الملك بالأمر الذى يصل خطأ - إن كان فيه - إلى العامّة ؛ وكان فيما يقال : لا ينبغى للولاة استبقاء الخَوَنة الفُجّار أهلِ الغدر والنميمة ، والتحيّل والإفساد بين الناس ، ومَن يكرهون صلاحهم ولا يرحمونهم لما نزل بهم . وأولى مَن نَفَى عن الرعيّة ما أفسدهم ، وساق إليهم ما أصلحهم ، القادة المتولّون لأمورهم . وأنت بقتل دمنة حقيق ! فإنه كان يقال : إفساد جُلّ الأشياء من قِبَل خَلّتين : إذاعةُ السرّ ، وائتمانُ أهل الفجور . وإنّ الذى أنشب العداوة بينك وبين شتربة أنصح الوزراء وخيرِ الأعوان حتى قتلتَه غدراً ، دمنةُ بحيلته وخِلابه ومكره وخيانته . وقد اطّلعتَ على مكنونه ، وبدا لك ما كان يخفى عليك ، وعلمتَه فى نحو ما تذكر من حديثه إياك قبل اليوم ؛ فالراحة لك ولجندك - إذ ظهر لك منه ما يكتم - قتلُه عقوبةً لجريمته ، وإبقاء على جندك من شرّه ؛ فإنه ليس على مثلها بمأمون . ولعلك أيها الملك أن تركن إلى ما آثرتَه من العفو عن أهل الجرائم ؛ فإن روّأتَ فى ذلك فاعلَم أنه ليس منهم من يبلغ جُرمه جرمَ دمنة .

فلما سمع الأسد ذلك ، نادى فى جموعه ، فحضروا وأتى بدمنة . ونكّس الأسد مستحيياً مما ركب من قتل شنزبة . فلما رأى دمنة ذلك قال لبعض من يليه متجاهلًا : مالى أرى الملكَ مكتئباً مهموماً ؟ هل حدث أمر جمعكم له ؟ فلما سمعت ذلك أمّ الأسد قالت مجيبة له : الذى كرَب الملكَ بقاؤك حيًّا إلى اليوم - مع عظيم حَدَثك وجُرمك - أيها الغادر الكذوب ! قال دمنة : وما الذى جنيت مما يُستحلّ به قتلى ويكرُب الملك بقائى ؟ قالت أمّ الأسد : أعظمُ الحدَث حَدَثك ، وأشـدُّ الخيانة خيانتك واستجهالُك الملك ، وقتلُك البرىء من وزرائه . قال دمنة : إنّ تصديق ما كان يُذكر قد حضر ؛ فإنه كان يقال : مَن اجتهد فى طلب الخير أسرع إليه الشرّ . ولا يكون الملك وجنوده المثَل السّوء . وقد علمت أنّ ذلك إنما كان قيل فى صحبة الأشرار ، أنه مَن صحبهم وهو يعلم علمهم لم ينجُ من شرّهم . ولذلك رفض أهل الدين والنُسك الدنيا ولذّتها ، واختاروا الوَحدة وتركوا مخالطة الناس ومحادثتهم ، لِما يرون فيهـا من مؤاخذة الأبرار بأعمال الفجّار ، وإثابة الفجّار بأعمال الأبرار ، وآثروا العمل لله على العمل لخلقه ؛ لأنه ليس أحد يجزى بالخير خيراً إلّا اللهُ ، وأما مَن دونه فقد تجرى أمورُهم فُنوناً يغلب على أكثر ذلكْ الخطأ . وما أحدٌ أحقُّ بالصفات الجميلة من الملك الموفّق الذى لا يصانع

أحداً لحاجة به إليه ، ولا لعاقبة يتخوّفها منه ؛ فإنّ أحقّ ما عظمت فيه رغبة الملوك من محاسن الصواب ، المكافأةُ لأهل البلاء الحسن عندهم ، ومن يُزلَف إليهم نصيحته . وهذا أقرب من أمرى وأشبه فيما حملنى النصحُ للملك ، والإيثارُ له على غيره ، والنظرُ للعامة من إعلان سرّ الخائن الكفور ، وما كان ربَض فى نفسه وارتفعت إليه همته من الغدر بالملك والوثوب عليه . وقد كان استبان للملك ، الذى كان منطوياً عليه ومضمراً له من العداوة والغلّ ، بالأمارات البيّنات الواضحات التى لا تحتاج معها إلى غيرها ، بالذى لقيه به حين لقيه وثاوَره . ولم يأتِ إليه شيئاً إلّا عن بصيرة . وإن هو أيضاً تحرّى الأمر وسأل عنه ونظر فيه ، عرف مصداق ما كنتُ قلتُ له ؛ فإنّ النار التى تكون فى الحجر والعود إنما تُستخرج بالحِيَل . وليس يخفى مثل ذلك ؛ فإنّ جُرم المرء ، إذا فُحِص عنه وفُتِّش ، ازداد استنارة واستبانة ، كما أنّ كل نَتْن من حَمْأة وغيرها إذا ثُوِّرت ظهر ريحها وقذَرها . ولقد علم الملك ومَن حضر أنه لم يكن بينى وبين الثور أمر أضطغِنه عليه ولا أبغيه به غائلة ، وما كان يملك من ضَرّ ولا نفع لى . ولقد كان الملك — فيما أعلمتُه من أمره حتى أبصر مِصداقه — أفضلَ رأياً وأشدّ عزماً . وإنى لأعرف أنه يتخوّف مثلها منّى غيرُ واحد من أهل الغشّ والعُدوان والعداوة للملك ، فنصبوا لمصيبتى واجتمعوا على هلاكى .

فلما سمع الأسد قوله ارتاب به ، فأخرجه وأمر بالفحص عنه ورفعه إلى القضاة لينظروا فى أمره . فسجد دمنة للملك وقال : أيها الملك ، لستَ بحقيق بمعاجلة أحد بالعقوبة عن قول الأشرار دون الفحص والتثبّت . وإنى لواثق عن فحصك ببراءتى وتصديق مقالتى ! وقد قالت العلماء : إنّ مَن استخرج النار من الحجر – وهى كامنة فيه – كالقادر أن يستخرج بالفحص وطول البحث ما خفى عليه من الأمور . ولو كنتُ مجرماً سرّنى تركُك التفتيش عنّى ، ولَمَا كنت مُرابِطاً بباب الملك . ولو كنت مذنباً هربتُ فى الأرض وكان لى فيها مذهب ! ولكن – لثقتى وبراءتى ونصيحتى – لم أبرحه ولم أفارقه . وأنا أرغب إليه – إن كان فى شك من ذلك – أن يأمر بالنظر فيه ، ويكون مَن يوليّه إيّاه ذا أمانة وإسلام[٧] ، لا تأخذه فى الحق لومةُ لائم ، ولا يكون عنده محاباة لأحد ولا غمزه ، ويرفعُ إليه عذرى وما يسمع من غيرى فينظرُ فيه ولا يأخذه فيه أقاويل البغاة علىّ ، الحسَدة لى ، فإنه قد كانت لى منه منزلة أنافسُها وأحسد عليها . فإن هو لم يفعل ذلك فىّ ، ويكن رأيه غليه ، فلا مؤمّلَ لى ولا مَنجى إلّا الله الذى يعلم سرائر العباد وخفىّ ضميرهم ؛ ولعلّى ألّا أكونَ بذلك أضرَّ منه . وقد كان يقال : إنّ الذى يعمل بالشبهة ولا يتثبّت عندها ولا يتثبّت فيها ، يكون قد صدّق ما ينبغى أن يَشُكَّ فيه ، وكذّب

ما ينبغي أن يُصدِّقه ، فيكون أمره كأمر المرأة التي بذلت نفسها لعبدها حتى فضحها . قال الأسد : وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة :

كانت بأرض كشمير مدينة تسمى بَرود ، وكان فيها تاجر يقال له كَبيرَغ[8] ، وكانت له امرأة ذات حسن ، وكان له جار مصوّر ، وهو صديق لها . فقالت له المرأة فى بعض أحيانها التي كان يأتيها فيها : إن استطعتَ أن تصنع شيئاً يكون علامة بيني وبينك أطّلع بها على مجيئك إذا جئتني بالليل من غير نداء ولا رمى ولا شئ يرتاب به ، رفَق ذلك بك وبي . قال المصوّر : نعم ، مُلاءة بلقاء ، بياضها كضوء القمر ، وسوادها كسواد الحدقة ، فإذا رأيتِها فاخرُجي فهي آيةٌ بيني وبينك ؛ فأعجبها ذلك وفرحت به . وكان يأتيها فى تلك الملاءة متى أراد . وسمع عبدُ التاجر حديثَ الملاءة ، وكان لأَمة المصوّر صديقاً ، فطلب العبدُ إلى أمة المصوّر أن تُعيره الملاءة التي له ليُريها صديقاً له ويُسرع ردّها - وكان المصوّر غائباً فى دار الملك - فأعطته إياها ولم ترتَب بشئ من شأنه . فأخذها ومضى إلى سيدته ليلاً ، فلم ترتب به لمّا رأتها عليه ، فظنّته صديقها المصوّر فبذلت له نفسها ، وقضى حاجته ، ورجع العبد بها إلى الأمة فوضعها فى موضعها . ولما مضت هَدْأة من الليل رجع المصوّر إلى بيته فلبسها ثم أتى المرأة . فلما رأته دنت منه وقالت له : ما شأنك ؟ لقد أسرعتَ العودة

بعد قضاء حاجتك . فلما سمع كلامها عرف أنه قد دُهِى . ومضى من وقته
إلى وليدته فأوجَعَها ضربًا ، فحدَّثته الحديث فأخذ الملاءة فخرقها وأحرقها .

وإنما ضربت لك هذا المثل لئلا تعجل لأمر فيه تشبيه وكذب ؛ فإنّ
الكذب مُمِيت لصاحبه . وأنت بالنظر فى أمرى جدير . ولست أقول ما تسمع
شفقًا من الموت ؛ فإنه – وإن كان كريهًا – لا مَنجى منه ولا مَحِيص عنه .
ولو كنتُ أعلم لى مائة نفس ، أعلم هواه فى تلفها ، جُدتُ بها له . فقال بعض
جلساء الملك : لم تنطق بهذا لحبّ الملك ولا لكرامته عليك ، ولكن ذلك
للدفع عن نفسك ، ولطلب الخلاص من الورطة التى قد لزمتك ، والتماسِ العذر
مما وقعت فيه . فأقبل عليه دمنة فقال : إنى إن كنتُ كما ذكرتَ ، فلست
أجدنى مخصومًا ولا ملومًا على دفع البلاء عن نفسى ما استطعت ، والتماسِ
البراءة لها ، وجرّ العافية إليها . ولا أحَد أقربُ إلى الإنسان من نفسه ،
ولا أولى بنصحها وإظهار عذرها منه . فأما أنت فلك الويل بما أظهرت من
ضعف عهدك وودّك لنفسك وسوء حالها عندك وأنك عدوّها فمن دونها أولى ؛
وقد قالت العلماء : إنّ المستهجِن لنفسِه المبغِض لها ، لغيرها أشنأ وأقطع ،
ولمن سواها أغشّ وأرفض . وما أنزّه الملك عن صحبتك ، بل أجدنى منزّهًا
للبهائم عن أخلاقك ، مكرمًا لها عن خلطتك . فلما سمع ذلك من دمنة لم يُحِرِ

جواباً . فقالت أمّ الأسد : إنّ من العَجَب انطلاقَ لسانك بالقول مجيباً لمن تكلّم ، وقد كان منك الذى كان . فقال دمنة : فلامَ تنظرين بعين واحدة وتسمعين بأُذُن واحـدة ؟ ولذلك شق جَدّى ؛ مع أنى أرى كل شئ تغيّر وتنكّر ، فليس أحدٌ ينطق بحقّ ولا يتكلم إلّا بالهوى . ومَن يباب الملك - لثقتهم بلينه وطُمَأنينتهم إلى كرمه - لا يتّقون ذلك فيما وافق الحقّ أو خالفه ؛ لأنه لا يغيّر عليهم ولا يبدَهُهم ولا يزجُرهم . فقالت أمّ الأسد : انظروا إلى هذا الفاجر الذى يركب الأمر العظيم ، ثم هو يأخذ بأعين الناس ليُبطله ويُبرّئ نفسه منه . قال دمنة : إنّ صاحب ما ذكرتِ مَن يُذيع السرّ ولا يدفنه ، والرجلُ الذى يلبَس لباس المرأة ، والمرأةُ التى تلبس لباس الرجل ، والضيفُ الذى يزعم أنه ربّ البيت ، ومن ينطق فى المجمع عند الملك بما لا يُسأل عنه . فقالت أمّ الأسـد : أما تعرف سوء عملك فتحذَرَه ، وتبصرُ غرّة قولك فتتّقيها ؟ فقال دمنة : إنّ الذى يركب المنكر لا يُحبّ لأحـد خيراً ولا يدفع عنه مكروهاً . قالت أمّ الأسد : أيها الفاجر ، إنك لتجترئ على مثل هذا القول عند الملك ! عجباً له كيف تركك حيّا ! فقال دمنة : إنّ صاحب ما وصفتِ الذى يُؤتَى بالنصيحة ، ويمكّن من عدوّه ، فإذا استمكن منه قتله ، ثم لا يشكر ذلك ولا يعرفه لمن فعله ، ويريد قتله بغير ذنب اجترمه . فقالت أمّ الأسد :

أيها الكاذب ، أترجو أن تنجوَ من ذنبك العظيم ؟ فقال دمنة : إنّ أهل ما ذكرتِ الذى يقول ما لم يكن ؛ وإنى نطقت بالحق ، وجئت عليه بالتَّبَت والحجّة . فقالت أمّ الأسد : ما الذى كنتَ قلتَ ، وما الذى صدّقته به ؟ فقال دمنة : الملك يعلم أنى لو كنت كاذباً ، لم أقل هذه المقالة عنده ؛ وإنى أرجو أن يستبين له صدق وبراءتى وصحة ما قلت . فلما رأت أمّ الأسد أنّ الأسد لا ينطق بشئ فى أمر دمنة ، شكّت فى أمره وقالت : لعله مكذوب عليه فيما رُمى به ! فإنّ المعتذر عند الملك بمحضر من الجند - لا يُردّ عليه شئ من منطقه - لشبيه بأن يكون مُحِقًّا فيما تكلّم به .

فأمر الأسد عند ذلك بدمنة فقُذِفت فى عنقه جامعةٌ ثم حُبس ، وأمَرَ بالنظر فى أمره . فقالت أمّ الأسد : لقد بلغنى عن هذا الفاجر الكذاب شرُّ ما يقال عن أحد ، وتتابعت الألسن عليه ، وهو له مُحيل ، وليس يخفَى أمره علىّ . والذى ذكره لى الأمين الصدوق ؛ فليسترح منه ولا يناظره . فقال الأسد : اسكتى عنى واهدئى ، فإنى ناظرٌ فى أمره وفاحص عنه ، وغيرُ عاجلٍ عليه ، ولا أشترى ضرّ نفسى باتّباع هوى غيرى ممن لا أدرى ما صِدقُه مِن كَذِبه ! مَن الذى وصفتِ ؟ فسمّيه لى . فقالت أمّ الأسد : هو خليلك ومودّبك وأمينك ، النمر . فقال الأسد : بحسْبك ! سترين ما أصنع به وآمُر

فيه ، فانصرف . فلما ذهبت هدأةٌ من الليل بلغ كليلةَ أنّ دمنة قد حُبس واستُوثِق منه ، فانطلق إليه يهمس همساً . فلما رآه موثقاً ، بكى بكاء شديداً وقال : قد بلغ الأمر يا أخى إلى ما لا أبالى ألّا أغلظ لك معه فى الكلام ، ولا أستقبلك بما تكره منه . وإنه ليخطر ببالى ما كنتُ أشير به عليك ، ولقد كنتُ رأيتُ ذلك وأبلغتُ فى الموعظة ، فلم تقبل منّى ولم تأخذ به ، لإعجابك برأيك . فويل لحلمك وفطنتك ! لقد ضلّا عنك ونُزعا منك وذهبا مع حياتك ضياعاً . فقال دمنة : إنك لم تزل تتكلم بالحقّ وتأمر به ؛ ولكن لم أسمع منك — لِما كان فىّ من الشرَه والشهوة ، ولِما كُتِب علىّ من البلاء — ولولا ذلك كان فيما وعظتنى به ما مِثلُه أنتهِى إليه وأنتفِع برأيك فيه . قالت العلماء : إنّ الذى لا يسمع من إخوانه ونصحائه يصير أمره إلى الندامة . وقد حلّ ذلك بى ! ولكن ما عَسَيتُ أن أصنع ؟ فإنّ الحرص وطموح العين يغلبان رأى الحليم ونظر العالم ؛ كالمريض الذى قد عرف أنّ شهوته من الطعام مُضِرّة به مُشَدِّدة للوجع عليه ، فلا يدعُ تناولَها والإصابةَ منها ، فيزدادُ مرضاً ، ولعلّه يموت منه . ولستُ أحزَن اليوم على نفسى ، ولكنْ عليك ، لأنى أخافُ أن تُؤخذ فىّ بسبب الذى بينى وبينك من القرابة ، فتعذَّب فلا تجدَ من إطلاعهم على أمرى بدًّا ، فأُقتَل بإظهارك سرّى وتصديقِهم إياك علىّ . فقال

كليلة : قد فكّرتُ فى ذلك ، وليس يُعدَل بالحياة شئ ، وقد يُضطرّ الرجل إذا نزل به البلاء ، إلى أن يقرِف نفسه بما لم يفعل ولم يعلم ، رجاء الحياة والتخفيف عنه ؛ وقد قالت العلماء : إنه من أريدت مهجته لأمر يُسأل عنه ، غيرُ مقتصر على ما كان ، ولكنّه قائل ما لم يكن إشفاقاً عليها . فالذى وَجِلَت منه نفسُك علىّ هو ما حاذرت . وقد طال مَقامى عندك ، وأنا منطلق خيفة أن يدخل أحد فيرانى عندك أو يسمعَ تحاوُرنا مستمع . وأنا أشير عليك أن تعترف بجُرمك وتبوح بذنبك ؛ فإنك ميّت لا محالة ، وإنك إن تُقتل فى الدنيا بما كان منك ، خيرٌ لك من العذاب الدائم فى الآخرة ، مع الأئمة الفُجّار . قال دمنة : قد صدقتَ فيما ذكرتَ ، ولكنّ العمل به شاقّ ؛ ولكنى غيرُ مُحير كلاماً حتى يُفرَق فى أمرى . ثم إنّ كليلة انطلق إلى منزله فوقع فى همّ وحزَن ، مخافةَ أن يؤخذ بذنب دمنة ؛ فاستطلق بطنُه فمات فى ليلته .

وكان فى السجن سَبُع ، وكان نائماً قريباً من كليلة ودمنة حيث اجتمعا فى السجن ، فاستيقظ بكلامهما ، فسمع جميع ما تحاورا فيه وتراجعاه بينهما ، فحفظ ذلك وكتمه .

ثم إنّ أمّ الأسد دخلت عليه من الغد ، فقالت : اذكر الذى وعدتنى البارحة فى أمر هذا الفاجر ، وقولَك لجندك : إنه لينبغى للمرء أن يعمل بالتقوى ولا يتوانى

فى ذلك . وإنى لا أعرف أمراً أعظم أجراً من الاستراحة منه ؛ فإنه قد قالت العلماء : إنّ المُعين لذى الآثام على خيانته شريكٌ له فى أعماله . فأمَرَ الأسدُ النمِرَ والقاضىَ أن يجلسا ويدعُوَا بدمنة على رءوس الجُند ، ثم يَسألا عنه ، ويَرفعا إليه الذي يذكرون لهما منه ، وجوابَه إيّاهم فيه ، ولا يَدَعا من ذلك شيئاً إلّا أنهياه إليه . فخرجا لذلك وجمعا الجند ، وبعثوا إلى دمنة . فلما أُتى به توسّط مَحفِلهم ، فانتصب النمر قائماً وجهر بصوته وقال : قد علمتم ، معشَرَ الجند ، ما دخل على الملك من التألّم بقتل شنزبة والتوجّع له ، ولم يزل مهموماً حزيناً وجِلًا أن يكون دمنة شبّه عليه فى أمره ، وأرهقه فيه مَيناً وباطلًا ، وأحَبّ أن يستيقن ذلك ، وقد نصبَنا للنظر فى أمرهما ؛ فأنتم أحقُّ ألّا تكتموه سرًّا ، ولا تدّخروا عنه نُصحاً ، ولا تُخفوا عليه حرفاً . وليقل كل امرئ منكم ما يعلم ، فإنه لا يُحبّ أن يَفرُط بعقوبة أحد لهوًى منه أو لغيره فى ذلك ، من غير استيجاب منه للعقوبة . فقال القاضى : انظروا ما يتكلم به الأمين فاتّبعوه . وقد سمِعتم الذى قيل لكم فلا يكتُمَنّ أحدٌ منكم شيئاً عَلِمه ، لثلاث خلال : أمّا واحدة فالصدق فيما استُشهِدتم به ، وألّا تجعلوا العظيم من الأمر فى الحق صغيراً ، ولا ينبغى لكم أن تكرهوا وقوع القضاء على ما وافقكم أو خالفكم ، ولا تُصغّروا منه شيئاً ؛ وأىُّ عظيم أعظمُ من ستر عورة من أفرط

الأخيار واستزلهم بوشْيه وكيده ؛ فالكاتم عليه غير برىء من مضرّة حِيلته ، ولا بعيدٍ من أن يكون شريكاً له فى عمله ؛ فإنّ يسير الحق عظيم . وأفظع منه عند الله أن يُقتل برىء على غير ذنب ، لنميمة فاجر كذّاب . والثانية أنّ عقوبة المذنب بذنبه مَقْمعة لأهل الرِّيبة ، ومَصلحة للملك والرعيّة . والثالثة أنّ الأشرار إذا قُتِلوا ونُفُوا من الأرض كان فى ذلك راحةٌ للملك والرعيّة وصلاح لهم ؛ فليَقُل كل امرئ منكم ما يعلم ، كيما يكونَ القضاء فى ذلك على الحق لا على الهوى والبغْى . فرمَق بعضُهم بعضاً وأطرقوا مَلِيّا لا يُحِيرون كلاماً لأنهم لم يعلموا من أمره عِلماً واضحاً يتكلمون به ، وكرهوا القول بالظنون تخوّفاً أن يَفصِل قولُهم حُكماً ، ويوجبَ قتلًا . فقال دمنة : ما يُسكِتكم ؟ ليَقُل كل امرئ منكم ما يعلم . واعلموا أنّ لِكل قُربة ثواباً إما عاجلًا وإما آجلًا . ولا بدّ أن تقولوا فى أمرى بعلمكم ، وليعلم كل متكلم منكم أنّ مَنطقه فى قولى حُكم فى إحياء نفس أو موتها . واعلموا أنّ من قال ما لم يَرَ ، وادّعى عِلمَ ما لم يعلم أصابه ما أصاب الطبيبَ الجاهلَ المتكلف . فقال له القاضى : وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة :

زعموا أنه كان فى مدينة من مدائن السند[1] طبيب عالم رفيق ، فمات ، فنظروا فى كتبه ، فكانوا ينتفعون بها ويتعلمون منها . فأتاهم رجل زعم أنه طبيب ، وأنّ له رِفقاً ، ولم يكن كذلك . وكانت لملكهم ابنة كريمة عليه ، وكانت حاملًا

فأصابها بَطَن فجعلت تُحِسّ الأعراض . فبعث الملك فى طلب الأطباء فأتت رُسُله رجلًا منهم كان له علم ، على رأس فرسخ . فوجدوه قد عَمِى ، فوصفوا له وجَع ابنة الملك ، فأمرهم أن يَسقوها دواء يقال له زامْهران ، فرجعوا إلى الملك فأخبروه بذلك . فأمر أن يُطلب طبيب ليهيّئ ذلك الدواء . فأتاه ذلك الرجل الجاهل فأخبره أنه عالم عارف بالأدوية وأخلاطها . فدعا الملك بالأسفاط التى فيها أدوية الطبيب ، فوضعت بين يديه ، فأخذ من أحدها صرّة فيها سمّ فجعل منها ومن غيرها زامْهران . فلما رأى الملك سُرعة فراغه من ذلك ظنّ أنه عالم ، فأمر له بحُلًى وكسوة حسنة ، وسقى الجارية منه فلم تلبث أن تَقطّع أمعاؤها فماتت . وأمر أبوها فسُقى الطبيب من الذى صنع لها من الأدوية فهلك .

وإنما ضربت هذا المثل فى جماعتكم كيلا تتكلموا بما لم تعلموا - تلتمسون به رضا غيركم - فيصيبكم ما أصاب ذلك الطبيبَ الجاهلَ ؛ فإنّ العلماء قد قالوا : إنما جزاء كل أحد بقوله وفعله . وأنا برىء مما لُطِخت به ، قائم بين أيديكم . فتكلّم سيّدُ الخنازير[١١] إدلالًا بمنزلته من الأسد وأمّه ، فقال : اسمعوا معشر الجند ، وتفكّروا فيما أقول لكم ؛ فإنّ العلماء لم يدَعوا شيئًا من آيات الأسرار والأخبار إلّا قد أثبتوه ، وإنّ علاماتِ الفجور فى هذا الشقىّ ظاهرةٌ ، وقد طار له مع ذلك ثَنا سُوء . فقال عظيم الجند لرأس الخنازير : قد سمعنا ذلك ، وقليلٌ من

يعرفه ، فأعلِمنا ما الذى رأيتَ فى هذا البائس . فقام رأس الخنازير وأخذ بيد دمنة وقال : إنّ فى كتبِ العلماء أنّ من كانت عينُه اليسرى صغيرةً كثيرةَ الاختلاج ، وأنفُه مائلًا إلى شِقّه الأيمن ، وما بين حاجبيه من الشعَر متباعداً ، ومنابتُ شعره ثلاثَ شعرات ثلاثَ شعرات ، وإذا مشى نكّس ولا يزال ملتفتاً إلى خلفه ، فإنه صاحبُ نميمة وفجور وغدر ؛ وهذه العلاماتُ كلُّها بيّنة فى هذا الشقىّ . فقال دمنة : نحن كلّنا تحت السماء ولسنا فوقها ، وأنتم ذوو الأحلام وتقيسون بالعلم الكلام ، وقد فهمتم ما قال فاستمعوا منّى ؛ فإنه يظنّ أنه لا أحدَ أعرفُ بالأمور منه ، وأنه لا عِلمَ إلّا عِلمُه ؛ وإن كان ما ذكر من العلامات حقًّا ، فلا أسمع أنّ أحداً يقدر على أن يعمل خيراً ولا شرًّا إلّا بها ، وإنما تجازُون بذلك وتعاقبون عليه ، وليس لامرئ من رأيه شئ ؛ فليس مُجتهدٌ وإن حرَص على الخير بنافعه حرصه ، ولا مسىء وإن أذنبه بضائره ذنبه ؛ وقد شقيتُ أنا بالعلامات التى فى جسدى ، وذلك أمرٌ ليس إلىّ إن كانت ، وأعوذ بالله أن تكون . ولو كان إلى الناس من ذلك شئ جعلوا فيهم أفضلَ ما يقدِرون من الآيات والشامات ، ولم يكن منّى غير العادة ، ولم أركب غير الحق . وقد استبان لمن حضرك قلةُ عقلك وعلمِك بالأمور وبصرِك بها . وقد قال رجل مرة لامرأته : احفظى نفسك ثم اطعَنى على غيرك ، ودعى الناس

وأصلحي عيوبك التي أنتِ بها أعرف ، وذلك مَثَلك . فقال سيّد الخنازير لدمنة : وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة :

زعموا أنه كانت مدينة تدعى بَرزجِر[١٢] قد أغار عليها العدوّ ، فقتلوا الرجال وسبَوا النساء والذرّية . فأصاب رجل من أولئك في الغنيمة رجلًا حرّاثًا وامرأتين له ، فكان يسيء إليهم في المطعم والمشرب ويُجيعهم ويُعريهم . فانطلق الرجل وامرأتاه ذات يوم يحتطبون ، فوجدت إحداهما خِرقة بالية في الصحراء فغطّت بها عورتها . فقالت الأخرى لزوجها : ألا تنظر إلى هذه الزانية تمشي عُريانة ؟ فقال لها زوجها : ويحك ألا تنظرين أنت إلى نفسك ؟ فإنّ جسمك كله عارٍ ، وتعيبين التي قد غطّت عورتها .

وأنتَ أيضًا أيها المتكلم ، أمرُكَ عَجَب حين تدنو من طعام سيّدك وتقوم بين يديه ، مع ما بجسمك من القذر والقبح والنتْن واللؤم وما فيه من العيوب ، ثم أنت تجترئ أن تقوم بين يدي الملك وتلِيَ طعامَه . وقد علم عيوبَك غيري من الجند ، ولم يكن ينبغي لي التكلم بها ، إلّا أنه لم يكن يضرّ أحدًا إكرامُه إياك ، وكنتُ لك أخًا وقد كنتُ أحفظك لذلك . فأما إذ باديتني بالعداوة ونطقتَ بالبهتان عليّ من غير علم ، فإنه لا ينبغي أن يكون صاحب السلطان دبّاغًا ولا حجّامًا ، دَع أن يكون بالمنزلة التي أنت بها منه . فقال رأس الخنازير : ألِي تقول

ما أسمع ؟ فقال : نعم ! حقًّا لك أقول ؛ فإنك قد جمعت أنك آدَرُ مبسورٌ تحكّ ذلك النهار كلّه ، أفدَعُ متسايلُ الخَلق خبيثه . فلما سمع ذلك رأس الخنازير وما رماه به ، خنقته العَبرة فبكى لجرأته عليه وإغلاظه له . قال له دمنة : إنه لينبغى أن تبكى وتُكثر دموعَك ؛ فإنّ الملك لو قد اطّلع على أمرك وعلم الذى أنت عليه ، أقصاك وأبعدك . فلما سمع ذلك أمينُ الأسد الذى أمره بحفظ ما يقولون - وكان اسمه شَهرخ[13] - رفعه إليه ، فعزل رأس الخنازير عن عمله ، وأمر بإخراجه وإقصائه عنه .

وكتب النمِر والقاضى ما قال دمنة وما قيل له ، وختما عليه ، وبعثا به إلى السجن .

ثم إنّ صديقاً لكليلة يقال له فَيروز[14] انطلق إلى دمنة فأخبره بموت كليلة ، فبكى بكاءً شديداً ، وقال : ما أصنع اليوم بالحياة وقد هلك أخى وصَفِيّ ؟ لقد صدق القائل : إنّ الإنسان إذا ابتُلِيَ أتاه الشرّ من كل جانب ، واكتنفه من الهمّ والحزَن مثلُ الذى بى . وقد رُزِئت - مع ما دخل علىّ - بمؤدِّبى ومتعهّدى بما فيه رشدى . وقد أبقى الله لى منك أخاً ليس بدونه ؛ بل أرجو أن تكون أفضلَ منه عَطفاً علىّ ، ونظراً لى ، وأن تهتمّ فى أمرى بما يعتنى به أخو الحفاظ ؛ فإن رأيتَ أن تنطلق إلى منزل كليلة فتأتينى بما كان لى وله فيه ، فافعل . فلما

جاء به أعطاه نصيب كليلة كلَّه، وقال: أنت أحقُّ به من غيرك. وطلب إليه أن يَحضُره عند الأسد بخير، وأن يُعلِمه ما تذكرُ أمُّ الأسد منه[15] عنده. فوعده ذلك، وقبل ما أعطاه.

ثم إنّ فَيروز غدا إلى الأسد فوافق النمِرَ عنده والقاضيَ، قد أتياه بالكُتُب فوضعاها بين يديه. فنظر فيها وأمر كاتبه بنَسخها ودفعِها إلى النمر، وقال له وللقاضى: انطلِقا بدمنة فقِفاه للجُند، ثم ارفعا إلىّ ما يكون منه، وعُذرَه فى ذلك. فلما خرجوا من عند الأسد أتته أمُّه فقرأ عليها تلك الكتب. فقالت أمّ الأسد: لا تجِدَنّ علىّ إن أنا أغلظتُ لك فى القول؛ فإنى لا أراك تعرف ما يضرّكِ مما ينفعك. أليس هذا ما كنتُ أنهاك عنه من استماع قول هذا الفاجر المحتال؟ فإنك إن استبقيته أفسد عليك جُندك وفرّق ملأهم. وانصرفَت من عنده وهى غَضبَى عليه. ثم إنّ فيروز أتى دمنة فأخبره بذلك. فبينما هو فى حديثه إذ أتاه رسول القاضى فانطلق به إليه. فقال عظيم الجند: قد علمتُ أمرك وتيقنتُه، وأتانى به مَن هو عندى أمين، وليس ينبغى لى أن أسأل عن شأنك ولا أنظر فيه سوى ما قد فحصت؛ فإنّ العلماء قالت: إنّ الله جعل لكل شئ من أمر الآخرة عَلَماً ومصداقاً فى الدنيا دلّت عليه أنبياؤه ورسله؛ ولولا ما أمرنا به الملك - لرأفته ورحمته بالرعيّة - لكان

القضاء بيِّناً عليك . فقال دمنة : إنّ منطقك ليس بذى وَجه ولا رأفة ولا نظر فى أمر مظلوم ولا طلب للحق والعدل ؛ ولكنّى أراك راكباً لهواك ، تريد قتلى ولم يستضئ لك شئ من أمرى وما قُذِفت به ، ولم أبلغ ثلاثةَ أيام بَعدُ . ولستَ بملوم بذلك عندى ، لأنّ الفاجر لا يُحِبّ الصلاح وأهلَه ، ولا من يعمل أعمال التقى .

فقال القاضى : إنّ حقًّا على الوالى أن يُجازِىَ المرء بصلاحه ، ويَعرِفه له ، لأنه أهلٌ لكل خير أُتِىَ إليه ، وأن يُنكِّل بالمجرم عن إساءته ويعذّبه ، ويعاقبه عليها ، ليزداد أهلُ الخير فى الصلاح رغبة ، وأهل الجرائم عن الإساءة نُزوعاً . ولعمرى لَأن تُعاقَبَ فى الدنيا ، خيرٌ لك من أن تعذَّب فى الآخرة غداً . فأقِرّ بذنبك ، وبُؤ بإساءتك ، واعترِف بصنيعك ؛ فإنه أفضل لك فى عواقب الأمور ، إن أنت هُدِيت إلى ذلك ووُفِّقت له . فقال دمنة : أيها القاضى الصالح ، نطقتَ بالعدل ، وقلت مقالة الحكماء . ولعمرى إنّ من سعادة المرء ألّا يبيع آخرته بدنيا فانية منقطعة ، ولا يشترىَ رَوحاً يسيراً بعذاب طويل . ولكنّى مما قُرِفتُ به برىء ؛ فكيف آمُرُ بقتل نفسى وأُعينُ عليها وأنا مظلوم ، بل أنطق بكذب لم أتفوّه به ولم يعرف منّى ؟ فشديد علىّ أن أقِرّ بما لم أعمل ، وأن أبوء بما لم أجنِ ، فأكونَ مُعيناً على نفسى ، وشريكاً لمن أراد قتلى ؛ فإنك تَعرف عِقاب مَن فعل ذلك فى الآخرة . وأنا برىء العِرض ، بارِز

العُذر ؛ فإن أردتم قتلى مظلوماً فكفى بالله لى ناصراً . ولعلّ ذلك - إن فعلتموه - ألّا يكون شرَّ أمورى لى عاجلًا وآجلًا . فأنا أقول اليوم مثل مقالتى أمس : اذكروا حساب الآخرة وعقابها ، ولا تأسفوا غداً إذا دخلتم اليوم فى أمر تندمون عليه حين لا تنفع الندامة ؛ فإنّ القضاة لا تقضى بظنونها ، وأنا أعلَم بنفسى منكم . وإياكم أن يُصيبكم ما أصاب القائلَ بما لا يعلم ، وما لم يُحِط به خُبراً . فقال عظيم الجنود والقاضى : وكيف كان ذلك ؟ فقال دمنة :

زعموا أنه كان مَرزبان فى مدينة فاروات[16] ، وكانت له امرأة حسناء عاقلة . وكان للمرزبان عبدٌ بازيار[17] ، وقد هوِيَها وعَرَض لها مِراراً ؛ كلّ ذلك لا تلتفت إليه . فأضمر فى نفسه فضيحتها ؛ فخرج ذات يوم إلى الصيد فصاد فرخَىْ ببّغاء فهيّأ لهما وَكراً ، وجعل يعلّم أحدهما أن يقول : « رأيت البوّاب مضاجعاً مولاتى » وعلّم الآخر أن يقول : « أما أنا فلست بقائل شيئاً » . فحفظ الفرخان ذلك بلسان البَلْخيّة ، ولم يكن أهلُ تلك البلاد يعرفونها . فلما كان ذات يوم ومولاه يشرب ، إذ أتاه بهما ، فصاحا بتينك الكلمتين بين يديه . فأعجب المرزبانَ ترجيعُهما ما قالا بأصواتهما - من غير أن يكون فقِه شيئاً مما قالاه - وأمر امرأته بالاحتفاظ بهما والإحسان إليهما ، وألطَف الغلام وأحسن إليه ؛ ومكثا عنده زماناً .

ثم إنه قدم عليه أُناس من عظماء أهل بلخ ، فصنع لهم طعاماً وشراباً .

فلما أصابوا من ذلك دعا بالفرخين ليُعَجّبهم منهما ، فصوّتا . فلما سمعوا صياحهما نظر بعضهم إلى بعض ونكّسوا رءوسهم حياء منه ، ثم قالوا له : هل تعلم ما يقولان ؟ فقال : لا ، غير أنّ ذلك لى مُعجِب . فقال بعضهم له[18] : لا تَجِدْ علينا إن حدّثناك به : فإنّ أحدهما يزعم – بلسان البلخية – أنّ البواب يَفجُر امرأتك ، وأما الآخر فيقول : « أما أنا فلست بقائل شيئاً » ؛ وإنّ مِن شأننا ألّا نُصيب فى بيت امرئٍ – امرأته فاجرةٌ – طعاماً . فنادى البازيارُ مِن خارج : أنا أشهد على مقالتهما أنها حقّ ، وأنى قد رأيتُ ذلك غير مرّة . فأمر المرزبانُ بقتل امرأته . فأرسلَت إليه أن افحص عما ذُكر لك ، فسيبدو لك مَن الفاجر الكذّاب ؛ ومُرْ هؤلاء العظماء فليسألوهما ولينظروا هل يعلمان أو يحسنان من لسان البلخية غير هاتين الكلمتين ، فتعلموا أنّ ذلك من تعليم البازيار ، لأنه أرادنى على نفسى فامتنعت منه . ففعل ذلك فكلّموهما فإذا هما لا يُحسِنان غيرهما ، فعرفوا أنّ ذلك من تعليم البازيار . فأرسل إليه فأتاه وعلى يده بازٍ . فقالت له المرأة : ويلك ! أنت رأيتنى على ما قذفتنى به ؟ قال : نعم ! فوثب البازى عليه فنزع عينيه بمخالبه . فقالت له المرأة : لقد عجّل الله لك النكال بكذبك علىّ ؛ فإنك زعمت أنك عاينتَ ما لم تر ، وشهدتَ علىّ بزُور وباطل .

وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا أنَّ مَن عمل بمثل ما عمل به البازيار من الافتراء والبهتان ، كان جزاؤه العقوبةَ فى العاجل والآجل .

ثم إنَّ القاضىَ كتب ما قيل لدمنة ، وما ردَّ عليهم ، وأرسل به إلى السجن . وانطلق عظيم الجند إلى الملك ، وتفرّق سائرهم . وحُبِس دمنة بعد ذلك سبع ليال يتكلم بعذره . فلم يقدروا أن يقرّروه بشئ من ذنبه ، ولا يَخصِموه فيه .

ثم إنَّ أمّ الأسد قالت له : لئن أنت خلّيت سبيل دمنة - بعد الذى ارتكب من الذنب المظيم - ليجترِئنّ عليك جندُك ، ولا يتخوفُ منهم أحد - فى فظيع يرتكبه - عقوبتَك ، ولينتشِرَنّ أمرُك بما لا تطيق لَمّ شَعَثِه ، ولا شَعْب صَدعِه ، ولا رَتْق فَتقِه . وأحضرَت النمِرَ فشهد على دمنة بما سمع منه ، ومراجعةِ كليلة إياه .

ولما شهد النمِر بذلك ، أرسل السبع المسجون - الذى سمع قول كليلة لدمنة ليلة دخل عليه فى السجن - أن عندى شهادة فأخرجونى لها . فبعث إليه الأسد ، فشهد على دمنة بما سمع من قول كليلة وتوبيخه إياه بدخوله بين الأسد والثور بالكذب والنميمة حتى قتله الأسد ، وإقرارِ دمنة بذلك[١٩] . فلما كرّرت أمّ الأسد ذلك عليه وكلّمته فيه ووقع فى نفسه أنّ دمنة حمله على زَيغ وأوطأه عَشوة ، أمر به فقُتِل شرّ قِتلة .

ثم قال الفيلسوف للملك : فلينظر أهل التفكّر فى الأمور فى هذا وأشباهه ، وليعلموا أنه مَن يلتمس منفعةَ نفسِه بهلاك غيره - ظالماً له بخديعة أو مكر أو خِلابة - فإنه غيرُ ناج من وَبال ذلك عليه وعاقبته ومغبّته ، وأنه مكافأٌ به ومَجزِىٌّ بما عمل عاجلًا وآجلًا ، وصائرٌ إلى البوار على كل حال .



بابُ الحمامة المطوّقة

قال الملك للفيلسوف : قد فهمتُ مَثَل المتحابَّين يقطع بينهما الكذوب الخائن النمام ، وما يصير إليه أمرُه ؛ فأخبِرْنى عن إخوان الصَّفاء كيف يبدأ تواصُلُهم ، ويستمتِع بعضهم ببعض .

قال الفيلسوف : إنّ العاقل لا يَعدِل بصالح الأعوان شيئاً من العُقَد والمكاسب ؛ لأنّ الإخوان هم الأعوان على الخير كلّه ، والمواسون عند ما ينوب من مكروه . ومن أمثال ذلك مَثَل الحمامة المطوّقة والظبي والغراب والجُرَذ والسُّلَحفاة . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنه كان بأرض دستاد ، عند مدينة يقال لها ماروات[1] ، مكان للصيد يتصيّد فيه الصيّادون . وكان فى ذلك المكان شجرة عظيمة كثيرة الغصون

ملتفّة الورق ، وكان فيها وَكرُ غُراب يقال له حائرٌ[٢]. فبينما الغراب ذات يوم واقف على الشجرة إذ بَصُر برجل من الصيّادين قبيح المنظَر سيّئ الحال ، وعلى عُنُقه شبكة ، وفى يده شَرَكٌ وعصا ، وهو مُقبِل نحو الشجرة . فذُعِر الغراب منه وقال : لقد ساق هذا الصيادَ إلى ههنا أمرٌ ، فما أدرى ما هو ! أَلِحَيْنى أم لِحَيْن غيرى ؟ ولكنى ثابتٌ على كل حال ، وناظرٌ ما يصنع . فنصب الصيّاد شبكته ونثر فيها حَبّه وكَمَن قريباً ؛ فلم يلبث إلّا قليلا حتى مرّت به حمامة يقال لها المطوّقة - وكانت سيّدة الحمام - ومعها حمام كثير . فرأت الحبّ ولم تر الشبكة ، فانقضّت وانقضّ الحمام معها ، فوقعن فى الشبكة جميعاً . وجعلت كل حمامة منهنّ تضطرب على ناحيتها وتعالج الخلاص لنفسها . فقالت المطوّقة : لا تخاذَلن فى المُعالجة ، ولا تكنْ نفسُ كل واحدة منكنّ أهمَّ إليها من نفس صاحبتها ؛ ولكن تعاونّ فلعلّنا نَقلع الشبكة فيُنجىَ بعضنا بعضاً . ففعلنَ ذلك فانتزعنَ الشبكة حين تعاوَنّ عليها ، وطِرْن بها فى عُلوّ السماء . ورأى الصياد صنيعهنّ فأتبعهنّ يطلبهنّ ، ولم يَقطع رجاءه منهنّ ، وظنّ أنهنّ لا يطِرْن إلّا قريباً حتى يقعْن . وقال الغراب : لأتبعهنّ حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرُهنّ وأمرُه . والتفتت المطوّقة فلما رأت الصياد يقفوهنّ قالت للحمام : ها هو ذا جاء يطلبكنّ ؛ فإن نحن أخذنا فى الفضاء

لم يَخفَ عليه أمرنا ، ولم يزل يُتبعنا ، وإن نحن أخذنا فى الشجر والعُمران لم نلبث أن يَعيَى عليه أمرُنا ، ولم يزَل يُتبِعنا حتى ييأس منا فينصرف ؛ ومع ذلك إنّ قريباً من الطريق جُحْر جُرَذ ، وهو صديق لى ، فلو انتهينا إليه لقطع عنّا هذه الشبَكة وخلّصنا منها . ففعل الحمام ما أمرتهنّ به المطوّقة ، وخَفِين على الصياد فأيس منهنّ وانصرف . وثبت الغراب على حاله لينظر هل للحمام من حيلة للخروج مما هنّ فيه فيتعلّمَها وتكونَ عُدّة لنفسه إن وقع فى مثلها . فلمّا انتهت المطوّقة إلى مكان الجرذ أمرت الحمام بالنزول فوقَعْن ، ووجدت الجرذ قد أعَدّ مائة جُحر للمخاوف ، فنادته المطوّقة باسمه – وكان اسمُه زيرَك – فأجابها مِن الجحر وقال : مَن أنت ؟ فقالت له : خليلتك المطوّقة . فخرج إليها مُسرعاً ، فلما رآها فى الشبكة قال لها : يا أختى ما أوقعك فى هذه الورطة وأنت من الأكياس ! قالت له : أما تعلم أنه ليس من الخير والشرّ شئ إلّا وهو محتوم على من يصيبه ، بأيّامه وعِلَله ومُدّته وكُنْه ما يُبتلَى به من قِلّته وكَثرته ؟ فالمقادير هى التى أوقعَتنى فى هذه الورطة ، ودلّتنى على الحبّ ، وأخفَت علىّ الشبكة حتى تَلجلجتُ فيها وصُوَيحباتى . وليس أمرى وقلّة امتناعى من القدَر بعجَب ؛ لأنّ المقادير لا يدفعها مَن هو أقوى منّى . أما تعلم أنّ بالقَدَر تُكسف الشمس والقمر ، وتصاد السمكة فى البحر الذى لا يسبح فيه

أحد ، ويُستَنزل الطير من الهواء ، إذا قُضِي ذلك عليهم . والسبب الذى يُدرِك به العاجزُ حاجتَه هو الذى يَحول بين الحازم وحاجته . ثم إنّ الجُرَذ أخذ فى تقريض العُقَد التى كانت فيها المطوّقة ، فقالت له : ابدأ بتقريض عُقَد سائر الحمام قَبْلى وانصرِف إلىّ . فأعادت ذلك عليه مراراً - كلُّ ذلك لا يلتفت إلى قولها - فلما ألحّت عليه قال لها : قد كرّرتِ علىّ هذه المقالة كأنّك ليس لك فى نفسك حاجة ، ولا تَرَين لها عليكِ حقّا . فقالت له المطوّقة : لا تَلُمنى على ما سألتُك ؛ فإنى قد كُلفت لجماعتهنّ بالرياسة ، فحقُّ ذلك علىّ عظيم . وقد أدّين إلىّ حقّى فى الطاعة والنصيحة ، بمعونتهنّ وطاعتهنّ ، وبذلك نجّانا الله من الصيّاد . وإنى تخوّفت - إن أنت بدأت بقطع عُقدتى - أن تَملّ وتَكِلّ ويبقى بعضُ مَن معى . وعرَفت أنك إن بدأت بهنّ وكنتُ أنا الأخيرة لم تَرْض - وإن أدركك الكَلال والفتور - حتى تُخلِّصنى مما أنا فيه . فقال لها الجرَذ : وهذا أيضاً مما يزيد أهل مودّتك فيك رغبة ، وعليك حِرصاً . وأخذ فى قَرض الشبكة حتى فرغ منها ، وانطلقت المطوّقة والحمام راجعات إلى أماكنهنّ .

فلما رأى الغراب صُنع الجُرَذ وتخليصَه الحمام ، رغب فى مصادقته وقال : ما أنا بآمِنٍ أن يُصيبنى ما أصابهنّ ، ولا أنا عن مودّة الجرذ بغَنِيّ .

فدنا من جُحره وناداه باسمه . فقال له : مَن أنت ؟ فقال : أنا الغراب ؛ كان من أمرى كَيتَ وكَيتَ ، فلما رأيتُ وفاءك لأصدقائك ، رغِبتُ فى إخائك وجئت أطلب ذلك منك . فقال الجرذ : ليس بينى وبينك سبيلُ تَواصُل . وإنما ينبغى للعاقل أن يلتمس من الأمور ما يرجو دَرَكه ، ويترك طلب ما لا يقدر عليه ، لئلا يُعَدّ جاهلًا ، كرجُل أراد أن يُجرىَ السفُن فى البرّ ، ويجُرّ العَجَل على الماء ، وليس إلى ذلك سبيل . وكيف يكون بيننا سبيلُ تَواصُل ! وإنما أنا لحم وأنت آكِلُ لحم فأنا لك طُعم ! قال الغراب : اعتَبِر بعقلك ؛ إنّ أكلى إياك - وإن كنتَ طعاماً لى - لا يُغنِى عنى شيئاً . وإنّ فى بقائك ومودّتك أُنساً لى . واعتبِر بما جرّبتَ طول الدهر ؛ هل تجِد مَن يبيع منفعته بمضرّته ، على عِلم منه بذلك ؟ وإنى لم أرغَب فيك - إذ رغبتُ - إلّا لنفسى والمنفعةِ لها ؛ فإنّ بقاءك لى فيه منفعةٌ من نائبة أو نازلة تنزل بى . وأنت حقيقٌ - إذ رَغِبتُ فيك - ألّا تُبعِدنى من نفسك ، ولا تنازِعك النفس إلى سوء الظنّ مع ما أُسوّغك من نفسى ، وأُوَثّق لك من عهدى . وقد ظهر منك جميل الخُلُق ، وذو الفضل لا يخفَى فضله - وإن هو أخفاه وكتمه بجهده - كالمسك الذى يُخفَى ويُكتَم ، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح . فلا تُغيِّرنّ علىّ ودّك ، ولا تمنعنى خُلّتك . فقال الجرذ : إنّ أشدّ العداوة عداوةُ

الجوهر ، وهى ضربان : منهما عداوة من يجتريان على ذلك كعداوة الأسد والفيل ؛ فإنه ربما قتل الأسدُ الفيل ، وربما قتل الفيلُ الأسد . والأخرى إنما ضررها من أحد الجانبين على الآخر ، كعداوة ما بينى وبين السِنَّور ، وبينى وبينك ؛ وليست لضرّ منّى عليكم ، ولكن للشقاء الذى كَتب الله علىّ منكم . وليس من عداوة الجوهر صُلح إلّا ريثما يعود إلى العداوة ؛ وليس صُلح العدوّ بموثوق به ، ولا مركون إليه ؛ فإنّ الماء إن هو أُسخِن بالنار وأُطيل إسخانه ، لم يمنعه ذلك من إطفاء النار إذا صُبّ عليها ، ولا تمنعُه سخونته من الرجوع إلى أصل جوهره . وليس ينبغى للعاقل أن يغترّ بصلح العدوّ ومصاحبته ؛ فإنه يكون كصاحب الحيّـة الذى وجدها وقد أصابها البَرد فأخفاها فى كُمّه ، فلما دَفِئَ النهار عليهـا ووجدت سخونة الثياب ، تحرّكت فنهشته . فقال لها : أهذى مكافأتى على جميل فعلى بك وصنيعى إليك ؟ فقالت له : هذا لى دَأْب وعادة وخُلُق وطِباع . وأحمق الناس المُريد لإزالة شئ عن أصله وطِباعه إلى غير أسّه وجوهره . ولا يستأنس العاقل إلى عدوّه الأريب ، بل ما يستوحش منه أكثر . قال الغراب : قد فهمت ما تقول . وأنت حقيق أن تأخذ بفضل خليقتك ، وتعرف صدق مقالى ، ولا تُصَعّب الأمور علىّ بقولك : ليس لنا إلى التواصل سبيل ؛ فإنّ العقلاء الكرماء يبتغون إلى كل معروف ووُصلة سبيلًا .

والمودّة بين الصالحين سريعٌ اتصالها ، بطيء انقطاعها ؛ ومَثَل ذلك مَثَل كوز الذهب الذى هو بطيء الانكسار ، سريع الإعادة والصلاح إن أصابه ثَلْم أو وَهَن . والمودّة بين الأشرار سريعٌ انقطاعها ، بطيء اتصالها ؛ كالإناء من الفخّار مكسِّره أدنى شئ ثم لا وَصل له أبداً . والكريم يودّ الكريم على لَقية واحدة ومعرفة يوم فقط ؛ واللئيم لا يصل أحداً إلّا عن رغبة أو رهبة . وأنت كريم ، وأنا إلى وُدِّك محتاج ؛ وأنا لازمٌ بابك وغيرُ ذائقٍ طعاماً ولا شراباً حتى تؤاخيَنى . فقال له الجرذ : قد قبلتُ إخاءك ، فإنى لم أرُدَّ أحداً عن حاجة قطّ وإنما ابتدأتُك بما سمعتَ ، إرادةَ الإعذار إلى نفسى ؛ فإن أنت غدرت بى لم تقُل : وجدت الجرذ ضعيفَ الرأى سريعَ الانخداع . ثم خرج إليه من جُحره فأقام عند بابه . فقال له الغراب : ما يَحبِسك ويمنعك من الخروج إلىّ والأُنس بى ؟ أوَ فى نفسك رِيبةٌ منّى بعد ؟ فقال الجرذ : إنّ الإخوان أهلَ الدنيا يتعاطَون بينهم أمرين ويتواصلون عليهما : ذاتُ النفس وذاتُ اليد . فأما المتعاطُون ذاتَ النفس فهم المتعاونون المتصافون ، يستمتع بعضهم ببعض . وأما المتعاطون ذات اليد فهم المتعاونون المستمتعون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض . ومَن كان إنما يصنع المعروف ابتغاء الأجر والاكتساب لبعض شئون الدنيا فإنما مَثَله - فيما يُعطِى ويَبذل - مَثَل الصيّاد وإلقائه الحبّ للطير ،

لا يريد بذلك منفعتهنّ ، بل يريد بذلك نفع نفسه . فتبادُلُ ذاتِ النفس أفضلُ من تبادل ذات اليـد . وإنى قد وثقتُ بذات نفسك ومنحتُك مثلَ ذلك من نفسى . وليس يمنعنى من الخروج إليك سوءِ ظنٍّ منّى بك ؛ ولكن قد عرفت أنّ لك أصحاباً جوهرُهم كجوهرك ، وليس رأيهم فىّ كرأيك ؛ وأنا أخاف أن يرانى بعضُهم فيُهلكنى . قال الغراب : إنّ مِن علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً ، ولعدوّ صديقه عدوّاً ، وليس لى بصاحب ولا أخ مَن لم يكن لك مُحِبّاً ولا فيك راغباً . وقد تهون علىّ قطيعةُ مَن كان عدوّاً لك ؛ فإنّ صاحب الجِنان إذا نبت فى جِنانه ما يُفسدها ويضرّها اقتلعه وقذف به .

ثم إنّ الجرذ خرج إلى الغراب فتصافحا وتصافيا وتصادقا وأنِس كل واحد منهما إلى صاحبه حتى أتت عليهما أيّام . فقال له الغراب : إنّ جُحرك قريب من طريق الناس ، وأنا أخشى أنْ يرمونى فأعطَب ، وقد عرفتُ مكاناً ذا عُزلة وخِصب من السمك والماء ، ولى فيه صديق من السلاحف ، وأنا أُريد أن أنطلق إليه وأعيشَ معه آمناً مطمئناً . فقال الجرذ : وأنا أذهب معك ، فإنى لمكانى هذا كارِه . فقال الغراب : وما يُكرّهه إليك ؟ فقال الجرذ : إنّ لى أخباراً وقصصاً سأُسِرّها إليك لو قد انتهينا إلى حيث تريد . فأخذ الغراب بذنَب الجرذ فطار به حتى دنا من العين التى فيها السلحفاة . فلما رأت الغرابَ ومعه

جرذ ذُعرت منه ولم تعلم أنه صاحبها ، فغاصت فى الماء . فوضع الغراب الجرذ على الأرض ووقع على شجرة قُربها ونادى السلحفاة باسمها . فعرفت صوته فخرجت إليه ورحّبت به وسألته مِن أين أقبل . فأخبرها بسببه حين تبع الحمام ، وحضورِه أمرَهنّ ، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها . فعجبت السلحفاة من عقل الجرذ ووفائه ، ودنت منه ورحّبت به ، وقالت له : ما ساقك إلى هذه الأرض ؟ فقال الجرذ : رغبتُ فى صحبتكم والإقامة معكم .

ثم إنّ الغراب قال للجرذ : أرأيتَ الأخبار والقِصص التى زعمت أنك مُسِرّها إلىّ ؛ حدِّث بها الآن واقصُصها علىّ ، فإنّ السلحفاة منك بمنزلتى . فقال الجرذ :

كان أولُ منزلى فى مدينة يقال لها ماروت ، فى بيت رجل من النُّسّاك لم يكن له عيال . وكان يؤتى كل ليلة بسلّة من طعام ، فيتعشّى منه ثم يضعُ فيها بقيّته ويُعلّقها ؛ فأرصُده حتى يخرج ، ثم آتى إليها فلا أدَع فيها شيئاً إلّا أكلتُه ورميتُ به إلى الجرذان . فجهِد الناسك مراراً على أن يجعلها فى مكان لا أناله ، فلم يقدر على ذلك . ثم إنّ الناسك نزل به ضيفٌ ذاتَ ليلة فأكلا جميعاً ، حتى إذا كانا عند الحديث قال الناسك للضيف : من أى أرضٍ أنت ؟ وأين وَجهك الآن ؟ وكان الضيف رجلًا قد جال الآفاق ورأى الأعاجيب ، فأنشأ يحدِّثه عما وطئ من البُلدان ورأى من الأمور . فجعل الناسك يصفّق

يديه أحياناً ليُنفِّرني عن السَّلّة . فغضب الضيف من ذلك وقال : أنا أحدِّثك وتهزأ بي وتصفق بيديك ! فما حملك على أن تسألني وأنت تفعل هذا ؟ فاعتذر إليه وقال : إني لم أرتب بحديثك – وقد لذّ لي – ولكن كنتُ أفعل الذي رأيتَ لأنفِّر جُرَذاً في البيت لستُ أضع فيه طعاماً إلّا أكله ! وقد شقّ عليّ ذلك . فقال له الضيف : أجرَذ واحد هو أم جُرْذان كثيرة ؟ فقال الناسك : جرذان البيتِ كثيرة ، وفيها واحد هو الذي قد آذاني وبرّح بي ، ولا أستطيع له حيلة . فقال له الضيف : ما هذا إلّا لشئ ، وإنه ليُذكِّرني قولَ الرجل الذي قال : لأمرٍ ما باعت هذه المرأة السمسم المقشور بغير المقشور . قال الناسك : وكيف كان ذلك ؟ فقال الضيف :

نزلتُ مرّة برجل بمدينة كذا وكذا فتعشينا جميعاً ثم فرش لي وانصرف إلى مضجعه مع صاحبته – وكان بيني وبينهما خُصّ من قَصَب – فسمعت الرجل يقول لامرأته : إني أُريد أن أدعوَ غداً رَهْطاً يأكلون عندي . فقالت : وكيف تفعل ذلك وليس لك في بيتك فضل عن عيالك ، وأنت رجل لا تُبقِي شيئاً ولا تدّخره ؟ فقال لها : لا تندَمي على شئ أطعمناه وأنفقناه ؛ فإنّ الجمع والادّخار ربما كان عاقبةُ صاحبهما كعاقبة الذئب . قالت المرأة : وكيف كان ذلك ؟ قال الزوج :

خرج رجل من القُنّاص غادياً بفرسه ونُشّابه يلتمس الصيد . فلم يُجاوِز

بعيداً حتى رمى ظبياً فأصابه، وحمله ورجع منصرفاً يريد منزله . فعرض له فى طريقه خنزير فحمل عليه، فوضع الرجلُ الظبي وأخذ القوس ورماه بالسهم فأنفذه، وأدركه الخنزير فضربه بنابه ضربة أطارت القوس والنشّاب من يده، فوقعا جميعاً ميّتين . فأتى عليهما ذئب، فلما رآهما وثق بالخِصب فى نفسه وقال : ينبغى أن أدّخر ما استطعت؛ فإنه مَن فرّط فى الجمع والادّخار فليس بحازم . وأنا جاعلٌ ما وجدتُ كنزاً، ومكتفٍ يومى هذا بوتَر القوس . فدنا منه ليأكله؛ فلما قَطع الوتر طارت القوس فأصابت سِيَتُها مقتلًا من جوفه فمات .

وإنما ضربتُ لكِ هذا المثل لتعلمى أنّ الحرص على الجمع والادّخار وخيمُ العاقبة . فقالت له المرأة : نِعِمّا قلتَ؛ وعندى من الأُرز والسمسم ما فيه طعام لستّة رَهْط أو سبعة . وأنا غاديةٌ على صنيعه، فادعُ مَن أحببت غداً . وأخذت - حين أصبحت - فى قَشر السمسم فبسطته فى الشمس ليجفّ، وقالت لزوجها : اطرُد عنه الطير والكلاب؛ وأسرعَت لصنيعها . فغفل الرجل عنه وذهب لبعض شأنه . وذهب كلبٌ لهم إليه فأكل منه . فبصُرت به المرأة فقذَرته وكرهت أن تصنع منه طعاماً . فانطلقت إلى السوق به وأخذَت به سمسماً غير مقشور مِثلًا بمِثل، وأنا أبصِر ذلك؛ فسمعتُ رجلًا يقول : لأمرٍ ما أعطت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشور . وكذلك قولى فى هذا الجرذ

الذى ذكرتَ أنه يثب فى السَّلة حيث تضعها ، دون أصحابه ، إنه من عِلة قوىَ على ماذكرتَ منه . فالتمِسْ لى فأساً لعلّى أحفِر جُحره وأطّلع على بعض شأنه . فأتاه الناسك بفأس - وأنا حينئذ فى جُحر غيرى أسمعُ كلامَهما - وكان فى جُحرى ألفُ دينار لم أدرِ مَن كان وضعها فيه ، فكنت أفترشها وأفرح بها وأعِزّ بمكانها وأتقلّب عليها . وإنّ الضيف احتفر الجحر حتى انتهى إليها فاستخرَجها وقال : ما كان يقوى هذا الجرذ على الوثوب حيث كان إلّا بمكان هذه الدنانير ؛ فإنّ المال جُعِل زيادة فى القوّة والرأى . وسترى أنه بعد اليوم لا يقوى ولا يستطيع ما كان يصنع ، ولا يكون له فضل على سائر الجرذان . فعرفت أنه قد صدق ، وأحسست فى نفسى ضُعفاً ونُقصاناً وانكساراً حين أُخرِجت الدنانير من جُحرى ، وانتقلت إلى جُحرٍ آخر . فلما كان من الغد اجتمع الجرذان اللاتى كنّ يُطِفن بى ، فقُلن : قد أصابنا جوع ، وفقَدنا ما كنتَ عوّدتنا - وأنت رجاؤنا - فانظرَنّ فى أمرنا . فانطلقتُ إلى المكان الذى كنت أثِب منه إلى السَّلة ، فأردت الوثوب مِراراً ، كل ذلك لا أقدر عليه . فاستبان لى أنّ حالى قد تغيّرتْ ، وزهِدَ فىّ الجرذان ، وسمعتُ بعضهنّ يقولُ لبعض : قد هلك هذا آخرَ الدهر ، فانصرِفن عنه ، ولا تطمَعن فيما عنده ؛ فإنّا لا نراه يقوى على ما كان يفعل ، بل نحسَبه سيحتاج إلى من يَعوله . فتركْنَنى ولَحِقن بأعدائى ومن كان

يحسدنى ، فأخذن فى انتقاصى عندهم ، وجعلن لا يُقرِّبنى ولا يلتفت إلىّ . فقلت فى نفسى : ما أرى التبع والإخوان والأهل إلّا مع المال ، ولا تظهر المروءةُ والرأى والمودّة إلّا به ؛ فإنى وجدت مَن لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً ، قعد به عنه العُدْم ، كالماء الذى يبقى فى الأودية عن مطر الصيف ، فلا هو إلى بحر ولا إلى نهر ، فيبقى فى مكانه لأنه لا مادّة له . ووجدتُ من لا إخوان له فلا أهل له ، ومن لا وَلَد له فلا ذِكر له ، ومن لا عقل له فلا دُنيا له ولا آخرة ، ومن لا مال له فلا عقل له ؛ لأنّ الرجل إذا أصابه الضُرّ والحاجة رفضه إخوانُه ، وقطع ذوو قرابتــه وُدّه ، وهان عليهم ، واضطرته المعيشة وما يعالج منهـا لنفسه وعياله إلى التماس الرزق فيما يُغرِّر فيه بنفسه ودينـه وهلاك آخرته ؛ فإذا هو قد خسر الدنيا والآخرة . فلا شئَ أشدُّ من الفقر ؛ فإنّ الشجرة النابتة فى السباخ المأكولة من كل جانب أمثل حالًا من الفقير الذى يحتاج إلى ما فى أيدى النـاس . فالفقر رأس كل بلاء ، وداعيةُ المَقت إلى صاحبه ، وهو مَسلَبَة للعقل والمُروءة ، ومَذهبة للعلم والأدب ، ومعدنٌ للتهمة ، ومجمعة للبلايا . ومَن نزل به الفقر لم يجد بدًّا من ترك الحياء وتضييعه ، ومَن ذهب الحياء منه ذهب سَروُه ومُروءته ، ومن ذهبت مُروءته مُقِت ، ومن مُقِت أوذى ، ومن أوذى حزِن ، ومن حزن فقَد عقله واستنكر فهمه

وحفظه . ومن أُصيب فى ذلك كان أكثرُ قوله عليه لا له . . ووجدت الرجل إذا افتقر اتّهمه من كان له مؤتمِنا ، وأساء به الظنّ من كان يظنّ به حسَنا ؛ فإن أذنب غيرُه كان للتهمة مَوضِعاً . وليس من خَلّة هى للغنىّ مَدح إلّا وهى للفقير ذمّ ؛ فإن كان جواداً سُمّى مُفسداً ، وإن كان حليما سُمّى ضعيفاً ، وإن كان وَقوراً سُمّى بليداً ، وإن كان لَسِناً سُمّى مهذاراً ، وإن كان صَموتاً سُمّى عَيِيّا . فالموت أهوَن من الفاقة التى تَضطرّ صاحبها إلى المسألة ، وتضع المرء بمواضع الهوان ، وتدنيه بعد ارتفاعه ، وتقصيه بعد تقرّبه ، وتُبعده بعد توسّطه ، وتُزرى به وتَمقُته بعد المحبة ؛ ولا سيّما مسألةُ الأشِحّاء الأدنياء اللؤماء ؛ فإنّ الكريم لو كُلّف أن يُدخل يده فى فم التّنّين فيستخرجَ منه سُمّا فيبتلعه كان أخفّ عليه من الطلب إلى اللئيم . وقد قيل من ابتُلىَ بمرض فى جسده لا يفارقه ، أو بفراق الأحبّة والإخوان ، أو بالغُربة حيث لا يَعرف مبيتاً ولا مقيلا ولا يرجو إياباً ، أو بفاقة تضطره إلى المسألة ، فالحياة له موت ، والموت له راحة . وربما كره الرجل المسألة وبه حاجة تحمله ذلك على السرقة والغصب ، وهما شرٌّ من التى زاغ عنها ؛ فإنه قد كان يقال : الخرَسُ خيرٌ من اللسَن المطعَّم بالكذب ، والعِنّينُ خير من العاهر ، والفاقةُ والفقرُ خير من النعمة والسَّعة من أموال الناس . والاجتهادُ فى الكفاف خير من الإسراف والتبذير فيما لا يحلّ .

وقد كنت رأيت الضيف حين أخرج الدنانير من الجحر قاسمها الناسك ، ثم وضع نصيبه منها فى خريطة عند رأسه . فطمعت أن أصيب منها شيئاً أردّ به بعض قوّتى ويراجعنى به أصدقائى . فانطلقت وهو نائم حتى كَثَبت منه . فاستيقظ لحركتى ، وإلى جانبه قضيب ، فضربنى به على رأسى ضربة فأوجعنى فسعيت إلى جحرى حتى دخلته . فلما سكن عنّى ما كان بى من الوجع نازعنى الحِرص والشَرَه ، وغلبانى على عقلى فدبيت بمثل طمعى الأول ، حتى دنوت منه وهو يرصُدنى . فعاد لى بضربة أخرى على رأسى سالت منها الدماء ، وانقلبت ظهراً لبطن ، وانجررت حتى دخلت جُحرى مَغشيًّا علىّ لا أعقِل ولا أدرى . وأصابنى من الوجع والفزع ما بَغَّض إلىّ المال حتى إنى لأسمع بذكره فيُداخِلُنى منه رُعب وذُعر . ثم ذكرتُ فوجدت البلايا فى الدنيا إنما يسوقها إلى صاحبها الحرص والشره فلا يزال صاحبها يتقلّب فى تعب منها ، ورأيت بين السخاء والشُحّ تفاوتاً بعيداً ، ووجدت ركوب الأهوال الشديدة وتجشّم الأسفار البعيدة فى طلب الدنيا أهونَ على المرء من بسط يده بالمسألة ، ووجدت الرضا والقُنوع هما جميع الغنى ؛ وسمعت العلماء يقولون : لا عقل كالتدبير ، ولا وَرَع كالكفّ ، ولا حَسَب كحُسن الخُلُق ، ولا غِنَى كالقناعة . وأحقّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل . وكان يقال : أفضلُ البرّ الرحمة ،

ورأسُ المودّة الاسترسال ، وأنفعُ العقل المعرفةُ بما يكون وما لا يكون ، وطِيبُ النفس وحُسنُ الانصراف عما لا سبيل إليــه . فصار أمرى إلى أن رَضِيتُ ورضيت . وانتقلت من بيت الناسك إلى البرّيّة .

وكان لى صديق من الحمام فساقت إلىّ بصداقتها صداقةَ هذا الغراب ، فذكر لى الغرابُ ما بينكِ وبينه وأخبرنى أنه يريد أن يأتيك ، فأحببت أن أراكِ معه ، وكرهت الوَحدة ؛ فإنه ليس من سرور الدنيا شئ يَعدِل صُحبة الإخوان ، ولا فيها غَمّ يَعدِل فقدهم . وقد جرّبت وعرفت أنه لا ينبغى لأحد أن يلتمس من الدنيا طلَباً فوق الكَفاف الذى يدفع به الحاجة والأذى عن نفسه ، وذلك يسيرٌ إذا أُعين بسعة يد وسخاء نفس . فأما ما سوى ذلك ففى مواضعه ليس له منه إلّا ما لغيره من حظّ العين . ولو أنّ رجلاً وُهِبت له الدنيا بما فيها لم ينتفع من ذلك إلّا بالقليل الذى يكُفّ به الأذى عن نفسه ، فأما ما سواه ففى مواضعه لا يناله . فأقبلتُ مع الغراب على هذا الرأى ، وأنا أخٌ لكِ فلتكن كذلك منزلتى عندك .

فلما فرغ الجرذ من مقالته أجابته السلحفاة بكلام لطيف رقيق فقالت له : قد سمعت مقالتك فأحسِن بها مقالةً وأكرِم بها ؛ غير أنى رأيتك تذكر بقايا أمورٍ فى نفسك منها ومن اغترابك شئ ، فتناسَ ذلك ولا يكوننّ من رأيك ، واطرحْنه عنك ، واعلم أنّ حُسن القول لا يكون إلّا بالعمل ؛ فإنّ المريض

الذى قد علم دواءه ، إذا هو لم يتعالج به لم ينتفع بما سوى ذلك ، ولم يجد له راحة ولا شفاء . فاستعمل علمك ، ولا تحزَن لقلّة مالك ؛ فإنّ الرجل ذا المُروءة قد يُكرَم على غير مال ، كالأسد الذى يُهاب وإن كان رابضاً ؛ والغَنِيّ الذى لا مُروءة له يُهان وإن كثر ماله ، كالكلب الذى يُهان وإن طُوِّق وخُلخِل . ولا تُكبِرَنّ فى نفسك اغترابك ؛ فإنّ العاقل لا غُربة عليه ولا وحشة ، ولا يتغرّب إلّا ومعه ما يكتفى به من علمه ومُروءته ، كالأسد الذى لا يتقلّب إلّا ومعه قُوّته التى بها يعيش حيثما توجّه . ولتُحسِن تَمهّدك لنفسك فيما تكون به للخير أهلا ؛ فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك ، كما يَلتمِس الماء المتطامنَ من الأرض ، وكما يطلب طيرُ الماء الماء . وإنما جُعِل الفضل للبصير الحازم المتفقّد ، فأما الكسلان المتردّد المدافع المتواكل فإنّ الفضل قلّما يصحبه ، كما لا تطيب المرأة الشابّة نفساً بصحبة الشيخ الهرِم . ولا يحزُنك أن تقول : كنتُ ذا مال فأصبحتُ مُعدِماً ؛ فإنّ المال وسائر متاع الدنيا سريعٌ إقبالُه إذا أقبل ، وشيكٌ إدبارُه إذا أدبر ؛ كالكُرة ، فإنّ ارتفاعها وإقبالها وإدبارها ووقوعها سريع . وقد قالت العلماء فى أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظلّ الغمام ، وصحبة الأشرار ، وعشق النساء ، والثناء الكاذب ، والمال الكثير . فإنه ليس يفرح عاقل بكثرة ماله ، ولا يحزن لقلّته ؛ ولكن الذى ينبغى أن يفرَح به ،

عقلُه وما قدّم من صالح عمله ؛ لأنه واثقٌ أنه لا يُسلَب ما عمله ، ولا يؤاخذ بغيره . وهو حقيقٌ ألّا يَغفُل عن أمر آخرته ، والتزوّد لها ؛ فإنّ الموت لا يأتى إلّا بغتة ، وليس بينــه وبين أحد وقت معلوم . وأنت غنيّ عن موعظتى ؛ وبما ينفعك بصير ؛ ولكن قد رأيتُ أن أقضىَ من حقّك الذى يجب ، وأنت أخونا فما قِبَلنا لك مبذول .

فلما سمع الغراب ذلك من قول السلحفاة وردّها على الجرذ وإلطافِها إيّاه وحسنِ مقالتها ، سرّه ذلك وأفرحه وقال : لقد سررتِني وأنعمتِ علىّ ، ولطالما فعلتِ . وأنت جديرة أن تفرح نفسك مما لهجت لك به ؛ فإنّ أولَى أهل الدنيا بطيب العيش وكثرة السرور وحُسن الثناء ، من لا يزال رَحله موطوءا من إخوانه وأصدقائه ، وتعاهُدِهم ؛ فإنّ الكريم إذا عثَر لم يستقِل إلّا بالكرام ؛ كالفيل إذا وحِل لم يستخرجه إلّا الفِيَلة . ولا يرى العاقلُ معروفاً يصطنعه ، كثيراً وإن كثر . وإن خاطر بنفسه وغرّر بها فى بعض وجوه المعروف ، لم ير ذلك عيباً ! بل يعلم أنه إنما باع الفانى بالباقى ، واشترى العظيم بالصغير . وأغبطُ الناس أكثرُهم مُستجيراً وسائلاً مُنجِحاً . ولا يُعَدّ غنيّاً مَن لا يشارَك فى ماله ، ولا عاش من كان عيشه من فضله مُوئِساً . ولا يعد الغُرْم غُرماً إذا ساق غُنماً ، ولا الغُنْم غُنماً إذا ساق غُرماً .

فبينما الغراب فى كلامه إذ أقبل ظَبيٌ نحوهم يسعى. ففزِعوا منه، ودخل الجرذ جُحراً، وطار الغراب فوقع على الشجرة، وغاصت السلحفاة فى الماء. وانتهى الظبى إلى الماء فشرب قليلًا ثم قام مذعوراً. فحلّق الغُراب فى جوّ السماء لينظر هل يرى للظبى طالباً. فلمّا لم يرَ شيئاً نادى الجُرذَ والسلحفاة ليخرجا وقال لهما: لست أرى ههنا شيئاً تخافانه. فخرجا واجتمعوا فقالت السلحفاة للظبى، حين رأته ينظر إلى الماء ولا يقربه: اشرب إن كان بك عطَش ولا تخف! فلا بأس عليك. فدنا الظبى منها وحيّاها. فقالت: مِن أين أقبلت؟ فقال: كنت أكون فى هذه البرّية، فلم يزل الأساوِرة يطردوننى من مكان إلى مكان. ورأيت اليوم شَبَحاً فأشفقتُ أن يكون قانصاً فأقبلتُ ههُنا مذعوراً. فقالت السلحفاة: لا تخف؛ فإنا لم نر القُنّاص فيما ههنا قطّ. فكن معنا ونحن نبذل لك وُدّنا، والمرعى قريب منّا. فرغب فى صحبتهم وأقام معهم.

وكان لهنّ عريش من الشجر فكُنّ يأتينه كل يوم يجتمعن فيه ويلهُون ويتحدّثن ويتذاكرن الأمور. ثم إنّ الغراب والسلحفاة والجرذ اجتمعن يوماً فى العريش، وغاب الظبى عنهنّ فتوقّعنه. فلما أبطأ عليهنّ أشفقن أن يكون أصابته آفة. فقالت السلحفاة والجرذ للغراب: انظر هل تراه فى شئ مما يَلينا. فحلّق الغراب فى الهواء فإذا هو بالظبى فى حبائل القنّاص. فانقضّ مسرعاً حتى

أخبرهنّ . فقال الغراب والسلحفاة للجرذ : هذا أمر لا نرجو فيه غيرك ؛ فأغِث أخانا وأخاك . فخرج يسعى فانتهى إليه فقال له : كيف وقعتَ فى هذه الورطة وأنت من الأكياس ؟ فقال : وهل يُغنى الكَيْس مع القدر المغيّب الذى لا يُرى فيُتَوَقَّى ! فبينما هما فى تحاورهما إذ وافت السلحفاة . فقال لها الظبي : ما أصبتِ بمجيئك إلينا ههنا ؛ فإنّ القانص إن هو انتهى إلينا ، وقد فرغ الجرذ من قطع حبالى ، سبقته حُضْراً ، وللجرذ معاقل كثيرة فى الجِحَرة ، والغرابُ يطير ، وأنتِ ثقيلة لا سعىَ لك ، وأنا أشفِق عليك . فقالت السلحفاة : لا خير فى العيش بعد فراق الأحبّة ، وإنّ من المعونة على تسلية الهمّ وسكونِ النفس - عند نزول البلاء - لقاء المرء أخاه ، وإفضاء كلّ واحد منهما إلى صاحبه . وإذا فُرّق بين الأليف وإلفه فقد سُلِبَ سروره ، وغُشّى على بصره . فلم تفرغ السلحفاة من كلامها حتى طلع القانص . ووافق ذلك قطعَ الجرذ الشبكة عن الظبي ؛ فانجحر الجرذ ، وطار الغراب ، ونجا الظبي . فلمّا دنا من حباله ورآها مقطوعة ، عجِب وجعل ينظر فيما حوله ، فلم ير غير السلحفاة فأخذها واستوثق منها . واجتمع الغراب والظبي والجرذ ينظرْن إليه وهو يربطها ، فاشتد حزنُهنّ لذلك ، فقال الجرذ : ما نرى أنّا نجاوز من البلاء عَقَبة إلّا وقعنا فى أخرى ؛ لقد صدق الذى يقول : لا يزال المرء مستقِلّا ما لم يعثُر فإذا هو عثَر

لجّ به العِثار ولو مشي فى جَدَد . وما كان شُؤمى الذى فرّق بينى وبين قطينى وأهلى ومالى وولدى ، ليرضى حتى يفرّق بينى وبين ما كنت أعيش فيه من صحبة السلحفاة التى لم تكن مودّتها للمجازاة ولا لالتماس المكافأة ، ولكنها خُلّة الكرم والوفاء والعقل ، ومودّتها أفضـــل من مودّة الوالد ولده ، المودّةُ التى لا يزيلها إلّا الموت . يا وَيحَ هذا الجسدِ الموكّل به البلاء ! الذى لا يزال فى تصرُّف وتقلُّب لا يدوم له شئ ولا يلبث معه ، كما لا يدوم لطالع النجوم طلوعُها ، ولا لآفلِها أفولُها ، ولكنها فى تقلّب ؛ فلا يزال الطالع آفلًا ، والآفل طالعًا ، والمُشرِّق مُغرِّبًا ، والمُغرِّب مُشرّقًا . وهذا الحُزن الذى أنا فيه وتذكُّرى إخوانى كالجُرح المندمل تصيبه الضربة فيجتمع على صاحبها ألمان : ألم الضربة وألم انتقاض الجُرح . وكذلك مَن خفّت كلومه للقاء إخوانه ، ثم فقدهم ، انتكأت قروحه . فقال الغراب والظبي : حُزنُنا وحُزنك وكلامُنا وكلامك ، وإن كان بليغًا ، لا يُغنِي عن السلحفاة شيئًا ، فدع هذا والتمس المخرَج والحيلة ؛ فإنه قد كان يقال : إنما يُختبَر ذو البأس عند اللقاء ، وذو الأمانة عند الأخذ والإعطاء ، والأهلُ والولد عند الفاقة ، والإخوانُ عند النوائب . فقال الجرذ : إنّ من الحيلة أن تذهب أنت أيها الظبي ، حتى تكون بصددٍ من طَريق القانص ، فتربِضَ كأنك جريح مُثبَت ، ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك ، وأتبعه

فأكونُ قريباً منه ؛ فإنى أرجو ، لو نظر إليك ، أن يضع ما معه من قوسه ونُشّابه ويضع السلحفاة ويسعَى إليك ؛ فإذا هو دنا منك فِرّ عنه متظالعاً حتى لا ينقطع طمعه فيك ، وأمكِنه مراراً حتى يدنوَ إليك ، ثم امدُد به على هذا النحو ما استطعت ؛ فإنى أرجو ألّا ينصرف إلّا وقد قطعتُ الحبل عن السلحفاة وخلّصتها . ففعل الظبي ذلك هو والغراب ، فأتبعه القانص طويلًا ثم انصرف وقد قطع الجرذ وَثاق السلحفاة ، ونجَوْنَ جميعاً . فلما رأى ذلك القانص ورأى حباله مقطوعة ، فكّر فى أمر الظبي المتظالع ، والغراب الواقع عليه كأنه يأكل منه وليس يأكل ، وتقريضِ حباله قبل ذلك عن الظبي ؛ فاستوحش وقال : إنْ هذه إلّا أرض سَحَرة أو جنّ . فانصرف مذعوراً مُولّياً لا يلتمس شيئاً ولا يلتفت إليه . واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عرائشهنّ آمنات .

ثم قال الفيلسوف للملك : فإذا بلغَت حيلةُ أضعفِ الدوابّ والطير وأهوَنِها ، فى معاونة بعضهنّ بعضاً ، ومواتاتِهنّ ، وجُمْعَتِهنّ فيما ينهُنّ ، وصبرِهنّ على ما خلّص به بعضُهنّ بعضاً من أعظم البلاء وأهوله وأفظعه ؛ فكيف بالناس لو فعلوا مثل ذلك وترافدوا فيه ؟ إذاً كان يصل إليهم من منفعة ذلك ومِرْفَقه فى جرّ الخير وإجرائه ودفع السوء ، ما لا خطَر له ولا عِدل .



باب البوم والغربان

قال الملك للفيلسوف : قد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر الإخاء ومنفعته وعظيم الفائدة فيه . فاضرب لى مَثَل المغترّ بالعدوّ المُبدِى التضرّع ، وأخبرنى عن العدوّ هل يصير صديقاً ؟ وهل يوثق بشئ منه ؟ وكيف العداوة ؟ وما ضرّها ؟ وكيف ينبغى للملك أن يصنع إذا أتاه أمر من عدوّه ومن أهل المنابذة يلتمس به الصلح ، وهو فى نفسه غير أمين ولا حقيق بالطمأنينة .

قال الفيلسوف : ليس أحد بحقيق ، إذا أتاه أمر من عدوّه الذى يتخوفه على نفسه وجنده وإن كان يلتمس الأمان والصلح ويظهر المودة لجنده والسلامة لأصحابه ، أن يثق به ولا يطمئنّ إليه ولا يغترّ بقوله ؛ فإنه قد يكون بأشباه ذلك يطلب النُهزة والفُرصة . ومَثَل العدوّ الذى لا ينبغى أن يُغترّ به ، وإن هو

أظهر المودة والصفاء ، ومَن يَسترسل إلى عدوّه ويطمئن إليـه فيصيبه الشرّ ما أصاب البومَ من الغربان . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنّ أرضاً تُسمّى كذا وكذا ، كان حولها جبل عظيم محيطٌ بها ، وكان فيه شجرة عظيمة كثيرة الغصون شديدة الالتفاف يقال لها يَمُرود[1] ، وكان فيها وكرُ ألفِ غراب ، ولهنّ مِلِك منهنّ ؛ وكان فى ذلك الجبل وكر ألفٍ من البوم . فخرج ملك البوم ذات ليلة ؛ لعداوة بين البوم والغِربان ، فوقعت البوم على الغربان فأكثرن فيهنّ القتل والجِراح ، ولم يعلم ملك الغربان بذلك حتى أصبح . فلما كان الغدُ ، ورأى ما لقى جندُه ، اهتمّ وحزن وقال : يا معشر الغربان ! قد ترون ما لقينا من البوم ، وما أصابنا منهنّ ، وأشدّ مما أصابكنّ جُرأتُهنّ عليكنّ ، ومعرفتهنّ مكانكنّ ؛ وأنا متخوّف من كَرّتهنّ بمثلها أو أشدّ منها عليكنّ .

وكان فى الغربان خمسة ذَوو رفقٍ وعلم ، ونظَرٍ فى الأمور ، ومعرفةٍ بحسن الرأى والحِيَل ، وكان الملك يشاورهم وينتهى إلى رأيهم . فقال الملك للأول من الخمسة : قد كان ما رأيت ، ولسنا نأمن رجعتهم ، فما الحيلة ؟ فقال : الحيلة فى الذى كانت العلماء تقول ؛ فإنهم كانوا يقولون : ليس للعدوّ الحَنِق الذى لا يطاق إلّا الهربُ منه والتباعدُ عنه . ثم سأل الملك الثانى ، فقال : ما رأيك أنت ؟ قال : أما ما أشار به هذا عليك فلا أراه حزماً ؛ ولا ينبغى لنا أن نفرّ

من بلادنا ونذلّ لعدوّنا عند أوّل نكبة ؛ ولكن نُجمِع أمرنا ، ونستمدّ لعدوّنا ، ونذكى العيون ما بيننا وبينهم ، ونحترس من الغِرّة والعَودة ؛ فإذا أقبل علينا عدوّنا لقيناه مستمدّين لقتاله ، فقاتلناه مزاحفة تلقى أطرافنا أطرافه ، ونتحرز منه تحرزاً حصيناً ، ونداقع الأيام[2] حتى نصيب منه غِرّة ولعلّنا نظفر به . ثم قال الملك للثالث : ما ترى فيما قال صاحباك ؟ قال : لم يقولا شيئاً . ولعَمرى ما مدافعة الأيام والليالى بمستقَرٍّ لنا فيما بيننا وبين البوم ، وما الرأى إلّا أن نذكى العيون والطلائع بيننا وبين العدوّ ، وننظر هل يقبلنَ صُلحاً أو فدية أو خراجاً نؤدّيه اليهنّ ، وندفعُ عن أنفسنا خوفهنّ ، ونأمنُ فى أوطاننا وأوكارنا ؛ فإنّ مِن الرأى للملوك ، إذا اشتدت شوكة عدوّهم وخافوا على أنفسهم ورعيتهم الهلكةَ والفساد ، أن يجعلوا الأموال جُنّة للرعية والبلاد . فقال الملك للرابع : ما رأيك أنت فيما قال صاحباك ، والصلح الذى ذكر هذا ؟ قال : لا أرى ذلك . بل تركُ أوطانِنا والاصطبارُ على الغُربة وشدّةِ المعيشة ، أحبُّ إلينا من وضع أحسابنا ، والخضوعِ لعدوّنا الذى نحن خير منه وأشرف ؛ مع أنى قد عرفتُ أنّا لو عرضنا ذلك عليهنّ لم يقبلن إلّا بالاشتطاط . وقد يقال : قارِب عدوّك بعض المقاربة تنَل منه حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك بها ، ويضعفَ ويذِلّ لها جندُك . ومَثَل ذلك مَثَل الخشبة القائمة فى الشمس ؛ فإن أملتَها قليلا زاد

ظلّها ، وإن جاوزتَ الحدّ فى إمالتها ذهب الظلّ . وليس عدوّنا براض منّا بالدون فى المقاربة ؛ فالرأى لنا المحاربة والصبر . فقال الملك للخامس : ما رأيك أنت ؟ آلصلح أم القتال أم الجلاء ؟ قال : أما القتال فلا سبيل إلى قتال مَن لا تُقاربه فى القوّة والبطش ؛ فإنه مَن أقدم على عدوّه استضعافاً له اغترّ ، ومَن اغترّ أمكن مِن نفسه ولم يسلم . وأنا لِلبوم شديد الهيبة ولو أنها أضربت عن قتالنا . وقد كنّا نهابها قبل إيقاعها بنا ؛ فإنّ العاقل لا يأمن عدوّه على كل حال : إن كان بعيداً لم يأمن من معاودته ، وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده ، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته ، وإن كان وحيداً لم يأمن مكره . وأكيَسُ الأقوام مَن لم يكن يلتمس[3] الأمر بالقتال ما وَجَد إلى غير القتال سبيلًا ؛ فإنّ النفقة فى القتال من الأنفس ، وغيرُ ذلك إنما النفقة فيه من الأموال . فلا يكوننّ قتالُ البوم من شأنكم ؛ فإنّ مَن يوا كل الفيل يوا كل الحَيف[4] . قال الملك : فما ترى إذ كرهتَ ذلك ؟ قال : نأتمر ونتشاور ؛ فإنّ الملك المشاوِر المؤامر ، يصيب فى مؤامرته ذوى العقول من نصحائه ، من الظفر ، ما لا يصيبه بالجنود والزحف وكثرة العُدد . فالملك الحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأى الوزراء الحزَمة ، كما يزداد البحر بمواده من الأنهار . ولا يخفَى على الحازم قدرُ أمره وأمرِ عدوّه ، وفرصةُ قتاله ، ومواضعُ رأيه ومكايدته .

ولا ينفكّ يعرضُ الأمورَ على نفسه أمراً أمراً ، يتروّى فى الإقدام على ما يريد منها ، والأعوانِ الذين يستعين بهم عليها ، والعُدَدِ التى يُمدّ لها ؛ فمن لا يكون له رأى فى ذلك ولا نصيحة من الوزراء الذين يُقبل منهم ، لم يلبث ، وإن ساق القدر إليه حظًّا ، أن يُضيّع أمره ؛ فإنّ الفضل المقسوم لم يقيّض للجمال ولا للحسب ولكنّه وُكّل بالعاقل المستمع من ذوى العقول . وأنت أيها الملك كذلك ، وقد استشرتنى فى أمر أريد أن أجيبك فى بعضه علانية ، وفى بعضه سرّا . أما ما لا أكره أن أعلنه ، فإنى ، كما لا أرى القتال ، لا أرى الخضوع بالخراج والرضا بذلّ الدهر ؛ فإنّ العاقل الكريم يختار الموت كريماً محافظاً ، على الحياة خزيان ذليلا . وأرى أن نؤخّر النظر فى أمرنا ، ولا يكوننّ من شأنك التثبّط والتهاون ، فإنّ التهاون رأس العجز . وأما ما أريد إسراره فليكن سرًّا ؛ فإنه قد كان يقال : إنما يُصيب الملوكُ الظفرَ بالحزم ، والحزمَ بأصالة الرأى ، والرأىَ بتحصين الأسرار . وإنما يُطّلعُ على السرّ من قِبَل خمسة : من قِبَل صاحب الرأى ، ومن قِبَل مُشاوِره ، ومن قِبَل الرسُل والبُرُد ، ومن قِبَل المستمعين الكلام ، ومن قِبَل الناظرين فى أثر الرأى ومواقع العمل بالتشبيه والتظنّى . ومَن حصّن سرّه فإنه من تحصينه إياه ، فى أحد أمرين : إما ظفر بما يريد ، وإما سلامة من عيبه وضُرّه إن أخطأه ذلك . ولا بدّ لمن نزلت به نائبة من استشارة الناصح ، وطلب

من يعاونه على الرأى ، ويُفضى إليـه ؛ فإنّ المستشير وإن كان أفضلَ من المستشار رأياً ، فإنه يزداد بالمشورة رأياً وعقلًا ، كما تزداد النار بالودَك ضَوءاً . وعلى المستشار موافقةُ المستشير على صوابِ ما يرى ، والرفقُ به فى تبصيره وردّه عن خطإِ رأيٍ - إن كان منه - وتقليبُ الرأى فيما يشكل عليه حتى يستقيم لهما سرّهما . فإن لم يكن المستشار كذلك ، فهو على المستشير مع عدوّه ؛ كالرجل الذى يَرقِى الشيطان ليُرسله على الإنسان ، فإذا لم يُحكِم الرُّقية كان به يتلبّسُ ، وإياه يأخذ . وإذا كان الملك مُحصِّناً لأسراره ، متخيِّراً للوزراء ، مهيباً فى أنفس العامة ، بعيداً مِن أن يُعلَم ما فى نفسه ، لا يضيع عنده حُسنُ بلاء ، ولا يسلَم منه ذُو جُرم ، مقدِّراً لما يُفيد ولما ينفق ، كان خليقاً ألا يُسلَب صالحَ ما أُعطِى . والأسرار منازل ؛ فمن السرِّ ما يدخل فيه الرهط ، ومنه ما يدخل فيه الرجلان ، ومنه ما يستعان فيه بالقوم . ولا أرى لهذا السرّ - فى قدر منزلته - أن يشترك فيه إلّا أربع آذان ولسانان . فنهض الملك فخلا معه واستشاره ؛ فكان مما سأله عنه أن قال : هل تعلم ما كان سببَ عداوة ما بيننا وبين البوم ؟ قال نعم ! كلمةٌ تكلّم بها غراب مرّة . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الغراب :

زعموا أن جماعة من الطير لم يكن لها ملك ، وأنها اجتمعت آراؤها على بوم لتملِّكه عليها . فبينما هم فى ذلك إذ وقع لهم غراب فقال بعضهم : انتظرن حتى

يأتينا هذا الغراب لنستشيره فى أمرنا . فأتاهنّ الغراب فاستشرنه فيما قد أجمعن عليه من تمليك البوم ، فقال الغراب : لو أنّ الطير كلّها فُقِدت وبادت وفُقِد الطاوس والبطّ والحمام والكُركىّ ، لما اضطُرِرتنّ إلى تمليك البُوم أقبح الطير منظراً ، وأسوئها مَخبَراً ، وأقلّها عقولًا ، وأشدّها غضباً ، وأبعدها رحمة ؛ مع الذى بها من الزمانة والعَشَى بالنهار . ومن شرّ أمورها سوء تدبيرها . ولا يطيق طائر يقرب منه ؛ لصلفه وخبث نَتْنه وسوء خَلقه ؛ إلّا أن ترين تمليكه وتدبير الأمور دونه ؛ فإنّ الملك وإن كان جاهلًا ، إذا كان يُقْدَر على الدنوّ منه وكانت قرابينه ووزراؤه ورسلُه صالحين ، نفذ أمره ورأيه واستقام له ملكه ؛ كما فعلت الأرنب التى زعمت أن القمر مَلِكها ، وعملت برأيها . قال الطير : وكيف كان ذلك ؟ قال الغراب :

زعموا أنّ أرضاً من أرض الفِيَلة ، تتابعت عليها السنون وأجدبت ، فقلّ الماء فى تلك البلاد وغارت العيون ، وأصاب الفيلة عَطَش شديد . فشكت ذلك إلى ملكها . فأرسل الملكُ رسُله ورُوّاده فى التماس الماء فى كل ناحية . فرجع إليه بعض رسله فأخبره بأنه وجد فى بعض الأمكنة عيناً تدعى القمَرِية ، كثيرةَ الماء . فتوجّه ملك الفِيَلة بفيلته إلى تلك العين ليشربْن منها . وكانت تلك الأرض أرضَ أرانب . فوطئت الفيلة الأرانب بأرجلها فى جِحَرتها فأهلكن أكثرها .

فاجتمع البقية منها إلى ملكها فقُلن له : قد علمت ما أصابنا من الفيلة ، فاحتلْ لنا قَبل رجوعهنّ علينا ؛ فإنهنّ راجعات لوِردهنّ ومُفنياتنا عن آخرنا . فقال ملكهنّ : ليحضُرْنى كلُّ ذى رأى برأيه . فتقدم خُزَز منها يقال له فَيروز ، وقد كان الملك عرفه بالأدب والرأى ، فقال : إن رأى الملك أن يبعثنى إلى الفِيَلة ويبعث معى أميناً يرى ويسمع ما أقول وما أصنع ويخبره به ، فليفعل . فقال له ملك الأرانب : أنت أمينى ، وأنا أرضَى رأيك ، وأُصدّق قولك ، فانطلِق إلى الفِيَلة وبلّغ عنّى ما أحببت ، واعمَل برأيك ، واعلم أنّ الرسول ، به وبرأيه وأدبه يُعتَبر عقل المرسل وكثير من شأنه ، وعليك باللين والمواتاة ؛ فإنّ الرسول هو يُليّن القلب إذا رَفَق ، ويُخشّن الصدر إذا خرِق . فانطلق الأرنب فى ليلةٍ ، القمرُ فيها طالع ، حتى انتهى إلى موضع الفِيَلة . فكره أن يدنو منهنّ فيطأنه بأرجلهنّ ، وإن لم يردن ذلك ، فأشرف على تلّ فنادى ملكَ الفيلة باسمه وقال له : إنّ القمر أرسلنى إليك ، والرسولُ مبلّغ غيرُ ملوم ، وإن أغلظ فى القول . فقال له ملك الفيلة : وما الرسالة ؟ قال : يقول لك القمر إنه مَن عرف فضل قوّته على الضعفاء فاغترّ بذلك من الأقوياء ، كانت قوّته حَيناً ووبالاً عليه ؛ وإنك قد عرفتَ فضل قوّتك على الدوابّ فغرّك ذلك منّى فعمدتَ إلى عَينى التى تُسمّى باسمى فشربت ماءها وكدّرته أنت وأصحابك ؛ وإنى أتقدمّ إليك

وأُنذِركَ ألّا تأتيَها فأُعشِيَ بصركَ وأُتلِفَ نفسك . وإن كنت فى شكٍّ من رسالتى ، فهلمّ إلى العين من ساعتك ، فإنى مُوافيك بها . فعجب ملك الفيلة من قول فيروز ، وانطلق معه إلى العين . فلما نظر إليها رأى ضوء القمر فى الماء . فقال له فيروز : خذ بخرطومك من الماء واغسل وجهك واسجد للقمر . ففعل . ولما أدخل خرطومه إلى الماء فحرّكه ، خُيِّل إليه أنّ الماء يرتعد ، فقال ملك الفيلة : وما شأن القمر يرتعد ؟ أتراه غضب من إدخال جَحفَلتى فى الماء ؟ قال : نعم ، فاسجد له . فسجد الفيل للقمر وتاب إليه مما صنع ، وشرط له ألّا يعود هو ولا أحد من فيلته إلى العين .

قال الغراب : ومع ما ذكرت لكم من أمر البوم فإنّ من شأنها الخِبّ والخديعة . وشرُّ الملوك المخادع . ومن ابتُلىَ بسلطان المخادعين أصابه ما أصاب الصَّفرِد والأرنب اللذين حكّما السِّنَّور الصوّام . قالت الطير : وكيف كان ذلك ؟ قال الغراب :

كان لى جار من الصفارِد ، وجحره قريب من الشجرة التى فيها وكرى . وكان يُكثِر مواصلتنا ، وطال جوار بعضنا لبعض . ثم إنى فقدته فلم أدر أين غاب . وطالت غيبته عنّى حتى ظننت أنه قد هلك . فجاءت أرنب إلى مكانه لتسكنه فكرهتُ أن أخاصِمها فى مكان الصَّفرِد ولا أدرى ما فعل به الدهر .

فلبثت الأرنب فى ذلك المكان زمانًا . ثم إنّ الصَّفِرد رجع إلى مكانه ، فلما وجد فيه الأرنب قال لها : هذا المكان مكانى ، فانتقلى عنه . قالت الأرنب : المسكن فى يدى ، وأنت المدّعى ؛ فإن كان لك حق فاستعْدِ علىّ . قال الصفرد : المكان مكانى ، ولى على ذلك البيِّنة . قالت الأرنب : نحتاج إلى القاضى قبل البيّنة . قال الصفرد : ههنا قريب منّا القاضى ، فانطلق بنا إليه . فقالت الأرنب : ومَن القاضى ؟ قال الصَّفرد : سِنَّور متعبِّد يصوم النهار ويقوم الليل ولا يؤذى دابّة ولا يأكل إلّا الحشيش ، فاذهبى بنا إليه . فانطلقا ، وتبِعْتُهما لأنظر إلى الصوّام وقضائه بينهما . فأتيا إليه هائبَين له . فلما رآهما قد أقبلا من بعيد انتصب قائمًا يصلّى ، فتعجبت الأرنب مما رأت منه . ولما صارا إليه دنوا منه هائبين له ، فطلبا إليه أن يقضى بينهما . فأمرهما أن يقصّا قصّتهما عليه ، وقال لهما : لقد أدركنى الكِبَرَ وثقُل سمعى فما أكاد أسمع ، فادنُوَا منّى لأسمع منكما . فدنَوا وأعادا عليه قصّتهما . فقال : قد فهمت ما قصصتما . وإنى بادِئكما بالنصيحة قبل القضاء : آمركما ألّا تطلبا إلّا الحقّ ؛ فإنّ طالب الحق هو الذى يُفلح وإن قُضى عليه ، وطالب الباطل مخصوم وإن قُضى له . وليس لصاحب الدنيا فى دنياه شئٌ ، لا مالٌ ولا صديق ، إلّا عملٌ صالح قدّمه فقط ؛ والعاقل حقيق أن يكون سعيه فيما يبقى ويعودُ عليه نفعه ، ويمقتَ ما سوى ذلك . ومنزلةُ

المال عند العاقل منزلةُ القذى ، ومنزلةُ النساء منزلة الأفاعى ، ومنزلة الناس عنده - فيما يحبّ لهم من الخير ويكره لهم من الشر - منزلة نفسه . فلم يزل يقصّ عليهما ويدنوان منه ويستأنسان به حتى وثب عليهما جميعاً فقتلهما .

ثم قال الغراب : والبوم تجمع مع سائر العيوب التى وصفتُ ، المكرَ والخديعة ، فلا يكوننّ تمليك البوم من رأيكن . فصدرت الطير عن خُطّة الغراب ، ولم تُملّك البوم . فقال البوم الذى كان اختير للمُلك : لقد وترتنى أعظم التِّرة ؛ فما أدرى هل سلف إليك منّى سوء استحققتُ به هذا منك ؟ وإلّا فاعلم أن الفأس يُقطع بها الشجر فتنبت وتعود ، والسيف يُقطَع به اللحم والعظم فيندمل ويلتئم ، واللسان لا يندمل جُرحه ولا يلتئم ما قطع ، والنصل من النُّشّابة يغيب فى الجوف ثم يُنزع ، وأشباه النصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُنزع ولم تُخرَج ، ولكل حريق مطفئ : للنار الماء ، وللسم الدواء ، وللعشق الوصال ، وللحزن الصبر ؛ ونار الحقد لا تخبو . وإنكم - معشر الغربان - قد غرستم بيننا وبينكم شجرة عداوة وحقد ، هى باقية ما بقى الدهر .

ثم انصرف غضبان موتوراً . وندم الغراب على ما فرَط منه ، وقال فى نفسه : لقد خرِقتُ فيما كان من قولى الذى جلبت به العداوة على نفسى وقومى ؛ ولم أكن أحقّ الطير بهذه المقالة ، ولا أعناها بأمر مُلكها ؛ ولعلّ

كثيراً منها قد رأى الذى رأيت ، وعلم الذى علمت ، فنها من ذلك ، الاتقاء لما لم أتوقه ، والنظر فيما لم أنظر فيه . ثم لا سيّما إذا كان الكلام مواجهةً ؛ فإنّ الكلام الذى يَستقبِل به قائلُه السامعَ عما يكره ، مما يورث الحقد والضغينة ، ولا ينبغى له أن يسمَّى كلاماً ولكن يسمى سمًّا . فإنّ العاقل ، وإن كان واثقاً بقوته وقوله وفضله وشدة بطشه ، لا يحمله ذلك على أن يجنى على نفسه عداوةً اتكالًا على ما عنده من ذلك ؛ كما أنّ الرجل ، وإن كان عنده الترياق والأدوية ، لا ينبغى له أن يشرب السمّ اتكالًا على ما عنده من ذلك . وإنما الفضل لأهل حُسن العمل لا لأهل حسن القول ؛ فإنّ صاحب حسن العمل ، وإن قصّر به القول فى بديهته ، بيِّنٌ فضلُه عند الخبرة وعاقبة الأمر . وصاحب القول ، وإن هو أحسن وأعجب ببديهته وحسن صفته ، لم يُحمد ذلك منه إلّا بتحقيقه بالعمل فى غبّ أمره . فأنا صاحب القول الذى لا عاقبة له . أوَ ليس من سفهى اجترائى على التكلم فى الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدا ، ولا أروِّى فيه مرارا ؟ وأنا أعلم أنّ مَن لم يُعمِل رأيه بتكرار النظر ، ولم يستشر النصحاء الألباء فى أمره ، لم يسرّ عواقب رأيه ، ولم يحمد غبّ أمره ؛ فما كان أغنانى عمّا اكتسبت فى يومى هذا وما وقعت فيه من الغم !

فعاتب الغراب نفسه بهذا ثم انطلق .

فهذا ما سألتَ عنه من العلّة التى بدأت بها العداوةُ بين البوم والغربان .

قال الملك : قد فهمتُ هذا فخذ بنا فيما نحن أحوج إليه اليوم ، وأشِر علينا برأيك الذى ترى أن نعمل به فيما بيننا وبين البوم . قال الغراب : أما القتال فقد كنتَ عرفتَ رأيى فيه وكراهيتى له ، وأنا أرجو أن أقدر من الحيل على بعض ما فيه الفرج ؛ فإنه رُبّ قومٍ احتالوا برأيهم فى الأمر الجسيم حتى ظفروا منه بحاجتهم التى لم يكونوا قدروا عليها بالمكابرة ؛ كالمَكَرة الذين مكروا بالناسك حتى ذهبوا بعريضه . قال الملك وكيف كان ذلك ؟ قال الغراب :

زعموا أنّ ناسكاً اشترى عريضاً ضخماً ليجعله قُرباناً ، فانطلق به يقودُه ، فبصُر به قوم مَكَرة فأتمروا ليخدعوه عنه ، فعرض له أحدهم فقال له : أيها الناسك ما هذا الكلب معك ؟ ثم عرض له آخر فقال : إنى لأظن أنّ هذا الرجل الذى عليه لباس النساك ، ليس بناسك ؛ فإنّ الناسك لا يقود الكلاب . ثم عرض له آخر فقال له : أنت تريد الصيد بهذا الكلب ؟ فلما قالوا له ذلك لم يشكّ أنّ الذى معه كلب ، فقال فى نفسه : لعلّ الذى باعنى ، سحَرنى وخدعنى . فخلّى عنه ، فأخذه النفر فذبحوه واقتسموه .

وإنما ضربت لك هذا المثل لِما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالمكر والرفق ؛ فأنا أرى أن يغضب علىّ الملك فيأمرَ بى على رءوس جنده فأُضرَب وأُنقَر حتى

أُخضب بالدم ، ويُنتَفَ ريشى وذنَبى . ثم أُطرَحَ فى أصل الشجرة ، ثم يرتحل الملك وجندُه إلى مكان كذا وكذا حتى أمكُر مَكرى ، ثم آتى الملك فأُعلِمه الأمر . ففعل به الملك ذلك ، وذهب بغربانه إلى المكان الذى وصف له .

ثم إنّ البوم جاءت من ليلتها فلم تجد الغِربان ، ولم تفطُن بالغراب فى أصل الشجرة . فأشفق الغراب أن ينصرفْن ولا يرَينه فيكونَ تعذيبُه نفسَه باطلًا ، فجعل يئِنّ ويهمِس حتى سمعه بعض البوم . فلما رأينه أخبرن به ملِكَهنّ ، فعمَد نحوه فى بومات يسأله عن الغربان . قال الغراب : أنا فلان بن فلان ، وأما ما سألتنى عنه من أمر الغربان فأنت ترى حالى وما صنعوا بى . قال ملك البوم : هذا وزير ملك الغربان وصاحِبُ رأيه ، فسلوه بأىّ ذنب صُنع به هذا ؟ قال الغراب : سَفَهُ رأيى فعل بى ما ترى . قال الملك : وما ذلك السفه ؟ قال الغراب : إنه لمّا كان من إيقاعكنّ بنا ما كان ، استشارنا ملكنا فقال : يا أيها الغربان ! أما ترون ما نزل بنا من البوم ؟ وكنت من الملك بمنزلة وبمكان . فقلت : أرى أنه لا طاقة لكم بقتال البوم ، فإنهن أشدّ بطشًا وأجرأ قلوبًا ؛ ولكنّ الرأى لكم أن تلتمسوا الصلح وتعرضوا الفِدية . فإن قُبِل ذلك منكم وإلّا فاهرُبوا فى البلاد . وأخبرت الغربان أنّ قتالكنّ خيرٌ لكنّ ، وشرٌّ لهنّ ، وأنّ الصلح أفضلُ ما هنّ مصيباتٌ منكنّ ؛ وأمرتُهنّ بالخضوع ؛ وضربت

لهنّ فى ذلك مثلًا فقلت: إنّ العدوّ الشديد لا يَرُدّ بأسَه وغضبه شئ هو أمثَلُ من الخضوع له؛ ألا ترون أنّ الحشيش إنما يَسلَم من الريح العاصف بلينه وانثنائه معها حيثما مالت، والشجرة العظيمة تُحطمها لانتصابها لها، والبعوضة تريد اختلاس النار ولا تتّقيها فتحترق منها؟ فغضبن من قولى وزعمن أنهنّ يُرِدن القتال، واتّهمننى وقلن: بل مالأتَ ملك البوم علينا وغششتنا. ورددن رأيى ونصيحتى، وعذّبننى بهذا العذاب. فلما سمع ملك البوم ما قال الغراب استشار وزراءه فقال لأحدهم: ما ترى فى هذا الغراب؟ فقال: لست أرى أن نناظر هذا، وليس لك فى أمره نظر إلّا المعاجلة بالقتل؛ فإنّ هذا من أفضل عُدد الغربان، وفى قتله لنا فتح عظيم وراحة من مكيدته، وفقدُه على الغربان شديد. وقد كان يقال: مَن استمكن من الأمر الجسيم فأضاعه، لم يقدر عليه ثانية؛ ومَن التمس فرصة العمل وأمكنته ثم غفل عنها، فاته الأمر ولم تَعُد إليه الفرصة؛ ومَن وجد عدوّه ضعيفاً فلم يسترح منه، أصابته الندامة حين يقوى العدوّ ويستمدّ فلا يقدر عليه. فقال الملك لآخر من وزرائه: ما ترى فى هذا الغراب؟ قال: أرى ألّا تقتله؛ فإنّ العدوّ الذليل الذى لا شوكة له أهلٌ أن يصفح عنه ويستبقى، والمستجيرَ الخائفَ أهلٌ أن يؤمَّن ويُجار. مع أنّ الرجل ربما عطفه على عدوّه الأمر اليسير؛ كالتاجر الذى عطف

عليه السارقُ امرأتَه بأمر لم يتعمده . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الوزير :

زعموا أنّ تاجراً مُكثراً كان كبير السنّ ، وكانت امرأته شابّة ذات جمال ، وكان لها عاشقاً ، وكانت له قالية مبغضة لا تمكّنه من نفسها ، ولا يزيده ذلك إلّا حُبًّا لها . ثم إنّ سارقاً أتى بيت التاجر ليلة ، فلما دخل البيت وافق التاجر نائماً وامرأتَه مستيقظة ، فذُعرت من السارق ووثبت إلى التاجر فالتزمته . فاستيقظ التاجر ، وقال : مِن أين هذه النعمة ؟ فلما بَصُر بالسارق قال : أيها السارق أنت فى حِلّ مما أردتَ أخذَه من مالى ومتاعى ، ولك علىّ الفضلُ بما عَطفتَ علىّ هذه المرأة من معانقتى .

ثم إنّ الملك سأل الثالث من وزرائه عن رأيه فى الغراب ، فقال الثالث : أرى أن تستبقيه وتُحسِن إليه ، فإنه خليق بمناصحتك ، وإنّ من إحكام تمكّن الرجل من أعدائه أن يستدخل منهم أعواناً على الباقين . وإنّ ذا العقل يرى ظَفَراً حَسَناً معاداةَ بعض عدوّه بعضاً . وإنّ اشتغال بعض العدوّ ببعضٍ واختلافَهم نجاةٌ له كنجاة الناسك عند اختلاف اللص والشيطان . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الوزير :

زعموا أنّ ناسكاً أصاب مرّة بقرة حلوباً فانطلق بها يقودها ، وتبعه لِصّ فحدّث نفسه بأخذها . وتبع اللصّ شيطان فى صورة إنسان . فقال اللصّ

للشيطان : مَن أنت ؟ قال : أنا شيطان أريد أن أتبَع هذا الناسك ، فإذا نام خنقته ؛ فأنت ماذا ؟ قال : وأنا أريد أن أتبعه إلى منزله لعلّى أسرق البقرة .

فانطلقا مصطحبين حتى انتهيا إلى منزل الناسك مُمسيين ، فدخل الناسك وأدخل بقرته ثم تعشّى ونام . فأشفق اللصّ أن يبدأ الشيطانُ بالناسك قبل أن يسرق البقرة فيصيحَ فتجتمعَ الناس بصوته فلا يقدرَ على سرقة البقرة . فقال له : انتظر حتى أخرِج البقرة ، ثم عليك بالرجل . فأشفَق الشيطان أن يبدأ اللص بالبقرة فيتنبّه الناسك فلا يقدرَ على أخذه . فقال له : بل أنظِرنى حتى أخنُقه ثم عليك بالبقرة . فأبى كل واحد منهما على صاحبه ، فلم يزالا فى اختلاف حتى نادى اللص الناسكَ أن انتبه فهذا الشيطان يريد أن يخنُقك ، وناداه الشيطان : أيها الناسك إنّ هذا اللص يريد أن يسرق بقرتك . فانتبه الناسك وجيرانُه لصوتهما وهرب الخبيثان .

فلما فرغ الثالث من كلامه قال الأول الذى أشار بقتل الغراب : أراكُنّ قد غرّكنّ هذا الغراب وخدعكنّ كلامه وتضرّعُه ، فأنتنّ تُرِدن تضييعَ الرأى والتغريرَ بجسيم الأمور ؛ فمهلًا مهلًا عن هذا الرأى ، وانظُرنَ نظَر ذوى اللبّ الذين يعرفون أمورهم وأمور عدوّهم ، ولا يثنِكنّ عن رأيكنّ فتكونوا كالعَجَزة الذين يغترّون بما يسمعون ، وتلينُ قلوبهم لعدوّهم عند أدنى ملَق وتضرّع ،

وتكونوا بما تسمعون أشدّ تصديقاً منكم بما تعلمون؛ كالنّجار الذى كذّب ما رأى وصدّق بما سمع ، فاغترّ وانخدع . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الوزير :

زعموا أنّ نجّاراً كانت له امرأة يحبّها ، وكانت قد عَلِقت رجلًا . فاطّلع على ذلك بعض أهل النجّار فأخبره . فأحبّ أن يتيقّن ذلك فقال لامرأته : إنى أريد الذهاب إلى قرية هى منّا على فراسخ لأعمل هنالك عملًا لبعض الأشراف ، وإنى غائب عنكِ أياماً فأعِدّى لى زاداً . ففرحت المرأة بذلك وأعدّت له زاداً . فلما أمسى قال لها : استوثِقى من باب الدار واحفَظى بيتك حتى أرجع إليك . فخرج وهى تنظر إليه حتى جاوز الباب ، ثم دخل من مكان خفىّ من منزل جارٍ له ، واحتال حتى دخل تحت سريره . وأرسلت المرأة إلى خليلها أن ائتِنا فإنّ الرجل النجّار قد خرج فى حاجة له يغيب فيها أياماً . فأتاها الرجل فهيّأت له طعاماً فأكلا وسقته . ثم تضاجعا على السرير ولبثا فى شأنهما ليلًا طويلًا . ثم إنّ النجار غلبه النعاس فنام ، فخرجت رجلُه من تحت السرير فرأتها امرأته فأيقنت بالشرّ فسارّت خليلها أن ارفَع صوتَك فسلنى : أيّنا أحبُّ إليكِ أنا أو زوجك ؟ وإذا امتنعتُ فألِحّ علىّ . فسألها عما قالت فردّت عليه : يا خليلى ! ما يضطرّك إلى هذه المسألة ، وما حاجتك إليها ؟ فألحّ عليها كما أوصته ، فقالت له : ألست تعلم أنّا ، معشرَ النّساء ، إنما نريد الأخلّاء لقضاء

الشهوة ، ولسنا نلتفت إلى أحسابهم ولا إلى شئ من أمورهم ! فإذا قضينا من أحدهم أربًا كان كغيره من الناس ؛ فأما الزوج فإنه بمنزلة الأب والأخ والولد ، وأفضلُ من منزلتهم ! فلحا الله امرأة لا يكون زوجُها عندها كعِدل نفسها أو أحبّ إليها منها ! فلما سمع النجّار هذه المقالة ، وثق من زوجته بالمودّة وبقى موضعَه إلى الغد . فلما علم أنّ الخليل قد خرج ، قام فوجد امرأته متناومة ، فقعد عند رأسها وجعل يذبّ عنها . فلما تحرّكت قال لها زوجها : يا حبيبة نفسى نامى فإنك بتّ الليلة ساهرة . ولولا كراهة ما ساءكِ لقد كان بينى وبين ذلك الرجل صخَب شديد .

وإنما ضربتُ لكم هذا المثل لئلا تكونوا كذلك النجّار الذى كذّب بما علم وتغافل . فلا تصدّقوا هذا الغراب فى مقالته ، واعلموا أنّ كثيراً من العدوّ لا يستطيع ضرر عدوّه بالمباعدة حتى يلتمسه بالمقاربة والمسامحة . وإنى لم أخَف الغربان حتى رأيت هذا الغراب ، وسمعت مقالتكم فيه . فلم يلتفت ملك البوم وسائر وُزرائه إلى كلامه .

ثم إنّ ملك البوم أمر أن يُحمل الغراب إلى مكانهنّ فيوصَى به خيراً ويُكرَم ويُحسَن إليه . فقال الوزير المشير بقتله : إذا لم يَقتُل الملكُ هذا الغراب فلتكن منزلتُه منكم منزلةَ العدوّ المخوف المحترَس منه ؛ فإنّ الغراب ذو أدب

ومكر ومكيدة ، وما أراه يرضى بالمُقام معنا ، ولا جاء إلينا إلّا لما يُصلحه ويُفسدنا . فلم يرفع الملك بقوله رأساً ، ولم يزدد إلّا كرامة للغراب وإحساناً إليه . وكان الغراب يكلّمه إذا دخل عليه ، ويكلّم مَن يخلو به من البوم كلاماً يزدادون به ثقة كل يوم ، وإليه استرسالا ، وله تصديقاً . ثم إنه قال ذات يوم لجماعة من البوم وفيهنّ البوم الذى أشار بقتله : لِيُبْلِغَنّ بعضُكنّ الملك عنّى أنّ الغربان قد وترتنى تِرة عظيمة بما فضحتنى وعذّبتنى ، وأنى لا يستريح قلبى منهنّ أبداً حتى أُدرِك منهنّ ثأرى ، وأنى قد نظرت فى ذلك فلم أجدنى أستطيعه وأنا غراب . وقد بلغنى عن بعض أهل العلم أنهم قالوا : مَن طابت نفسه عن نفسه فأحرقها بالنار فقد قرّب قرباناً إلى الله عظيما ، وإنه لا يدعو عنـد ذلك بدعاء إلّا استُجِيب له . فإن رأى الملك أن يأمُر بى فأحرَق ، ثم أدعو ربّى فيحوّلنى بوماً لعلّى أنتقم من عدوّى وأشفى غليلى إذا تحولت فى صورة البوم . قال له البوم الذى كان يشير بقتـله : ما أشبهك ، فى حُسن ما تُبدِى وسوء ما تخفى ، إلّا بالخمر الطيبة الريح الحسنة اللون المنقّع فيها السمُّ المميت . أرأيتك لو أحرقناكِ بالنار كان جوهرُكِ وطباعُكَ تحترق معك ؟ فإنّ الشرّ يدور حيثما دارت ، ثم تعود إلى أصلك وطباعك ؛ كالفأرة التى وجدت من الأزواج الشمسَ والسحابَ والريحَ والجبلَ ، فتركت ذلك كلّه ، وتزوّجت

جُرذاً. قال الغراب وكيف كان ذلك؟ قال البوم:

زعموا أنّ ناسكاً كان مستجابَ الدعوة؛ فبينا هو ذات يوم قاعد على شاطئ نهر إذ مرّت به حدأة فى رجلها دَرصة فوقعت منها عند الناسك. فأدركه لها رحمة، فأخذها ولفّها فى رُدنه، وأراد أن يذهب بها إلى منزله. ثم خاف أن يشقّ على امرأته تربيتُها، فدعا ربّه أن يحوّلها جارية. فتحوّلت جارية وأُعطِيت حُسناً وجمالا. فانطلق بها الناسك إلى منزله، وقال لامرأته: هذه ابنتى فاصنَعى بها صنيعك بوَلَدِك. وربّاها أحسن التربية، ولم يُعلِمها قصّتَها وما كان منها. فلما بلغت اثنتى عشرة سنة قال لها: يا بنيّةُ! إنك قد أدركت، ولابدّ لك من زوج يقوم بأمركِ ويكفُلك، ولنفرَغَ من الشغل بك. فاختارى مَن أحببتِ من الناس كلّهم أزوّجك منه. قالت الجارية: أريد زوجاً قويّاً شديداً منيعاً. فقال الناسك: ما أعرف أحداً كذلك إلّا الشمس. فانطلق الناسك إلى الشمس فقال لها: إنّ عندى جارية جميلة، وهى بمنزلة الولد لى، وأنا أسألك أن تتزوجها. فقالت الشمس: أنا أدلّك على مَن هو أقوى منّى وأشدّ. قال الناسك: ومَن هو؟ قالت: السحابُ الذى يسترُنى ويذهب بضوئى. فأتى الناسك السحابَ فسأله تزوُّج الجارية. فقال: أنا أدلّك على من هو أقوى منّى وأشدّ: الريحُ التى تُقبل بى وتُدبر. فانصرف الناسك إلى الريح فسألها

تزوُّج الجارية ، فقالت له : أنا أدلّك على من هو أقوى منّى : الجبلُ الذى لا أستطيع أن أحرّكه . فانطلق الناسك إلى الجبل فقال له مثل مقالته للريح . فقال له الجبل : أنا أدلّك على من هو أقوى منّى : الجُرذُ الذى ينقُبنى فلا أستطيع له حيلة ولا أمتنع منه . فقال الناسك للجرذ : هل أنت متزوّج هذه الجارية ؟ فقال الجرذ : كيف أتزوّجها وجُحرى ضيّق ؟ فقال الناسك للجارية : هل لكِ أن أدعوَ ربّى أن يصيّرك فأرة وأزوّجك بالجرذ ؟ فرضيت بذلك . فدعا ربّه أن يحوّلها فأرة ، فتحوّلت فأرة وتزوّجها الجرذ . فهذا مَثَلك أيها المخادع ، فى العَود إلى أصلك .

فلم يلتفت ملك البوم ولا غيره منهنّ إلى هذا المثل ؛ ورفقن بالغراب ، ولم يزددن له إلّا كرامة حتى استقلّ ونبت ريشه ونما وصلح وعلم ما أراد أن يعلم واطّلع على ما أراد الاطّلاع عليه . ثم إنه راغ رَوغة إلى الغربان فقال لملكهم : أبشّرك بفَراغى مما أردتُ الفراغ منه من أمر البوم . وإنما بَقِى ما قِبَلك وقبلَ أصحابك ؛ فإن أنتم صرمتم وبالغتم فى أمركم فهو هلاك البوم . فقال الغربان وملكهم : نحن عند أمرك . فقال : إنّ البوم بمكان كذا وكذا ، وهنّ بالنهار يجتمعن فى مغار فى الجبل . وقد علمت مكانًا كثير الحطب ، فتعالوا نعمد إليه ، وليحمل كل غراب منّا ما استطاع إلى ذلك النقب ،

وقُربَ ذلك الجبل راعى غنَم ، وأنا مصيبٌ منه نارًا فألقيها فى الحطب . وتعاونوا أنتم ضربًا بأجنحتكم أى نفخًا وترويحًا للنار حتى تضطرم وتتأجج ، فما خرج من البوم احترق بالنار ، وما بقى مات خنقًا بالدخان . ففعلوا ذلك فهلك جميع البوم ، ورجع الغربان إلى أوطانهن آمنات .

ثم إنّ ملك الغربان قال لذلك الغراب : كيف صبرت على صحبة البوم ولا صبرَ للأخيار على صحبة الأشرار ؟ قال الغراب : إنّ ذلك لكذلك ؛ ولكنّ الرجل العاقل ، إذا نابه الأمر الفظيع الذى يخاف فيه المهلكة الجائحة على نفسه وقومه ، لم يجد بدًا من احتمال الضيق ، ولم يجزع من شدة الصبر لما يرجو لذلك من رَوْح العاقبة ، ولم يجد لذلك مساءة ، ولم يُكرِم نفسه عن الخضوع لمن هو دونه حتى يبلغ حاجته وهو حامد لغِبّ أمره ، ومغتبط بما كان من رأيه واصطباره على ما كان فيه . قال الملك : فأخبِرنى عن عقول البوم . قال الغراب : لم أجد فيهنّ عاقلًا إلّا الذى كان يشير بقتلى ، وكنّ أضعفَ شئ رأيًا ؛ لم ينظُرن فى أمرى ، ولم يذكُرن أنى كنت ذا منزلة من الملك ، وأنى أُعَدّ من ذوى الرأى ، فلم يتخوفن من مكرى وحيلتى . وأخبرهنّ الحازم الرأىِ الناصحُ فردَدن نصيحه ؛ فلا هنّ عقَلن ، ولا من ذوى الرأى قبِلن ، ولا حذِرنى ولا حصّنّ سرّهنّ دونى . وكان يقال : ينبغى للملك أن يحصّن دون المتهم

سرّه وأمره ، فلا يدنوَ من موضع أسراره وأموره وكتبه ، ولا من سلاحه ولا من طعامه وشرابه ، حتى من الماء والفُرُش التى يجلس عليها ، والحُلَةِ التى يلبَسها ، والدابّةِ التى يركبها ، والأدوية التى يشربها ، وإكليلِ الريحان الذى يضعه على رأسه ، والطيبِ الذى يستعمله ، والشعارِ الذى يتخذه ، وكلّ شئ يدنيه منه ؛ ولا يأمنُ على نفسه إلّا الثقة عنده .

قال ملك الغربان : لم يُهلِك مِلكَ البوم إلّا بغيُه وضعفُ رأيه ورأى وزرائه .

قال الغراب : صدقت ؛ قلّما ظفر أحد يبغى ، وقلّ من حرص على النساء فلم يفتضح ، وقلّ مَن أكثر من الطعام فلم يسقَم ، وقلّ مَن ابتُلِىَ بوزراء السوء إلّا وقع فى المهالك ؛ وكان يقال : لا يطمعَنّ ذُو الكِبْر والصلَف فى الثناء الحسن ، ولا يطمعَنّ الخبّ فى كثرة الصديق ، ولا السيئُ الأدبِ فى الشرف ، ولا الشحيح فى البرّ ، ولا الحريص فى قلة الذنوب ، ولا الملِك المتهاوِن الضعيفُ الوزراء فى بقاء ملكه .

قال الملك : لقد احتملتَ مشقّة شديدة بتصنّعك للبوم وتضرّعك لهنّ .

قال الغراب : إنه مَن احتمل مشقة يرجو فيها منفعة ، صبر على ذلك ؛ كما صبر الأسْود على حَمل الضّفدَع . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الغراب : زعموا أن أسْود كَبِر وهرِم ولم يستطع الصيد ، فدبّ متحاملًا حتى انتهى

إلى غدير كثير الضفادع ، كان يأتيه فيتصيد من ضفادعه ، فوقع قريباً من العين شبيهاً بالكئيب الحزين . فقال له أحد الضفادع : ما شأنك حزيناً ؟ قال : ومالى لا أكون حزيناً وإنما كان خير عيشى مما كنت أصيد من هذه الضفادع ، فابتُليت ببلاء حُرِّمت علىّ الضفادع ، حتى إنى لو أصبت بعضها لم أجترئ على أكله . فانطلق الضُفدَع إلى ملكها فأخبره بما سمع من الأسْود . فأتى الملكُ إلى الأسْود وسأله عن ذلك فأخبره به ، فسرّه ما سمعه منه . فقال له ملك الضفادع : ولِمَ ذلك ؟ وكيف كان أمرك هذا ؟ قال : إنى لا أستطيع أن آخذ من الضفادع شيئاً إلّا ما يتصدّق به الملكُ علىّ . قال ولِمَ ذلك ؟ قال : لأنى سعيت فى إثر ضِفدع من أيام لآخذه ، فاضطررتُه إلى بيت ناسك ، فدخل البيت ودخلت فى أثره ، وفى البيت ابن الناسك ، فأصبت إصبَع الغلام وظننته الضفدع فلدغته فمات . فخرجت هارباً فتبعنى الناسك ودعا علىّ ولعننى وقال : كما قتلتَ هذا الغلام ظلماً له ، أدعو عليك أن تذِلّ وتخزَى وتكون مَرْكَباً لملك الضفادع وتُحرَم أكلها إلّا ما يتصدق به عليك ملكُها . فأتيتُ إليك لتركبنى مُقِرًّا بذلك راضياً به . فرغب ملك الضفادع فى ركوب الأسْود ، وظنّ أنّ ذلك شرف له ورفعة . فركب الأسْود أياماً ثم قال الأسْود : قد علمتَ أنى محروم ملعون ولا أقدر على الصيد إلّا ما تصدقتَ به علىّ من

الضفادع ؛ فاجعل لى رزقاً أعيش به . فقال ملك الضفادع : لعَمْرى ما لك بدّ من رزق تعيش به ويُقيمك . فأمر له بضُفدَعين كلّ يوم يؤخذان فيُدفعان إليه . فعاش بذلك ولم يضُرّه خضوعه للعدوّ الذليل ، وصار ذلك له معيشة ورزقاً .

وكذلك كان صبرى على ما صبرتُ عليه التماسَ هذا النفع العظيم الذى حصل لنا به بَوارُ عدوّنا والراحةُ منه . قال الملك : وجدت صَرعة المكر أشدّ استئصالاً للعدوّ من صرعة المكابرة ؛ فإنّ النار لا تزيد بحرّها وحِدّتها إذا أصابت الشجرة ، على أن تُحرِق ما فوق الأرض منها ؛ والماء بلينه وبَرْده يستأصل ما تحت الأرض . وكان يقال فى أربعة أشياء لا يُستقَلّ منها القليل : النار والمرض والعداوة والدَّين .

قال الغراب : كلّ ما كان من ذلك فبرأى الملك وسعادة جَدّه ؛ فإنه قد كان يقال : إذا طلب اثنان أمراً ظفر به أفضلُهما مُروءة ، فإن استويا فى المروءة فأفضلهما أعواناً ، فإن استويا فى ذلك فأسعدُهما جَدّاً . وقد كان يقال : من غالب الملك الحازم الأريب المصنوع له الذى لا تُبطره السرّاء ولا يُدهِشه الخوف ، فإنّ حينه يحذرُ به ؛ ثم لا سيما إذا كان مثلَك أيها الملك العالمُ بالأمور وفُرَص الأعمال ومَواضع الشدّة واللين والغضب والرضا والعَجلة والأناة ، والناظرُ فى يومه وغده وعواقب أعماله .

قال الملك : بل برأيك وعقلك كان هذا ؛ فإنّ الرجل الواحد أبلغُ فى إهلاك العدوّ من كثير العدد من ذوى البأس . وإنّ من أعجب أمرك عندى طولَ لُبثك عند البوم وأنت تسمع الغيظ وتراه ، ثم لا تسقطُ عندهم بكلمة . قال الغراب : لم أزَلْ متمسّكاً بأدبك أيها الملك ؛ أصْحَب القريب والبعيد بالرِّفق واللين والمتابعة والمواتاة . قال الملك : وجدتك صاحبَ عَمل ، ووجدت غيرك من الوزراء أصحابَ أقاويل ليست لها عاقبة . ولقد منَّ الله بك علينا مِنّة عظيمة لم نكن نجد قبلها لذّة الطعام والنوم ؛ فإنه كان يقال : لا يجد السقيمُ لذّة النوم حتى يبرأ ، ولا الرجل الشَرِه الذى أطمعه السلطان فى مال أو ولاية حتى يُنجَز له ذلك ، ولا الرجلُ الذى قد ألحّ عليه عدوّه - وهو يخافه صباحاً ومساء - حتى يستريح منه . وكان يقال : مَن أقلعت عنه الحمّى استراح بَدَنه وقلبه ، ومَن وُضع عنه الحِمل الثقيل استراح مَنكِبه ، ومَن أمِن عدوَّه ثَلِجَ صدره . قال الغراب : أسأل الله الذى أهلك عدوّك أن يمتّعك بسلطانك ، وأن يجعل فى ذلك صلاح رعيّتك ، ويُشرِكهم فى قُرّة العين بملكك ؛ فإنّ الملك إذا لم يكن فى مملكته قُرّةَ عيون رعيّته ، فمَثَله مثل ذاتِ الضرع الضخم[٦] إذا وضعت ولدها لم يكن فيه ما يكفيه . قال الملك : كيف كانت سيرةُ ملك البوم فى جنده ؟ قال : سيرةَ بطَر وأشَر وفخر وخُيَلاء وعجب وضَعف رأى . وكلٌّ أصحابه ووزرائه

كان شبيهاً به إلّا الذى كان يُشير بقتلى . قال الملك : وما رأيتَ منه مما استدللت به على عقله ؟ قال : لخَلّتين : إحداهما رأيُه - كان - فى قتلى ، والأخرى أنه لم يكن يكتُم صاحبَه نصيحة وإن استثقلها ، ولم يكن كلامه مع هاتين كلامَ خُرق ومكابرة ، ولكن كان كلامَ رِفق ولين ، حتى ربما أخبره بعيبه وهو لا يغضبه ! إنما يَضرب له الأمثال ويحدّثه عن عيب غيره فيعرِفُ به عيبه ، ولا يجد للغضب عليه سبيلًا . وكان مما سمعته يقول للملك ، أن قال : لا ينبغى للملك أن يغفُل عن أمره ؛ فإنه أمر جسيم لا يَظفَر بمثله إلّا قليل ، ولا يُنال إلّا بالحزم ، وهو خفيف الاستقرار كالقرد الذى لا يستقرّ ساعة واحدة ، وهو فى الإقبال والإدبار كالريح ، وفى الثقل كصحبة البغيض ، وفيما يُخاف من معاجلة عطَبه كلسعة الحيّة ، وفى سرعة الذهاب كحَباب الماء من وَقْع المطر .



باب القرد والغيلم

قال الملك للفيلسوف : قد سمعتُ هذا المثل ؛ فاضرِب لى مَثَل الرجل الذى يطلب حاجته حتى إذا ظفر بها أضاعها .

قال الفيلسوف : إنّ إصابة الحاجة أهونُ من الاحتفاظ بها . ومَن ظَفِر بأمر ولم يحسِن الاحتفاظ به ، أصابه ما أصاب الغَيْلم الذى ضيّع القِرد بعد أن استمكن منه . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنّ جماعة من القِرَدة كان لها ملك يقال له فاردين[1] . فطال عُمُره حتى بلغ الهَرَم . فوثب عليه قرد شابّ من أهل بيته . فقال للقردة : قد هَرِم هذا ، وليس يقوى على المُلك ولا يصلح له . ومالأه على ذلك جنده ، فنفَوا القِرد الهَرِم ، وملّكوا الشابّ . فانطلق هارباً فلَحِق بساحل البحر ، فانتهى

إلى شجرة من شجر التين نابتة على شاطئ البحر ، فجعل يأكل من تينها ، فسقطت منه تينة فى الماء ، وفيه غَيْلَم - وهو السُّلَحفاة الذكر - فلما سقطت التينة ، أخَذَها الغيلم فأكلها . فلما سمع القِرد وَقْع التين فى الماء ، أعجبه وَوَلِع بإلقائه فى الماء . وجعل الغيلم يأخذه فيأكله ، ولا يشكّ أنّ القِرد إنما يطرح التين من أجله . فخرج الغيلم إلى القرد فتصافحا وتصادقا ، وألِف كل واحد منهما صاحبه ، ولبثا زماناً لا ينصرف الغيلم إلى أهله . وإنّ زوجة الغيلم حزِنت لغيبة زوجها فشكت ذلك إلى صديقة لها وقالت : لعلّه أن يكون قد عَرَض له عارض من شرّ ! فقالت لها صديقتها : لا تحزَنى فإنه قد بَلَغَنى أنّ زوجك بالساحل مع قرد قد ألفه ، فهما يأكلان ويشربان ويلهُوان ؛ وقد طالت غيبته عنك ، فانسَيْه إذ نسيك ، وليَهُن عليك إذ هُنتِ عليه . وإن استطعت أن تحتالى للقرد فتُهلكيه فافعلى ؛ فإنّ القرد لو هلك قَدِم عليك زوجُك وأقام عندك . فأشحبت زوجة الغيلم لونها وضيَّعت نَفْسها حتى أصابتها نَهكة شديدة وهُزال .

ثم إنّ الغَيلَم قال فى نفسه : لآتينّ أهلى فقد طالت غيبتى . فأتى منزله فوجد زوجته عليلة منهوكة سيئة الحال[٢] ، فقال لها : يا أختِ كيف أنت ؟ فلم تُجبه . فقال : إنى أراك منهوكة . فلم تجبه . فأعاد المسألة فأجابت عنها جارةٌ لها وقالت له : ما أشدّ حالَ زوجتك ؛ أما مَرَضها فشديد ، وأما الدواء فأشدّ .

فهل لشدّة الداء وعدم الدواء إلّا الموت ؟ فقال الزوج : فأخبريني بالدواء لعلّى أقدرعليه وألتمسه حيث كان. قالت : هذا المرض نحن – معاشرَ النساء – أعلم به ، وليس له دواء إلّا قلب قرد. قال الغيلم فى نفسه : هذا أمر عسير ؛ من أين أقدر على قلب قرد إلّا قلب صديقى ؟ أفغادر بصديقى أم مُهلِك زوجتى ؟ وكل ذلك لا عذر لى فيه . ثم قال : إذا لم يستطع الرجل عظيما إلّا باحتمال صغير ، كان حقيقاً ألّا يلتفت إلى الصغير. وحقّ الزوجة بعدُ عظيم ، والمنافع فيها كثيرة ، والمعونة منها على أمر الدنيا والآخرة غيرُ واحدة ؛ وأنا حقيق أن أوثِرَها ولا أُضيّع حقها. ثم غدا متوجّهاً نحو القرد وفى نفسه مما يريده حَيرة ، وهو يقول : إنّ إهلاكى أخًا وفيًا وَصولا فى سبب امرأة ، لمن الأمور التى تُخاف عواقبها ، وليست لله رضا. فمضى على ذلك حتى أتى القرد. فحيّاه وقال : ما حَبَسك عنى يا أخى كلّ هذا الحبس ؟ قال الغيلم : إنّ مما بطّأنى عنك ، مع شوقى إليك ، الحياءَ منك والاحتشامَ ، لقلّة مكافأتى إياك بحسن بلائك ومعروفك إلىّ ؛ فإنى وإن كنت قد عرفت أنك لا تلتمس منى جزاء بمعروفك ، فإنى أرى حقًّا علىّ التماسَ مكافأتك. وأما أنت فخليقتك خليقة الكرام الأحرار الذين يُنيلون الخير مَن لم يُنِلهم إياه فيما مضى ولا يرجونه منه فيما بقى ، والذين لا ينسون جزاءه. فقال له القرد : لا تقولَنّ هذا ولا

تحتشمني ؛ فأنت الجامع فيما بيني وبينك للأمرين جميعاً : الابتداء بما تجب لك فيه مني المكافأة ، والمكافأةُ منك بأحسنِ ما رأيت . وقد سقطتُ إليك من وطني شريداً طريداً ، وكنتَ لى سَكَناً وإلْفاً أذهبَ اللهُ عنّى بك الهمّ والحَزَن .

قال الغيلم : إنّ أموراً ثلاثة تزداد بها لطافة ما بين الإخوان ، واسترسالُ بعضهم إلى بعض ؛ منها المؤاكلة ، ومنها الزيارة فى الرحْل ، ومنها معرفة الأهل والحشَم . ولم يجر بيننا من ذلك شئٌ . وقد أحببتُ أن يكون ذلك . فقال القرد : إنما ينبغى للصديق أن يلتمس من صديقه ذاتَ نفسه . فأما النظرُ إلى الأهل والحشم ، فإنّ اللعّاب الذى يلعب على الخشبة ، ينظر إلى كثير مما لا تراه العيون من أهل الناس وحشمهم . وأما المؤاكلة فإنّ كثيراً من الخيل والبغال والحمير يجتمعن على الأكل . وأما دخول الرجل بيتَ صاحبه فقد يدخل السارقُ إلى رحال معارفه لغير حبهم وإلطافهم ، إلّا إرادةَ ما لهم . فلا يصلُ اللعّابُ الناس بنظره إليهم وإلى حشمهم ، ولا الدوابُّ بعضُها بعضاً باجتماعها فى الأكل ، ولا اللّصوص معارفَهم بدخولهم رحالهم ، ولا لهؤلاء إذاً حرمةٌ وحقّ لبعضهم على بعض . قال الغيلم : قد صدقت ؛ لعمرى ما يلتمس الصديق من صديقه إلّا المودّة . فأما مَن كان يلتمس منافع الدنيا فهو خليقٌ أن ينقطع ما بينه وبين إخوانه . وقد كان يقال : لا يُكثِرنّ الرجلُ على إخوانه حَملَ المؤنات

حتى يؤذيهم ويبرمهم ؛ فإنّ عِجل البقرة إذا أكثر مصّه إياها وإفراطه ، أوشكت أن تضربه وتنفيه . ولم أذكر ما ذكرتُ ألّا أكون أعرِف منك الكرم والسعة فى الخلق ؛ ولكن أحببت أن تزورنى فى منزلى ، فإنه فى جزيرة كثيرة الشجر طيبة الفواكه . فأسعفنى بِطِلبتى واركب ظهرى لننطلق إلى منزلى . فرغب القرد فى الفواكه ، وتابع الغيلمَ وركب ظهرهَ . فسبح به الغيلم حتى إذا لجّج به فى البحر ، عرض فى نفسه قبحُ ما يريده وفجورُه وغدرُه . فاحتبس مفكّراً يقول فى نفسه : إنّ الأمر الذى هممتُ به ، أمرُ كفر وغدر ، وما الإناث بأهلٍ أن يُرْكَب بأسبابهنّ الغدرُ واللؤم ؛ فإنهنّ لا يُوثَق بهنّ ، ولا يُسترسَل إليهنّ . وقد قيل : إنّ الذهب يُعرف بالنار ، وأمانةَ الرجل بالأخذ والعطاء ، وقوةَ الدوابّ تعرف بالحمل الثقيل ، والنساء ليس لهنّ شئ يعرفن به . فلما رأى القرد احتباس الغيلم وأنه ليس يسبح ، ارتاب وقال فى نفسه : ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلّا لأمر . فما يؤمننى أن يكون؟ قد رجع عما كانَ عليه من مودّتى وإخائى ، وانصرَف إلى غير ذلك ، فأراد بى سوءا ؟ فقد علمتُ أنه لا شئَ أخفُّ وزناً ولا أشدّ تغيّراً ، ولا أسرع انقلاباً ، من القلب . وقد كان يقال : لا يَغْفُل العاقل عن التماس عِلمِ ما فى نفس أهله ووَلَده وإخوانه وصديقه عند كل أمر ، وفى كل لحظة وكلمة ، وعنـد القيام والقعود ، وعلى كل حال !

فإنّ ذلك شاهد على ما فى القلوب . ثم قال للغيلم : ما يحبسك ؟ وما لى أراك كأنك مهموم ؟ قال يُهمّنى أنك تأتى منزلى فلا توافق فيه كلّ الذى أحبّه لك ، فإنّ زوجتى عليلة . قال القرد : لا تهتمّ ، فإنّ الهمّ لا يُغنى شيئاً ، والتمس لزوجتك الأدوية والأطبّاء ! فإنه كان يقال : ليبذل الرجل مالَه فى ثلاثة مواضع : فى الصدقة إن أراد الآخرة ، وفى مصانعة السلطان إن أراد المنزلة فى الدنيا ، وفى النساء إن أراد خَفض العيش . قال الغيلم : زعمت الأطباء أنه لا دواء لها إلّا قلبُ قرد . فقال القرد فى نفسه : واسوءتاه ! لقد أورطنى الحرص والشره ، على كبر السنّ ، شرّ مُورَط . لقد صدق الذى قال : يعيش القانع الراضى آمناً مُطمَئنّاً مستريحاً مريحاً ، وذو الحرص والشره لا يعيش ما عاش إلّا فى تعب ونَصَب وخوف . وأرانى قد احتجتُ إلى عقلى فى التماس المخرج مما وقعت فيه . ثم قال للغيلم : يا خليلى ! إنه ليس ينبغى للخليل أن يدّخر عن صاحبه نصيحة ولا منفعة ، وإن أضرّ ذلك به فى نفسه . ولو كنتُ علمت بهذا كنت قد جئت بقلبى معى . قال الغيلم : وأين قلبك ؟ قال : خلّفته فى مكانى الذى كنت فيه . قال : وما حَملك على ذلك ؟ قال : سُنّة فينا معشرَ القرود ؛ إذا خرجنا إلى زيارة أخ أو صديق نخلّف قلوبنا لتزول الظِنّة عنّا . فإن شئتَ أتيتُك به سريعاً . ففرح الغيلم بتطيب نفس القرد ، وانقلب به راجعاً ، حتى

إذا بلغ الساحل وثب القرد إلى الشجرة فصعِدها . وأقام الغيلم ساعة ينتظره . فلما أبطأ عليه ناداه الغيلم : يا خليلي عجّل ؛ خذ قلبك وانزل ، فقد حبستني . فقال القرد : أظنّك تراني كالحِمار الذي زعم الثعلب أنه ليس له قلب ولا أذنان . قال الغيلم : وكيف كان ذلك ؟ قال القرد :

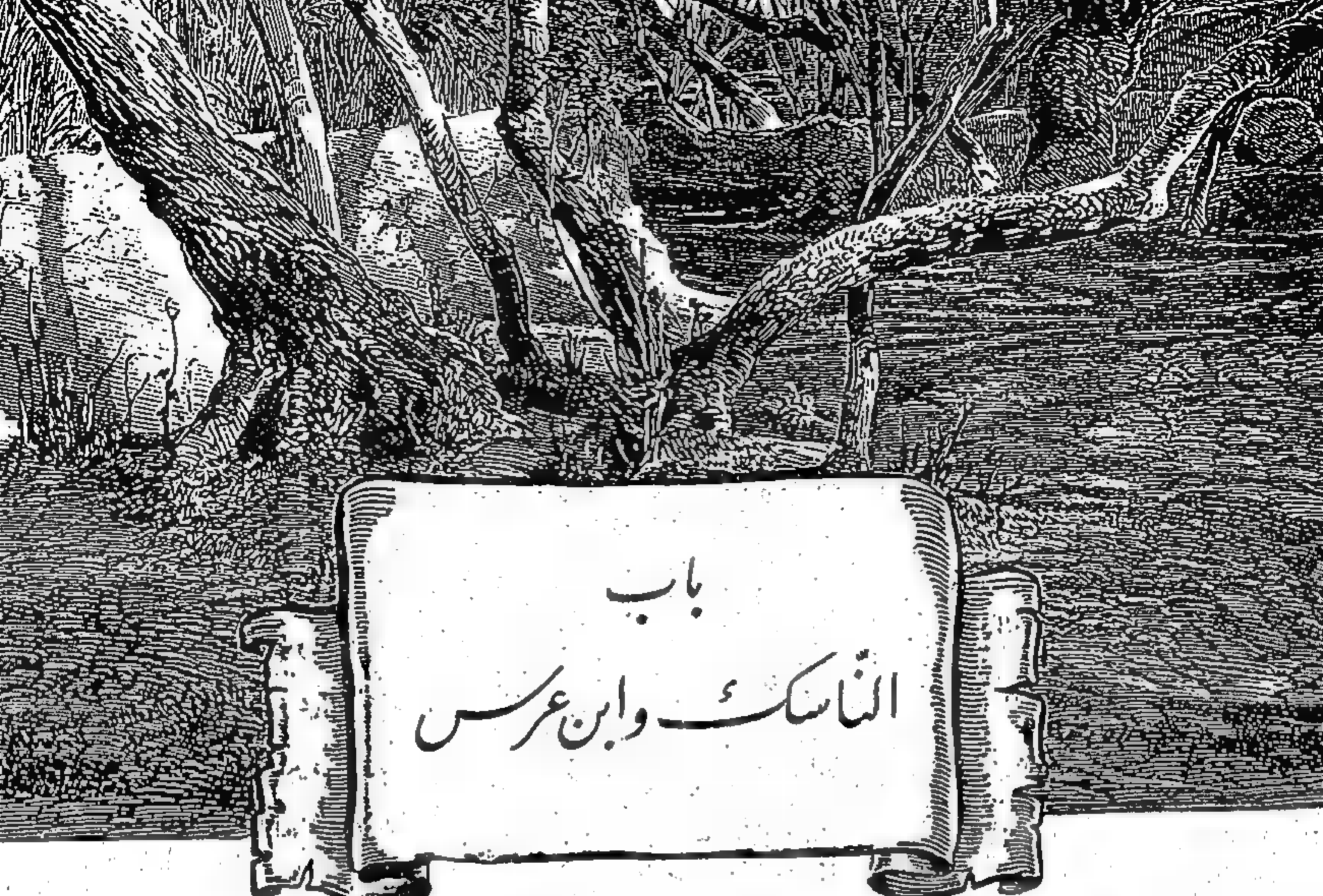
زعموا أنّ أسداً كان في أجمة ومعه ابن آوى يأكل من فضول صيده . فأصاب الأسدَ جَرَب شديد حتى ضعف فلم يستطع الصيد . فقال له ابن آوى : ما شأنك يا سيّد السباع ؟ قد تغيّر حالك وقلّ صيدك ، فأنّى ذلك ؟ فقال الأسد : ذاك لهذا الجرب الذي ترى ، وليس دوائي إلّا أن أُصيب أذنَي حمار وقلبَه . فقال ابن آوى : قد عرفتُ ههنا مكانَ حمار يجيءُ به قصّار إلى مرج قريب منّا ، يحمل عليه ثيابه التي يغسلها ، فإذا وضع عنه الثياب خلّاه في المرج . فأنا أرجو أن آتيك به ؛ ثم أنت أعلم بأذنيه وقلبه . قال الأسد : إن قدرت على ذلك فافعل ولا تؤخّرنّ ، فإنّ الشفاء لي فيه . فذهب ابن آوى إلى الحمار ، فقال له : ما هذا الهُزال الذي أرى بك ؟ والدبَر الذي بظهرك ! قال الحمار : أنا لهذا القصّار الخبيث ؛ فهو يسيءُ عَلَفي ويُديم إتعابي ويُثقل ظهري . قال ابن آوى : وكيف ترضى بهذا ؟ قال فما أصنع ، وأين أذهب ، وكيف أفلت من أيدي الناس ؟ قال له ابن آوى : أنا أدلّك على مكان منعزل خصيب

المرعى ، لم يطأه إنسان قطّ ، فيه أتان لم ينظر الناس إلى مثلها قطّ حُسناً وتماماً ، وهى ذات حاجة إلى الفحل ، فطرب الحمار عند ذكر الأتان وقال : ما يحبسنا ؟ ألا انطلِق بنا ؛ فإنى لو لم أرغب فى إخائك كان ذلك حاملى على الذهاب معك . فتوجّها جميعاً قِبَل الأسد ، وتقدّم ابن آوى إلى الأسد فأعلمه ، فوثب الأسد على الحمار من خَلفِه فلم يضبطه ، وانفلت الحمار . فقال ابن آوى للأسد : ما هذا الذى صنعت ؟ إن كنتَ عَمداً تركتَ الحمار فلِمَ عنّيتنى فى طلبه ؟ وإن كنتَ لم تضبِطه فذاك أعظم ، وقد هلَكنا إذا كان سيّدنا لا يضبط حماراً ! فعرف الأسد أنه إن قال : « تركته عمداً » سفّهه ، وإن قال : « لم أضبطه لضعف » هان عليه ، فقال : إن أنت استطعت ردّ الحمار إلىّ أخبرتك بما سألت عنه . فقال ابن آوى : لقد جرّب الحمار منّى ما جرّب ، وإنى بعد ذلك لعائدٌ إليه فمحتال له بما استطعت . فعاد إلى الحمار . فقال له : ما الذى أردت بى ؟ قال ابن آوى : أردتُ بك الخير ، ولكن الذنب لإفراط الغُلمة والشهوة ؛ فإنّ التى وثبت عليك هى الأتان التى أخبرتك عنها ، وإنما وثبت عليك من شدّة الودَق ، فلو كنتَ صبرت ساعة صارت تحتك . فلما سمع الحمار بالأتان ثانية ، هاجت به الغُلمة فانطلق مع ابن آوى يسعى ، فوثب عليه الأسد فافترسه ، حتى إذا فرغ منه قال لابن آوى : إنه وُصِف لى هذا

الدواء على أن أغتسل ثم آكل الأذنين والقلب ، وأجعل ما سوى ذلك قُرباناً ، فاحتفِظ بالحمار حتى أغتسل وأرجع إليك . فلما ذهب الأسد ، عَمَد ابن آوى إلى أُذُنَي الحمار وقلبه فأكلها رجاء أن يتطيّر الأسد من ذلك فلا يأكل من بقيّة الحمار شيئاً . فلما رجع الأسد قال لابن آوى : أين قلب الحمار وأذناه ؟ قال ابن آوى : أوَ ما شعَرتَ أنّ هذا الحمار لم يكن له قلب ولا أذنان ؟ قال الأسد : ما سمعت بأعجبَ من مقالتك ! قال ابن آوى : لو كان له قلب وأذنان لم يرجع إليك الثانية بعد أن صنعت به ما صنعت !

وإنما ضربت لك هذا لتعلم أنى لست كذلك ؛ ولكنك احتلت لى وخدعتنى بقولك فكافأتك بمثل ذلك ، واستدركت تفريطي وما كنت ضيّعت من نفسى . قال الغيلم : أنت الصادق البارّ ؛ وذو العقل يُقِلّ الكلام ، ويبالغ فى العمل ، ويعترف بالزلّة ، ويتثبت فى الأمور قبل الاقدام عليها ، ويستقيل عثرة عمله بعقله ، كالرجل الذى يعثر على الأرض وعليها ينهض ويستقيم .

فهذا مثل الذى يطلب أمراً حتى إذا استمكن منه أضاعه .



باب
النّاسك وابن عرس

قال الملك للفيلسوف : قد سمعتُ هذا المثل فاضرب لى مَثَل الرجل الذى يعمل العمل بغير رويّة ولا تثبّت .

قال الفيلسوف : من لم يكن فى عمله متأنياً وفى أمره متثبّتاً لم يبرح نادماً . ومن أمثال ذلك مَثَل الناسك وابنِ عِرس . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنه كان بأرض جُرجان ناسك ، وكانت له امرأة لبثت عنده زماناً لم تلد ، ثم حملت من بعد . فاستبشر بذلك الناسك ، وقال لها : أبشرى فإنى أرجو أن تلدى غلاماً يكون لنا فيه متاع وقُرة عين . وأنا متقدم فى التماس ظِئر ، ومتخيّرٌ له من الأسماء أحسنها . قالت المرأة : أيها الرجل ! ما يحملك على أن تتكلم فيما لا تدرى هل هو كائن أو غير كائن ؟ فاسكت عن هذا

الكلام ، وارضَ ما قسم الله لنا ؛ فإنّ العاقل لا يتكلم فيما لا يدرى ولا يحكم على المقادير فى نفسه ولا يقدّر فى نفسه شيئاً . ومَن تكلّم فيما لا يدرى - وقلّ أن يكون - أصابه ما أصاب الناسك المُهَريق السمن والعسل على رأسه. قال الناسك : وكيف كان ذلك ؟ قالت المرأة :

زعموا أنّ ناسكاً كان يَجرى عليه من بيت رجل من التجار ، رزقٌ من السَويق والسمن والعسل . فكان يُبقِى من ذلك السمن والعسل فيجعلُ الباقى منها فى جرّة ثم يعلّقها فى بيته . فبينما الناسك ذات يوم مستلقٍ على ظهره ، والجرّةُ فوق رأسه ، إذ نظر إليها فذكر غَلاء السمن والعسل ، فقال : أنا بائعٌ ما فى هذه الجرّة بدينار ، فأشترى بالدينار عشرة أعنُز ، فيحملن ويلدن لستة أشهر - ثم حزر على هذا الحساب لخمس سنين ، فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنْز - ثم أبيعها فأشترى بأثمانها مائة من البقر ، بكلّ أربعة أعنز ثوراً ، وأصيب بَذراً فأزرع على الثيران ؛ فلا يأتى علىّ خمس سنين إلّا وقد أصبت منها ومن الزرع مالاً كثيراً ، فأبنى بيتاً فاخراً ، وأشترى عبيداً وإماء ورياشاً ومتاعاً ، فإذا فرغت من ذلك تزوّجت امرأة جميلة ذات حسَب ، فإذا دخلت بها أحبلتها ، ثم تلد ابناً سويّاً مباركاً فأسمّيه مامه وأؤدّبه أدباً حسناً وأشتدّ عليه فى الأدب ؛ فإن لم يقبل الأدب منّى ضربته بهذه العصا هكذا . ورفع العصا

يشير بها فأصابت الجرّة فانكسرت ، وانصبّ السمن والعسل على رأسه ولحيته .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتنتهي عن الكلام فيما لا تدرى . فاتّعظ الناسك بقولها . ثمّ إنّ المرأة ولدت غلاماً سويًّا فسرّ به أبوه ؛ حتى إذا كان بعد أيام قالت المرأة لزوجها : اقعد عند الصبي حتى أغتسل وأرجع إليك . فانطلقت المرأة . ولم يقعد الرجل إلّا قليلًا حتى جاءه رسول الملك فذهب به ، ولم يُخَلِّف مع ابنه أحداً ، إلّا أنه قد كان له ابن عِرس قد ربّاه فتركه الرجل عند ابنه ، وكان مؤدّباً معلّماً ، وذهب إلى الملك .

وكان فى بيته جُحر أسودَ ، فخرج يريد الغلام ، فوثب عليه ابن عِرس فقطّعه قِطَعاً . وأقبل الناسك عند انصرافه ، إلى منزله فدخله . فلقيه ابن عِرس يسعى إليه كالمبشّر له بما صنع . فلما نظر إليه الناسك متلطّخاً بالدم سلب عقله ، ولم يظن إلّا أنه قد قتل ولده . فلم يتأنّ ولم يتثبّت فى أمره ، فضرب ابن عِرس بعصا كانت معه فقتله . ودخل منزله فرأى الغلام حيًّا والأسود مقتولًا ، فأقبل يدقّ صدره ويلطم وجهه وينتف لحيته ، وجعل يقول : ليت هذا الغلام لم يولد ، ولم أصِر إلى هذا الإثم والغَدر . فدخلت عليه المرأة وهو يبكى فقالت له : ما يبكيك ؟ وما شأن هذا الأسود وابن عِرس مقتولين ؟ فأخبرها بالأمر وقال : هذا جزاء من يعمل بالعجلة ولا يتثبّت .



باب ابلاذ وايراخت وشادرم ملك الهند (١)

قال الملك للفيلسوف : قد فهمت ما ذكرتَ فى أمر العَجِل غير المتّئِد ولا الناظر فى العواقب . فأخبرنى ما الذى إذا عمل به الملك كَرُم على رعيّته ، وثبّت ملكه ، وحفِظ أرضه ؟ آلحلمُ أم المروءة أم الجود أم الجُرأة ؟

قال الفيلسوف : إنّ أفضل ما حَفِظ به الملكُ مُلكه ، وثبّت به سلطانه ، وكرّم به نفسه ، هو الحلم والعقل ، لأنهما رأس الأمور ومِلاكها ، مع مشاورة اللبيب الرفيق العالم . وأفضلُ ما يستمتع به الناس ، الحلمُ ، ثم للملك خاصةً ، فإنه لا شئَ أفضلُ ولا أعونُ منه . ومِن صَلاح المرء فى نفسه ومعيشته ، المرأةُ الصالحة الفاضلة الرأيِ المواتيةُ ؛ فإنّ الرجل إن كان شجاعاً ولم يكن حليماً عاقلاً ، أو كان حليماً عاقلاً وشاور غير لبيب ، فإنه يبهظه الأمرُ اليسير حتى يُرى فيه

القبيح والضعف ، بجهالته وخطأ رأى أصحابه ونصحائه . وإن أصابوا ظفراً أو لقُوا رشداً ساقه القدر إليهم ، صارت عاقبة أمرهم إلى الندامة . وإذا كان على خلاف ذلك من الفضل ومن نُبل الوزير ، ثم أعانه القضاء ، أصاب الفَلَج على من خاصمه ، والغلبة على من ناوأه ، والسرور له . كما زُعم لنا مما كان بين شاذَرَم ملك الهند ، وإيراخت امرأته ، وإبلاد صاحب سرّه ورأيه . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

ذُكر لنا أنّ إبلاد كان ناسكاً مجتهداً حسن الخُلق لبيباً حليماً حكيماً كاملاً . فبينما شاذَرَم الملكُ نائماً فى بعض الليالى إذ رأى ثمانية أحلام ، يستيقظ عند كل منها . فلما أصبح دعا بالبرْهميّين – وهم النُسّاك – فقصّ عليهم ما رأى ، وأمرهم أن يَعبُروها . فقالوا له : قد رأيت أيها الملك أمراً منكراً عجيباً لم نسمع بمثله فيما مضى ، فإن أحببت أن نفكّر فيها ستّة أيام ثم نأتيك فى اليوم السابع فنخبرَك به فلعلّنا – إن استطعنا – أن ندفع ما تخوّف منه . فقال الملك : نعم ؛ اعملوا برأيكم وما تعلمون أنه موافق . فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا فقالوا : ما طال العهدُ منه مُذ قتل منّا اثنى عشر ألفاً ، وقد استمكنّا منه ؛ فإذ أفضى إلينا بسرّه وعرّفنا فَرَقه من رؤياه ، فلعلّنا ننتقم منه إن نحن أغلظنا له فى القول ، فيحمله الخوف على أن يتابعنا على ما نريد ، فنأمره أن يدفع

إلينا من يكرُم عليه من أهله ووزرائه ، ونقول له : إنّا قد نظرنا فى كتبنا فلم نجد شيئاً يصرف عنك سوءَ ما رأيتَ إلّا قتلَ من نُسمّى لك . فإن قال : مَن تريدون ؟ قلنا له : إيراخت امرأتَك وابنها جُوبَرَ وابن أختك ، وإبلاد[1] صاحب أمرك - فإنه ذو حيلة وعلم - وكاك[2] كاتبَك ولسانك ، والفيلَ الأبيض الذى تقاتل عليه ، والفيلين العظيمين ، والفرس الذى تركبه ، والبُختىّ الذى تسير عليه ، وكَتايايرون[3] الفقيه ؛ لنجعل دماءهم فى أبزَن ثم نُقعِدكَ فيه . فإذا أردنا أن نُخرجك منه ، اجتمعنا ، معشرَ البراهمة ، من الآفاق الأربعة فرقيناك ومسحناك بالماء والأدهان الطيّبة ، ثم صيّرناك إلى مجلسك وقد أذهب الله عنك ما تجد من الحزن من سوء رؤياك التى رأيت . فإن أنت صبرت على هذا وطابت به نفسك ، نجوتَ من البلاء العظيم الذى قد رهقك وأشرف عليك ، واستخلفت مكانهم مثلهم ؛ وإن لم تفعل فإنّا نتخوّف أن يُنزَع مُلكك وتهلك ؛ ويُستأصل عَقِبك .

فلما أبرم البرهميّون أمرهم واتفقوا عليه ، أتوا الملك وقالوا : إنّا قد نظرنا فى كتبنا وتبحّرنا فيها ، وتفكّرنا فى رؤياك وأعملنا المقول فيها ؛ فلسنا نقدر أن نُعلِمك بما قد رأينا لك حتى تُخلِيَ لنا مجلسك . ففعل ذلك . فقصّوا عليه الأمر على ما اجتمعوا عليه . فقال الملك : الموتُ دون ما قلتموه ، وما أسمع منه .

أفأقتل هذه الأنفس التى هى عندى عِدلُ نفسى ، وأحتمل الإثم والوِزر ؟ ولا بدّ من الموت على كل حال . ولست ملكاً طولَ الدهر ، وسواء علىّ الهلاكُ وفراقُ الأحبة . فقال البرهميّون : إن أنت لم تغضب ، أخبرناك أنّ رأيك هذا مخطئ ، وأنك لم تصب إذ أهنتَ نفسك وآثرتَ عليها غيرها ، ولستَ لشئ غيرها مُكرِماً إذا أنت أهنتها . وأنت واجدٌ من هؤلاء عِوَضاً ، ولا تجد من نفسك عوضاً . ولعمرى لأن تَفدِيَها بما سمّينا لك ، أمثلُ وأخيَرُ ؛ فيبقى ملكك وسلطانك ، ويصلح أمرك . فانظر لنفسك ودع مَن سواها ، فإنه لا شئ يعدِلها .

فلما رأى الملك أنّ البرهميّين قد أغلظوا له فى القول واجترءوا عليه ، قام فدخل منزله ، ووقع لوجهه ، وجعل يتقلّب يميناً وشِمالاً محزوناً مهموماً ، ويفكّر فى رأيه : أىّ الأمرين يركب ؟ آلموتَ عياناً وهو ينظر إليه أو إعطاءهم ما سألوا ؟ فمكث كذلك أياماً . وفشا الحديث فى أرضه ، وقيل : لقد نزل بالملك أمرٌ هو منه فى كَرْب . فلما رأى إيلاد الأمر الذى وقع فيه الملك من ذلك ، فكّر ونظر ، وكان فَطِناً مجرّباً ، فقال : ما ينبغى لى أن أستقبل الملك بشئ دون أن يدعونى ، ولكنى أنطلق إلى إيراخت امرأةِ الملك فأسألها عن ذلك . فأتاها فقال : إنى لا أعلم الملكَ ركِب من أمره صغيرة ولا كبيرة ، منذ كنت

معه ، إلّا بمشورتى . وإنى كنت صاحبَ سرّه ولم يكن يكتمنى شيئاً طرأ عليه . وكان إذا حزبه أمر مُفظِع ، عزّى نفسه فيه واصطبر على ما نزل عليه منه ، وذكر لى ذلك ، فأسلّيه عن أمره بأرفقِ ما أقدِر عليه . وإنى أراه مستخلياً بالبرهميّين منذ سبعةِ أيّام ، وقد احتجب فيها عن الناس . وإنى أخاف أن يكون قد أطلعهم على دخيلة أمره ، ولست آمَنُهم عليه ؛ فاذهبى إليه وسَليه عن حاله وما بلغه وما الذى ذكروا له . ثم أعلمينى ، فإنى لا أستطيع أن أدخل عليه . وإنى لأحسبهم قد زيّنوا له أمراً قبيحاً وحملوه على عظيمة أو أغضبوه بشئ شبّهوا له فيه . فإنّ مِن أخلاق الملك ، إذا هو اغتاظ ، ألّا يلتفت إلى أحد ولا يسأل عن شئ ولا ينظر فيه ، وسواء عليه جسيم الأمور وحقيرها . ولست أشكّ أنهم لم يَنصَحوه ، لما فى قلوبهم من الحقد عليه والبغض له ، وأنهم إن قدَروا على هَلَكته التمسوا له الحيـلة فى ذلك . قالت إيراخت : إنه كان بينى وبين الملك كلام ، ولست آتيـه ما دام حزيناً . قال إيلاذ : لا تحمِلنّ الحقد فى مثل يومك هذا ، فلن يقدر أحد أن يدخل عليه غيرُكِ . وقد كنت سمعتُه يقول غير مرة : إنى إذا حزنت واهتممت فأتتنى إيراخت سُرّى ذلك عنى . فانطلقى إليه وكلّميه بما تظنّين أنه تطيب به نفسه ويُجلّى عنه ما به . فلما سمعت ذلك إيراخت نهضت إلى الملك فدخلت عليه وجلست

عند رأسه وقالت له : ما أمرك أيها الملك السعيد المحمود ؟ وما الذى قال لك البرهميّون ؟ فإنى أراك مهموماً حزيناً ؛ فإن كان الذى ينبغى لك أن تحزن له أمراً فيه أجَلُنا ، وهو جَلاء همّك وسرورُك ، واسيناك بأنفسنا ، فافعل ذلك ؛ وإن يك غضَباً علينا ، نُرضِك ونأتِ ما يسرّك . قال الملك : لا تسأليني أيتها المرأة عن شئ فتزيديني خبالًا على ما بى ؛ فإنه لا ينبغى أن يُعلَم ذلك ، لعظم خطره وشدة هوله . قالت إيراخت : وقد صار أمرى عندك إلى أن تجيبنى بمثل ما قد سمعت ! أوَ ما تعلم أنّ أفضل الرأى للملك ، إذا وقع به الأمر الذى يَبهظُه ، أن يشاور أهل نصيحته ومودّته ومَن يُهمّه أمره وهمّه وما أحزنه ؛ فإنّ المذنب لا يقنط من الرحمة ، ولكنه يتوب مما يخاف مغبّته . فلا يدخلنّك من الهمّ والحَزَن ما أرى بك ، فإنهما لا يرُدّان شيئاً بل يُشمِتان العدوّ ويسوءان الصديق . وأهلُ العلم والتجارب ينظرون فى ذلك ، ويَصبِرون أنفسهم على ما فاتهم من عَرَض الأطماع وما نزل بهم من حوادث الزمان . فقال الملك : أيتها المرأة لا تسأليني عن شئ ؛ فإنّ فى الذى تفحصين عنه دَمارى وهلاكك وولدِك وكثيرٍ من أهل وُدّى ؛ فإنّ البرهميّين زعموا أنّ لا بدّ من قتلك وقتل أهلى ونصحائى ، ولا خير لى فى العيش بعدكم ، ولا لذّة لى بعد فراقكم ، وذلك أفظع الأمور وأجلّها خطراً فى نفسى . قالت إيراخت : لا يُحزِنك الله أيها الملك ولا يسُؤك ؛ أنفسنا لك

الفداء ، فإنّ ذلك يسير فى صلاحك وبقائك . وقد جعل الله لك من الأزواج ما فيه الخَلَف والعِوَض ؛ ولكن أطلب إليك بعد موتى ألّا تثق بالبرهميّين ولا تستشيرهم ولا تقبل رأى أحد منهم ، حتى تؤامر فيه أهل نصيحتك والثقةِ لك ، وتعرفَ ما تُقدِم عليه فيه من القتل . فإنّ القتل عظيمُ الخطبِ شديدُ الوِزر ، ولست تقدر أن تُحيِيَ مَن أهلكت . وقد قيل : إن وجدت جوهراً لا تظنّ به خيراً فأردت أن تلقيه فلا تفعل حتى تُرِيَه مَن يُبصره . ولا تُقِرّ عينَ عدوّك من البرهميّين وغيرهم . واعلم أنهم لن ينصحوك أبداً ، وقد قتلت منهم منذ قريب اثنى عشر ألفاً ، أفتظنّ أنهم نسوا ذلك ؟ ولعمرى ما كنتَ جديراً أن تحدّثهم برؤياك ، ولا تُطلِعهم على سرّك ، فإنهم إنما يريدون بما عبّروا به رؤياك ، زوالَ ملكك ، وبوارَ أحبّائك ، واستئصال وزرائك أهلِ العلم والحلم والحكمة ، ومراكبِك التى تقاتل عليها الملوك ؛ ولكن انطلق إلى كتايايرون فاذكر له ذلك وسلْه عما أحببت ؛ فإنه لبيب أمين - وليس عند هؤلاء شئ إلّا وعنده أفضلُ منه - وإن كان أصلُه من البرهميّين ، فإنه ناسك مجتهد فقيه ؛ فإن أشار عليك بمثل رأيهم فانتهِ إليه ، وإن خالفهم فاعلم أنّ أولئك الكَذَبة أعداؤك ، أرادوا إدخال النقص عليك فى مُلكك .

فلما سمع الملك ذلك منها تسلّى همّه وأمر بإسراج فرسه ، وركبه وانطلق

إلى كتايايرون . فلما انتهى إليه نزل عن فرسه ثم سجد له وحيّاه وطأطأ رأسه . فقال له كتايايرون : ما جاء بك أيها الملك ؟ وما لى أراك متغيّرَ اللون ممتلئاً همّا وحزناً ، ولا أرى على رأسك التاج ولا الإكليل ؟ فقال له الملك : كنت نائماً ذات ليلة على ظهر إيوانى فسمعت من الأرض ثمانية أصوات ، أستيقظ مع كل صوت ثم أرقد ؛ فرأيت ثمانية أحلام ، فقصصتها على البرهميّين ، فأجابونى بما أخاف أن يصيبنى منه أمر عظيم : إمّا أن أُقتل فى حرب وإمّا أن أُغصَب مُلكى وأُغلَب عليه . فقال كتايايرون : لا يَحزُنك أيها الملك هذا الأمر ولا يُوجِلنّك ؛ فإنك لن تموت الآن ، ولن تُسلَب ملكك ، ولن يصيبك شئ من الشرّ ولا يصل إليك محذور . فأما الأحلام الثمانية التى رأيت فاقصصها فإنى مُنبّئك بتأويلها . فقصّ عليه الملك الرؤيا . فقال كتايايرون : أما السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين على أذنابهما تستقبلانك ، فإنه يأتيك من قبل هَمْيون[1] رسولٌ بدَرج فيه من الجوهر ما قيمته أربعة آلاف رطل من الذهب . وأما البطتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك ، فإنه يأتيك من قبل ملك بَلْخ من يقوم بين يديك بفرسين ليس فى الأرض مثلهما . وأما الحيّة التى رأيتها تدِبُّ على رجلك اليسرى ، فإنه يأتيك من عمل صَنْجين[2] مَن يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله . وأما

ما رأيت أنه يُخضَب جسدُك كله بالدم ، فإنه يأتيك من قبل ملك كاسَرون[٦] من يقوم بين يديك بلباس مُعجِب يسمّى حُلة أرجوان يضئ فى الظُلمة . وأما ما رأيت من غسل جسدك بالماء ، فإنه يأتيك من قِبَل ملك زَرْنِي[٧] من يقوم بين يديك بثياب من لباس الملوك ليس يُعرف قيمتها ، وفيلٍ أبيض لا تلحقه الخيل . وأما ما رأيت على رأسك شبيهَ النار ، فإنه يأتيك من عند الملك جَبار[٨] من يقوم بين يديك بإكليل من ذهب . وأما قيامك على الجبل الأبيض فإنه يأتيك من قبل/كَيْدَرون[٩] من يقوم بين يديك بفيل أبيض لا تلحقه الخيل . وأما الطير الأبيض الذى نقر رأسك بمنقاره فلست أفسّره لك اليوم ، وليس بضارّك ، فلا توْجلنّ منه ؛ ولكنّ فيه بعض السخط والإعراض عمّن تحبّ . فأما البُرُد والرسُل فإلى سبعة أيام يأتونك حتى يقوموا بين يديك .

فلما سمع الملك ذلك سجد بين يديه وانصرف وقال : إنى ناظر فيما قال كتاايرون . فلما كان اليوم السابع لبس ثيابه وأخذ زينته وجلس فى مجلسه وأذن للعظماء والأشراف ، فجاءته تلك الهدايا التى قال[١٠] كتاايرون حتى وقفوا بين يديه . فلما رأى الملك الرسل والهدايا فرح بها وقال فى نفسه : لم أوفّق حين قصصت رؤياى على البرهميّين وأمرونى بما أمرونى به . ولولا أنّ الله - جلّ اسمه - رحمنى وتداركنى برأى إيراخت ، كنت قد هلكت وزالت دنياى .

فلذلك ينبغى لكلّ أحد أن يسمع من الأخيار والأخِلّاء وذوى القرابات رأيهم ويقبلَ مشورتهم ؛ فإنّ إيراخت أشارت علىّ بالرأى الذى انتفعتُ به فى بقاء مُلكى ، والذى ترون من الفرح والسرور . فقال إبلاد له : لا يعمل المرء شيئاً من الأشياء - صغيراً أو كبيراً - إلّا برأى أهل المودّة والخير . ثم دعا الملك بإيراخت وولدها جُوبَر وكاك الكاتب وإبلاد وقال لهم : لا ينبغى لنا أن ندخل هذه الهدايا خزائننا ؛ ولكنى قاسِمُها بينكم - أنتم الذين وطّنتم أنفسكم على الموت فى سببى - وبين إيراخت التى أشارت علىّ بالرأى الذى انتفعت به فى بقاء ملكى . فقال إبلاد : إنه لا ينبغى لنا ، معشر العبيد ، أن ندنوَ من هذه الهدايا ؛ فأما جُوبَر ابنُك فهو لها أهل ؛ فليأخذ ما أعطيتموه . فقال الملك : إنه قد شاع لنا فى البلاد من هذا ثناء حسن وخير كثير ؛ فلا تحتشم يا إبلاد وخذ نصيبك وقرّ به عيناً . فقال إبلاد : ليكن من ذلك ما أحبّ الملك ، وليبدأ بأخذ ما يريد . فأخذ الملك الفيل الأبيض ، وأعطى جُوبَر أحد الفرسين ، وأعطى إبلاد السيف الخالص الحديد ، وأعطى الكاتب الفرس الآخر ، وبعث إلى كتايايرون الثياب الكتّان التى يلبس الملوك ، وأما الإكليل وسائر اللباس مما كان يصلح للنساء ، فقال : يا إبلاد خذ الإكليل وسائر اللباس فاحملها معى واتبعنى إلى مجلس النساء .

فلما انطلق إليه دعا بإيراخت ومُسامِيَتها فجلستا بين يديه وقال : يا إبلاد ضع الكسوة بين يدى إيراخت فلتأخذ أيَّها شاءت . فلما نظرت إيراخت إلى الإكليل والثياب وأعجبها منظرها ولم تدر أيُّهما تأخذ ، نظرت إلى إبلاد بمُؤْخِرِ عينها ، ليُريها أيُّهما أفضل . فأراها إبلاد الثياب وأشار عليها بأخذها ، فأخذتها ؛ وكانت شارته إليها أن غمزها بعينه . وحانت من الملك التفاتة فرأى إبلاد وقد غمز إيراخت . فلما رأت إيراخت أنّ الملك قد أبصر إبلاد وإيماءه إليها تركت الثياب وأخذت الإكليل مخافة أن يظنّ الملك بهما سوءًا . وعاش إبلاد بعد ذلك أربعين سنة كلما دخل على الملك كسر عينيه خوفاً أن يظنّ الملك أنه أراها بعينه شيئاً ، وخوفاً أن يتّهمه بأمر . فلولا عقل المرأة ومعرفة الوزير لم ينج واحد منهما من الموت .

وكان الملك يكون ليلةً عند إيراخت وليلة عند مُساميتها . فأتى إيراختَ فى ليلتها - وقد صنعت أرزاً - فدخلت على الملك وفى يدها صحفة من ذهب والإكليل على رأسها ، فقامت على رأس الملك بالصحفة وهو يَطعَمَ منها . فلما رأت مُساميتُها الإكليل على رأس إيراخت ، غارت فلبست تلك الثياب ومرّت بين يديه - وكانت كالشمس حسناً - فأضاء كلّ ما حولها فاشتاف إليها ، وقال لإيراخت : إنك جاهلة حين أخذتِ الإكليل وتركتِ الثياب التى ليس فى

خزائننا مثلُها . وإنّ جُورْبَناه[١١] لأحسنُ منكِ عقلًا وأكملُ رأيًا وأشبهُ بنساء الملوك منك . فلما سمعت ذلك منـه ، مع ما عاينَت ، غضبت وضربت بالصحفة رأس الملك فسال الأرز على رأسه ووجهه ولحيته . وكان ذلك عبارةَ الحلم الثامن الذى كتمه إياه كتايارون ولم يكن بيّنه له . فدعا الملك بإبلاد ، فدخل عليه . فقال : يا إبلاد أما ترى إلى ما فعلته هذه المرأة بى ، وكيف استخفّت بى وحقّرتنى وعمِلت ما عملت ؟ فما أعلم أنّ ملكاً قطّ اجترِئ عليه بمثل ما ركبَت هذه الحمقاء منّى ! انطلِق بها فاضرب عُنُقها ولا ترحمها . فخرج إبلاد بإيراخت من عند الملك ، وقال فى نفسه : ما أنا بقاتِلِها حتى يسكن غضب الملك ؛ فإنّها امرأة عاقلة لبيبة حريصة على الخير ، سعيدة من الملكات ، ليس لها فى النساء عديل فى الحلم والعقل ، وليس الملك صابراً عنها . وقد خلّص الله بها اليوم بشراً كثيراً من القتل ، وعملت أعمالًا صالحة . ونحن نرجوها بعد اليوم ، ولست آمَن أن يقول الملك : ما استطعتَ أن تؤخّر قتلها ! فلستُ بقاتلها حتى أنظر رأى الملك فيها ؛ فإن ندم على قتلها وحزن جئته بها حيّة ، وكنت قد عملت ثلاثة أعمال : أنجيتُ إيراخت من القتل ، وفرّجتُ على الملك حزنه ، وافتخرتُ بذلك على سائر الناس . وإن لم يذكرها ، ولا اشتاق إليها ، أمضيت أمره فيها .

وانطلق بها إبلاد إلى منزله سرًّا ، فوكّل بها رجلين من أمناء الملك الذين يلون أمر نسائه ، وأمرَ أهله بحفظها والاستيصاء بها وإكرامها حتى ينظر كيف يكون أمرُها. ثم خضب سيفه بالدم ودخل به على الملك كئيباً حزيناً ، وقال : قد أمضيتُ أمر الملك فى إيراخت . فلم يلبث الملك أن سكن غضبه ، فذكر جمال إيراخت ورأيها وعظيم غَنائها ، فاشتدّ حزنه وجعل يقوّى نفسه ويتجلّد ، وهو على ذلك يستحى أن يسأل إبلاد ، ويرجو ألّا يكون قتلها . ونظر إبلاد إلى الملك فعلم ما فى نفسه بفضل علمه ، فقال : لا تحزن أيها الملك ولا تغتمّ ، فإنه ليس فى الحزن والهمّ منفعة ، ولكنهما يُنحِلان الجسم ويُفسِدانه ، مع ما يدخل على أهل وُدّ الملك أيضاً من الحزن إذا حزن ، وفَرَح أعدائه وشماتتهم ، فإنه إذا سمعوا به لم يُعَدّ من صاحبه عقلًا ولا حزماً . فاصبر أيها الملك ، ولا تحزَن على ما لستَ بناظر إليه أبداً. فإن أحبّ الملك حدّثتُه بشبيه أمره هذا . قال الملك : حدثنى يا إبلاد . قال إبلاد :

زعموا أنّ حمامتين - ذكراً وأنثى - ملأا عُشّهما من البرّ والشعير . فقال الذكر للأنثى : أمّا ما وجدنا فى الصحارى ما نعيش به فلسنا نأكل مما فى عشّنا شيئاً . فإذا جاء الشتاء ولم نُصِب فى الصحارى شيئاً أقبلنا على ما فى عُشّنا فأكلناه . فرضيت الأنثى بذلك وقالت : نِعم ما رأيت . وكان ذلك

الحب نديًا حين وضعاه ، فامتلأ عشهما منه . وانطلق الذكر فى بعض أسفاره . فلما جاء الصيف يَبِس ذلك الحبّ ونقص عمّا كان فى العين . فلما رجع الذكر فرأى الحبّ ناقصاً قال للأنثى : أليس كنّا قد اجتمعنا على ألّا نأكل من عُشّنا شيئاً ؟ فلِمَ أكلت ؟ فحلفت الأنثى أنها ما أكلت منه حبّة . فلم يُصَدِّقها وجعل ينقرها ويضربها حتى قتلها . فلما جاء الشتاء والأمطار نَدِيَ الحبّ ، وعاد إلى ما كان عليه ، وامتلأ العشّ كما كان . فلما رأى ذلك الذكر ، نَدِم واضطجع إلى جانبها وناداها : كيف ينفعنى العيش إذا طلبتك فلم أقدر عليك ؟

فمن كان عاقلًا علم أنه لا ينبغى أن يَعجَل بالعذاب والعقوبة ، ولا سيما بعذاب من يخاف أن يندم عليه كما ندم الحمام الذكر .

وقد سمعت أنّ رجلًا كان على ظهره كارةُ عَدَس فدخل بين شجر كثير فوضع حمله ورقد . فنزل قرد كان فى الشجرة التى نام تحتها ، فأخذ مِلء كفه من ذلك العدَس ، ثم صعد فى الشجرة فسقطت من يده حبة فطلبها فلم يجدها ، وانتثر العَدَس من يده فلم يقدر على جمعه . وأنت أيها الملك عندك ستةَ عشر ألف امرأة تدعُ أن تلهوَ بهنّ وتطلب التى لا تجد ! فلما سمع الملك ذلك خشى أن تكون إيراخت هلكت ، فقال لإيلاذ : أفى سقطة واحدة كانت منّى فعلتَ ما أمرتك به من ساعتك ، وتعلّقت بكلمة واحدة ، ولم تتثبّت فى الأمر ؟ قال إيلاذ : إنّ الذى

قوله واحد ، لا يختلف كلامه عندى ، واحد . قال الملك : ومن ذلك ؟ قال : الله ، عز وجل ، الذى لا يبدّل كلامه ولا يختلف قوله . قال الملك : اشتدّ حزنى لقتل إيراخت . قال إبلاد : اثنان ينبغى لهما أن يشتدّ حزنهما : الذى يعمل الإثم ، والذى لم يعمل برًّا قط ؛ لأنّ فرحهما فى الدنيا قليل . قال الملك : لئن رأيتُ إيراخت حيّة لا أحزنُ أبداً . قال إبلاد : اثنان لا ينبغى لهما أن يحزنا أبداً : المجتهد فى البرّ ، والذى لم يأثم قطّ . قال الملك : ما أنا بناظر إلى إيراخت سوى ما نظرتُ . قال إبلاد : اثنان لا ينظران أبداً : الأعمى والذى لا عقل له ؛ فإنه كما أنّ الأعمى لا يبصر السماء ولا النجوم ولا الأرض ، ولا يبصر القريب ولا البعيد ولا أمامه ولا خلفه ، كذلك الذى لا عقل له ، لا يبصر منفعته من مضرّته ، ولا يعرف العاقل من الجاهل ، ولا الحسن من القبيح ، ولا المحسن من المسىء . قال الملك : لئن رأيتُ إيراخت ليشتدّنّ فرحى . قال إبلاد : اثنان هما يَرَيَان وينبغى لهما أن يشتدّ فرحهما : البصير والعالم ؛ فكما أنّ البصير يُبصر نور العالَم وما فيه ، كذلك العالِم يبصر الإثم فيجتنبه ، والبرّ فيعمله ويهدى من اتّبعه إلى سبيل الخير . قال الملك : ما شبعتُ من رؤية إيراخت قطّ . قال إبلاد : اثنان لا يشبعان أبداً : الذى لا همّ له إلّا جمعُ المال ، والذى يأكل ما يجد ويسأل ما لا يجد . قال الملك : إنه لينبغى لنا أن نتباعد عنك يا إبلاد !

فإنك بذلك جدير. قال إبلاد: اثنان ينبغى أن يتباعَد منهما: الذى يقول: لا عذاب ولا حساب ولا ثواب ولا شئ إلّا ما هو فيه، والذى لا يقدر أن يَصرِف بصرَه عن شهواته وعما ليس له، ولا أذنه عن استماع السوء، ولا فرجه عن نساء غيره، ولا قلبه عما يهمّ به من ركوب الإثم، فيصيرُ أمرُه إلى الندامة والهوان وخِزىِ الأبد الدائم. قال الملك: صرتُ من إيراخت صِفراً. قال إبلاد: ثلاثة هنّ أصفار: البحر الذى ليس فيه ماء، والأرض التى ليس فيها ملك، والمرأة التى ليس لها زوج. وأخرى: من لا يعرف الخير من الشرّ. قال الملك: إنك لمُلَقّى الجواب يا إبلاد! قال إبلاد: ثلاثة هم ملَقّون الجواب: الملك الذى يَقسم ويعطى من خزائنه، والمرأة المسمّاة لبعض من تَهوَى من ذوى الأحساب، والرجل العالم الذى قد تفرّغ للعبادة. قال الملك: لقد ازددتُ حزناً بتعزيتك يا إبلاد. قال إبلاد: ثلاثة ينبغى لهم أن يحزنوا: الذى فرسه سمين حسن المنظر سيئ المخبر، وصاحب المرقة التى كثير ماؤها قليل لحمها ولا طعم لها، والذى ينكح المرأة الحسيبة ولا يقدر على إكرامها فلا تزال تُسمعه ما يؤذيه. قال الملك: هلكَت إيراخت ضَيعة فى غير شئ! قال إبلاد: ثلاثة يضيعون فى غير حقّ: الرجل يلبس الثياب البيض فلا يزال عند الكير جالساً فيسوّدها بالدخان، والقصّار يلبس الخُفّين الجديدين

ثم لا تزال قدماه فى الماء ، والرجل التاجر يتزوّج المرأة الحسناء الشابّة ثم لا يزال بأرض بعيدة . قال الملك : إنك لأهلٌ أن تعذَّب أشدّ العذاب . قال إبلاد : ثلاثة ينبغى لهم أن يعذّبوا : المجرم الذى يعاقِب مَن لا ذنب له ، والمتقدّم إلى مائدة لم يُدعَ إليها ، والذى يسأل أصدقاءه ما ليس عندهم ولا يُدع مسألتهم . قال الملك : إنه لينبغى لك أن تسفَّه يا إبلاد . قال إبلاد : ثلاثة ينبغى لهم أن يسفَّهوا : النجّار الذى ينزل البيت الصغير بأهله ثم لا يزال ينحت الخشب فيملأ بيته فأهله فى ضيق وضرر ، والذى يتكلف الحلق بالموسى ولا يُحسِن فيُفسِد عمله ويعقِر صاحبه ، والغريب المقيم بين ظَهرانَى عدوّه ولا يريد الرجوع إلى أهله فإن مات - مع غربته - ورثوه فيصيرُ ماله للغرباء ويُنسى ذكره . قال الملك : كان ينبغى لك أن تسكت حتى يهدأ غضبى يا إبلاد ! قال إبلاد : ثلاثة ينبغى لهم أن يسكتوا : الذى يرقى فى الجبل الطويل ، والذى يصيد السمك ، والذى يَهمّ بالفعل الجسيم . قال الملك : ليتنى قد رأيت إيراخت يا إبلاد ! قال إبلاد : ثلاثة يتمنّون ما لا يجدون : الفاجر الذى لا ورع له ويريد - إذا مات - منزلةَ الأبرار فى الآخرة ، والبخيل الذى يريد منزلة السَمْح الجواد ، والفجرة الذين يسفكون الدماء - بغير حق - ويرجون أن تكون أرواحهم مع الشهداء الأتقياء . قال الملك : لقد أوجعتَ قلبى يا إبلاد .

قال إبلاد : ثلاثة هم أوجعوا قلوبهم : الذى يأتى القتال ولا يتقى فيُقتل ، والكثير المال الذى لا ولد له وتجاراته فى الربا والغلاء على الناس ، فربما حسده بعضهم فقتله ، والشيخ الكبير ينكح المرأة الحسناء الفاجرة الجريئة على ما لا تزال ترتكبه ، فلا تبرح تتمنّى موته لتنكح زوجاً غيره شابًّا ، فيكون هلاكه على يديها . قال الملك : إنى لحقير فى عينك يا إبلاد ! قال إبلاد : ثلاثة يَحقِرون أربابهم : الذى يهذى بالكلام ويحدّث بما لا يُسأل عنه ويقول ما يعلم وما لا يعلم ، والمملوكِ الغنيّ وسيده فقير فلا يعطى سيّدَه شيئًا من ماله ولا يمتدّ به ، والعبد الذى يُغلظ لسيّده فى القول ويستطيل عليه . قال الملك : إنك لتسخر بى يا إبلاد ! ليت إيراخت لم تكن ماتت ! قال إبلاد : ثلاثة ينبغى أن يُسخَر منهم : الذى يقول : شهدت زُحوفاً كثيرة فأكثرتُ القتل ، ولا يُرَى فى جسمه شئٌ من آثار القتال ، والذى يُخبِر أنه عالم بالدين ناسك مجتهد وهو بادِنٌ غليظ الرقبة لا يُرَى عليه أثر التخشع ، والمرأة التى تذكر أنها عذراء وليست بعفيفة ولا حَصان . قال الملك : إنك لمتجبّر يا إبلاد ! قال إبلاد : ثلاثة يشبهونَ المتجبرين : الجاهلُ الموسوس الذى يتعلم ورده على العالم فلا يقبل منه وعاريه يجهله ولا يحجزه ذلك عن أن يعود لأمثاله ، والذى يَهيج السفيه ويتحرّش به فيُسمعه أذاه والكذبَ عليه فيؤذى

بذلك نفسه ، والذى يُفضى بسرّه إلى من يذيعه ويُدخله فى الأمر العظيم ويثق به ثقته بنفسه . قال الملك : أنا الذى شققت على نفسى ! قال إبلاد : اثنان هما جلبا المشقة على أنفسهما : الذى ينكص على عقبيه ويمشى القهقرى فربما عثر فوقع فى مهواة فينكسر ، والذى يقول : لست أهاب القتال ولا أتقيه فيغتر غيره به فإن لقى عدوًّا كان همّه الفِرار . قال الملك : قد تصرّم ما بينى وبينك يا إبلاد ! قال إبلاد : ثلاثة لا يلبث وُدّهم أن يتصرّم : الخليل الذى لا يلاقى خليله ولا يكاتبه ولا يراسله ، والرجل الذى يُكرِمه أحبّاؤه فلا يُنزِل ذلك منهم منزلتــه ولا يقبله بقبوله ولــكن يستهزئ بهم ويسخر منهم ، والمعاطى أخِلّاءه فى الفرح والنعيم وقرة العين يسألهم أموراً لا يقدرون عليها . قال الملك : قد عملتَ بقتــل إيراخت عملًا يُستدَل به على قلة عقلك وخفة حلمك يا إبلاد ! قال إبلاد : ثلاثة يعملون بجهلهم ما يُستدَلّ به على خفة أحلامهم : المستودع ماله مَن لا يعرف ، والأبله القليل العقل الجبان ثم يخبر الناس أنه شجاع مقاتل ، والذى يزعم أنه تارك لأمور الجسد مقبل على أمور الروح وهو لا يُلفَى إلّا متابعاً لهواه . قال الملك : إنك لغَيرُ عاقل يا إبلاد ! قال إبلاد : ثلاثة لا ينبغى لهم أن يُعَدّوا من أهل العقل : الإسكاف الذى يجلس على المكان المرتفع فإذا تدحرج شئ من أداته شغله عن كثير من عمله ، والخيّاط

الذى يُطيل خيطه فإذا تعقّد شغَله تخليصه عن خياطته ، والذى يقصّر من شعور الناس ويلتفت يميناً وشمالاً فيفسد عمله . قال الملك : يا إبلاد كأنك تريد أن تعلّم الناس حتى يمهروا وتعلّمنى أيضاً حتى أكون ماهراً ! قال إبلاد : ثلاثة زعموا أنهم مَهَروا وينبغى لهم أن يتعلّموا : الذى يضرب بالصنج والعود والطبل حتى يوافق المزمار وسائر الألحان ، والمصوّر الذى يحسن خطّ التصاوير ولا يحسن خلط الأصباغ ، والذى يزعم أنه ليس بمحتاج إلى علم شئ من الأعمال . قال الملك : إنك يا إبلاد تعمل بغير الحق . قال إبلاد : أربعة يعملون بغير الحق : الذى لا يصدُق لسانه ولا يحفظ قوله ، والسريع فى الأكل البطئ فى العمل والحرب وخدمة من فوقه ، والذى لا يستطيع أن يُسكّن غضبه ، والملك الذى يهمّ بالأمر العظيم ويرتكبه . قال الملك : لو عملتَ بسنّتى لم تقتل إيراخت يا إبلاد . قال إبلاد : أربعة يعملون بالسنّة : الذى يصنع الطعام وينظفه لسيده ثم يقدمه إليه فى إبّانه ، والذى يرضى بامرأة واحدة ويُحصِن فرجه عن نساء غيره ، والملك الذى يعمل الأمر العظيم بمشاورة العلماء ، والرجل الذى يقهر غضبه . قال الملك : إنى لخائف منك يا إبلاد . قال إبلاد : أربعة يخافون مما لا ينبغى : الطائر الصغير الذى فى الشجر يرفع إحدى رجليه مخافة أن تسقط السماء عليه فيدفعها[١٢] بها ، والكُركىّ الذى يقوم على إحدى رجليه

مخافة أن تنخسف الأرض به إن وضع الأخرى ، والدودة التي تكون في الأرض وطعامها التراب فتقلّ من الأكل مخافة أن يفنى التراب فهي من ذلك خائفة ، والخفّاش الذي يمنعه من الطيران بالنهار أنه يرى أنْ ليس على الأرض طائر أحسنُ منه فيخاف أن تصيده الناس فيحبسوه عندهم . قال الملك : أكنتَ نذرتَ أن تقتل إيراخت يا إيلاد ؟ قال إيلاذ : أربعة ينبغي لهم أن تُقبَل فيهم النذور ألّا يفارَقوا : الفرس الجواد الثمين الذي هو عُدّة مولاه ، والثور الذي يُحرث عليه ، والمرأة العاقلة المحبة لزوجها ، والعبد المجتهد الناصح في الخدمة الصادق الهائب لسيّده . قال الملك : لن تطيب نفسي بقتل إيراخت يا إيلاد . قال إيلاذ : ثلاثة ينبغي لهم أن يحزنوا : العاقل الذي يجيبه الجاهل بما لا ينبغي ولا يُقبَل منه ، والرجل الرغيب البطين الغنيّ من المال ، والرجل السيئ الخبيث النفس . قال الملك : ما ينبغي لنا مخالطتك يا إيلاد . قال إيلاذ : أربعة لا يخالِط بعضهم بعضاً : النهار والليل ، والبرّ والفاجر ، والظُلمة والنور ، والخير والشرّ . قال الملك : لقد أثبتَّ في نفسي عليك حِقداً بقتلك إيراخت يا إيلاد . قال إيلاذ : أربعة الحقد فيهم ثابت : الذئب والخروف ، والسنّور والجرذ ، والبوم والغربان ، والبازي والدُرّاج . قال الملك : أفسدت حكمتك يا إيلاد . قال إيلاذ : أربعة يفسدون أعمالهم : المفسد الحسناتِ بالسيئات ،

والملك يكرم العبد ، والوالدان يفضّلان المفسدَ من أولادهما على المصلح ، والمؤتمِنُ المحتالَ الواشيَ على السرّ . قال الملك : أما لك رحمة فترحمنى يا إبلاد ؟ قال إبلاد : خمسة لا رحمة لهم : الملك الحقود الحذِر فى القول ، والحامل الموتى بالأجر ، واللصّ المراقب للمساء ليُغير على الناس فيسرقهم ، والصادُّ الناسَ عن القصد إلى الجور ، والجرئ الجاهل الْمُقدِم على ما ليس له وإن أتلف نفسه ونفس غيره فى طلب حاجته وشحه . قال الملك : من ردّ علىّ إيراخت فله عندى من المال ما أحبّ . قال إبلاد : إنّ الذين يحرصون على ما ذكرتَ فيحبّون جمعه من غير الحق ، وهو آثرُ عندهم من أنفسهم ، خمسة نَفَر : المقاتل الذى لا نيّة له ولا رويّة إلّا فى إصابة الطمع ونيله ، واللصّ الذى ينقُب البيوت ويعرض لابن السبيل فتُقطع يده أو يقتل ، والتاجر الذى يركب فى البحر يطلب الدنيا ، وصاحب السجن الذى يتمنّى أن يكثر أهلُه فيصيبَ منهم ، والقاضى الذى يأخذ الرشوة فيجور فى الحكم . قال الملك : أفسدت علىّ العيش يا إبلاد ! قال إبلاد : الذى يكون على ما وصفتَ ، سبعة[13] نَفَر : الفقيه العالم الذى لا يُعرف بذلك فيُقتبسَ منه ، والملك الذى يأتى المعروف إلى كل غامطٍ كفور منكرٍ لكل ما يصنع ، والعبد الذى يكون سيّده فظًّا غليظًا لا رحمة له ، والمرأة التى تحبّ ولدها وهو فاسق خبيث وتستر عليه سيّئ أموره وتغفرها له ،

والمرء يأمن الفاجرَ الغادرَ الجرىءَ على ركوب المحارم ويسترسل إليه، والذى يسرع ملامه إلى الخلّان، والذى لا يراقب الله ولا أهل الدين والصلاح. قال الملك: لقد كرهتُ قتل إيراخت. قال إبلاد: سبعة أشياء مكروهة: الشيخوخة التى تَسلُب الشباب، والوجع الذى يُنحِل الجسم ويَنزِف الدم، والغضب الذى يُفسد علم العلماء وحُكم الحكماء، والهمّ الذى يَنقص العقل ويسلّ الجسم[١٤]، والبرد الذى يغيّر النبات، والجوع والعطش اللذان يجهدان كلّ شئ، والموت الذى يفسد جميع البشر. قال الملك: ما ينبغى لى أن أكلّمك بعدها يا إبلاد. قال إبلاد: ثمانية نفر لا يستقيم القولُ معهم ولا العملُ: المشاوِرُ مَن لا حلم له، والذى يصرف الكذبُ قلبَه عن أخيه، والمعجَب بنفسه، والمستبدّ برأيه، ومن مالُه آثرُ عنده من نفسه، والضعيف الذى يسافر السفر البعيد، والذى يعاند سيّده ومعلّمه وهما مسلّطان عليه، ومن يلقى ذا مودّة بالخصومة والجدال. قال الملك: لأهتمّ وأحزن إذا رأيتُ اثنى عشر ألف امرأة وليس فيهنّ إيراخت. قال إبلاد: ليس أحد بحقيق أن يحزن على المرأة إذا كان فيها أربعة أشياء: إذا كانت جاهلة جريئة على أمرها، أو خفيفة اليد لصّة تذهب بما أسديتَ لها، أو عمياء لا جمال لها ولا حسب، أو سيئة الخلق غير مواتية. قال الملك: لم يُصبنى قطّ وجع أشدّ علىّ ممّا وصل إلىّ من إيراخت، لحلمها وعقلها.

قال إيلاذ : خمسة أشياء إذا كنّ فى المرأة كانت أهلًا لأن يُحزَن عليها : إذا كانت كريمة الحسب عظيمة المنزلة فى قومها ، أو لبيبة عاقلة ، أو حسناء كاملة صورة الوجه والخلق ، أو حَصانًا حيِيّة ميمونة الطائر ، أو مؤاتية لزوجها راضية به متحنّنة عليه . قال الملك : لا أرى لإيراخت فى النساء شبيهاً . قال إيلاذ : أربعة نفَر لا ينصرفون عن حالهم : المرأة التى تعودت كثرة الأزواج فلا ترضى بقلّتهم ، والرجل الذى قد جرى لسانه بالكذب فإذا أراد الصدق اشتد عليه ، والرجل الغليظ الكَدِن المعجَب برأيه لا يقدر أن يكون ليّناً ساكناً ، والرجل البَطِر الذى قد عدا طورَه وطباعُه الفجور فلا يستطيع أن يتحوّل من الفساد إلى الصلاح . قال الملك : ليس يأتينى النوم على حزنى لإيراخت . قال إيلاذ : ستة نفَر لا ينبغى لهم أن يهجعوا : الكثير المال وليس له خازن أمين عليه ، والمرء يريد الفتك بصاحبه ولا يقدر عليه ، والقاذف الناس بالبهتان عن عَرَض الدنيا ، والرجل الشديد المرض ولا طبيب له ، والمرء الفاجر الزوجة ، والمحبّ الذى يتخوف الأحداث على قرينه . قال الملك : تنطق بين يدىّ مع ما ترى من سَخَطى يا إيلاذ ! قال إيلاذ : سبعة لا يزالون فى سَخَط : الملك السريع الغضب الضيّق الصدر غير المتئد ، والمتئد الذى ليس له مع تُؤدته علم ، وعالم غير مريد للصلاح ، ومريد للصلاح غير عالم ، والقاضى

المحبّ للدنيا ، والرحيم للناس البخيل بما عنده ، وجواد يلتمس الثواب والشكر في العاجل . قال الملك : قد عنّيت نفسك يا إبلاد وإياىّ معك ! قال إبلاد : تسعة نفَر يُعنّون أنفسهم وغيرهم : المكثر من المال الواثق بالناس ، والملتمس ما لا ينَال ولا ينبغى له إدراكه ، والبذئ الفاجر العادى طوره ، والذى يرى اللين ضعفاً وحُسنَ الخلق وهْناً ولا يقبل من ذى نصيحة إن بذلها له ، ومن آزر الملوك والعظماء ولا رأى له ولا يتعلّم من غيره ، وطالب العلم بخصومة من هو أنبل منه ، والمحتال للملوك غيرُ الباذل لهم النصيحة ولا المودّة ، والملك الذى يكون خادمه وقهرمانه كذاباً هذِراً ، والبطىء الفهم الذى لا يكاد يفهم ولا يقبل الأدب . قال الملك : حسبك يا إبلاد ؛ فلقد تركتنى فى شكّ من أمرى . قال إبلاد : إنما ينبغى أن يجرَّب الناس فى عشرة أشياء : الجرىء فى القتال ، والحرّاث فى العمل ، والعبد فى عِشرة سيّده ، والملك فى الغضب كيف يكون حلمه وعلمه ، والتاجر فى مخالطة صديقه ، والإخوان بالاحتمال للأذى ، والفطِن عند الشدائد كيف يكون رفقه وحيلته ، والناسك فى ورعه وتنزّهه ، والجواد بالبذل والعطف ، والفقير باجتناب الإثم وطلب الرزق من الحلال .

ثم سكت إبلاد ، وعلم أنّ الملك قد اشتدّ حزنه على إيراخت ، واشتاق إلى رؤيتها ، فقال : أنا خليق بإتيان الملك بهذه التى قد أحبّها وحرَص على رؤيتها

أشدّ الحرص ، وحلمُ عنى فى طول مرادّتى إياه فى أشياء كثيرة ، وإغلاظى له فى القول. أيها الملك إنى، مع رقّة شأنى وضعف خطرى، قد أغلظت فى القول واجترأت . وأنتم أيها الملوك ، لكرم أصولكم وسَعة أحلامكم ، ملكتم أنفسكم وصبرتم على ما سمعتم منّى ، فالشكر منّى أيها الملك إذ لم تأمر بقتلى ، وها أنا قائم بين يديك ، وقد فعلتُ الذى فعلتُ بنصحى ، فإن كانت دخلت هذه فى معصية فإنّ لكم الحجّة والسلطان على عقوبتى وقتلى .

فلما سمع الملك أنّ إيراخت حيّة ، اشتدّ فرحه وقال لإبلاد : إنه كان يمنعنى من الغضب عليك ما علمتُ من نصيحتك وصدق حديثك ، وكنت أرجو من علمك بالأمور ألّا تقتل إيراخت . فقال إبلاد : إنما أنا عبدكم ، وحاجتى إليكم اليوم ألّا تعجَلوا بعدها فى الأمر العظيم الذى يُندم عليه ويكون فى عاقبته الهمّ والحزن كما رأيت ! ولا سيما فى أمر هذه التى لا تجد لها عديلًا فى الأرض ولا شبيهاً ، وأن تتلبثوا . فقال الملك : بحق قلتَ يا إبلاد . وقد قبلتُ قولك وكل ما ذكرت . فكيف فى مثل هذا الأمر العظيم الذى قد مرّ بى ! ولست عاملًا بعدها صغيراً ولا كبيراً إلّا بعد المؤامرة والنظر والتؤدة .

ثم إنّ الملك أمر إبلاد أن يأتيه بإيراخت ، فأتاه بها فأعطاها تلك الثياب ، واشتدّ فرحه بها ، وقال لها : اصنعى ما أحببت ، فلن أصرف بعدُ عن هواك

شيئاً . فقالت إيراخت : دام ملكك إلى الأبد . كيف ، لولا رأيك أيها الملك وسعة خلقك ، تندم على سيئة كانت منك ؟ فإنك لو تركت ذكرى آخرَ الدهر كنتُ لذاك أهلًا للذى كان من سفهى وشِقوتى وإقدامى على ما أقدمتُ عليه من الأمر الذى له أمرَ الملك بقتلى ؛ وبرأفتك شكرتَ لإبلاد حسنَ صُنعه ، ولولا ثقة إبلاد بسعة خلقك لنفّذ أمرك فى سلطانك . قال الملك لإبلاد : قد اصطنعتَ عندى ما استوجبتَ به شكرى ، ولم تصنع بى شيئاً هو أعظمُ عندى من أنك لم تقتل إيراخت ، بل أحييتَها بعد ما قتلتُها ، فوهبتَها لى ولجميع الرعيّة ؛ فلم أكن قطّ أرضَى عنك منّى اليوم ، وأنت مسلّط على مُلكى فاصنع فيما أحببتَ ما أحببت . قال إبلاد : ليست بى حاجة فيما قِبلك إلّا التأنّى عند الغضب ، والرويّة عند الفكر . فقال الملك : أنا صائر إلى رأيك .

ثم إنّ الملك أمر بقتل البرهميّين الذين أشاروا عليه بقتل العِدّة التى ذكرتها . وقرّت عينُه وعيون أهل مملكته وولده بالوزراء الصالحين الذين هم أحبّ الخلق إليـــه .



باب
مهرايز ملك الجرذان[1]

قال الملك للفيلسوف : قد فهمتُ مثَل الحلم فيما بين الملوك وقرابينهم ؛ ولكن أريد أن تعرِّفني كيف ينبغي للإنسان أن يلتمس له مشيراً مناصحاً ، وما الفائدة المستفادة من المشير الحكيم ؟

قال الفيلسوف : إنّ مثَل ذلك مَثَلُ ملك الجُرذان ووزيرِه الناصِح له المنقذِه وأهله ومخلِّصِهم من الشدائد العظام . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنه كان فى أرض البراهمة بقعةٌ تسمّى دورات مساحتها ألف فرسخ وكان فى وسط تلك البقعة مدينة تسمى بَدزور[2] . وكانت كبيرة آهلة ، وكان أهلها يتصرّفون فى معايشهم كما يحبّون . وكان فى تلك المدينة جُرذ يُسمّى مِهرايز ، وكان ممَلَّكاً على جميع الجرذان الذين فى تلك المدينة ورساتيقها . وكان

له ثلاثة وزراء يشاورهم فى أموره ، يسمّى أحدهم رُوذْباد[٢] ، وكان ذا عقل وحُنْكة . وكان الملك معترفاً بعقله وجَودة حيلته ، ويسمّى الثانى شيرِع ، والثالث بغداد . وكان الملك يُحضِرهم جميعاً ويستشيرهم فيما يُصلِح رعيّته .

فحضروا يوماً وتفاوضوا فى أشياء كثيرة إلى أن انتهى بهم الكلام إلى هذا المعنى ، وهو هل فى استطاعتنا أن نُزِيل عنّا ما قد توارثناه من أسلافنا من الفزَع والخوف من السنانير أم لا يمكن ذلك ؟ فقال شيرِع وبغداد وزيراه : أنت رئيس علينا لأنك فى غاية العقل وإصابة الرأى . وقد قيل فى آفتين من الآفات لا يمكن دفعهما إلّا بمدبّر حكيم مصيب . ونحن متّكلون على حِلم الملك وحكمته وحسن تدبيره فى هذا الأمر وغيره . ونحن مع هذا مستعدّون لأمر الملك ؛ فإنه سيكون لنا وللملك فيه اسم عظيم إلى الأبد . وسبيل جميع الجرذان ، وخاصةً نحن ، أن نبالغ ونحرص ونجتهد فى تبليغ الملك إرادته ولا سيّما فى هذا الأمر ولو بذهاب أنفسنا . فلما فرغ الوزيران من هذا الخطاب كانت عين الملك إلى الوزير الثالث ؛ فلما لم يره يتكلم قال له بغضب : يا هذا قد كان سبيلك أن تذكر لنا ما عندك فى هذا الأمر ، ولا تكونَ كأنّك أخرسُ أبكم لا تقدر على الجواب . فلما سمع الوزير من الملك هذا الكلام قال : ليس يجب أن يعذِلنى الملك حيث أمسكتُ عن الكلام إلى هذا الوقت ،

لأنى فعلت ذلك لأستمع جميع ما أتى به أصحابى على الكمال ، وأفكّر فيه ، ثم بعد ذلك أذكر ما عندى . قال له الملك : قل إذن ما عندك . قال : ما عندى أكثرُ من هذا : وهو أنه إن علم الملك أنّ له حيلة يبلغ بها مرادَه من هذا الأمر ، ويتحقّق ذلك تحققاً صحيحاً ، وإلّا فما سبيله أن يحرص عليه ولا يدبّر بفكره فيه ؛ لأنّ ما يُتوارث من الآباء والأسلاف فى الأصلاب والجنس ويتأدّى من الآباء إلى الأولاد بالطبع ، لا يقدر ملَك من الملائكة ، دع الناس ، على تغييره . قال الملك له : ليس ما يتوارث من الجنس فقط ، ولكن كل أمر من الأمور وإن صغر وقلّ ، لا يمكن أن يتمّ إلّا بعناية من فوق ؛ وذلك أنّ انتهاء كل أمر من الأمور إنما يكون فى زمان من الأزمنة ، غيرَ أنّ معرفة ذلك الزمان خفيّة عن الناس ، والعناية تحتاج إلى حرص كما يحتاج ضوء العينين إلى ضوء الشمس . قال الوزير : الأمر على ما قال الملك ؛ لكن إذا لم تمكن الحيلة وليس لمقاومة الشيء الذى يتوارث مع الجنس وجه ، فتركه أصلح ؛ فإنّ من قاوم ما يُتوارث فى الجنس فكأنه يريد أن يعارض ما قد اتُّفق عليه . وربما نتج من ذلك آفة أعظم من الأولى وآل الأمر فيه إلى أحوال من العطب لا تتلافى ؛ كما أصاب الملك الذى يحدّث عنه . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الوزير :

زعموا أنه كان على بعض نواحى النيل ملك ، وكان فى بلده جبل شامخ كثير الأشجار والنبات والثمار والعيون . وكانت الوحوش وسائر الحيوانات التى فى ذلك البلد يعيشون من ذلك الجبل . وكان فى سفح ذلك الجبل نقب يخرج منه جزء من سبعة أجزاء من جميع الرياح التى تهبّ فى الثلاثة الأقاليم ونصف من أقاليم العالم . وبالقرب من ذلك النقب بيت فى غاية حُسن البناء والترصيف لم يكن له نظير فى العالم كلّه . وكان الملك وأسلافه من الملوك يسكنون ذلك البيت والموضع ، لم يكن يتهيأ لهم أن يتحوّلوا منه . وكان للملك وزير يشاوره فى أموره ، فاستشاره يوما من الأيام وقال له : تعلم أنا ، بما قد تقدم من أفعال آبائنا الجميلة ، فى نِعم فائضة ، وأمورُنا تجرى على محبّتنا . وهذا المنزل الذى نحن فيه ، لولا هذا النقب ولولا كثرة الرياح لكان شبيهاً بالجنّة . ولكن سبيلنا أن نجتهد فلعلّنا نجد حيلة يمكننا بها أن نسُدّ فمَ هذا النّقب الذى تهبّ منه هذه الرياح ؛ فإنّا إذا فعلنا ذلك كنّا قد ورثنا الجنّة فى هذه الدنيا ، مع ما يكون لنا من الأثر الجليل المؤبّد . قال الوزير : أنا عبدك ومسارع لما تأمر به . قال الملك ليس هذا جوابى ، قل ما عندك . قال له الوزير : ما عندى فى هذا الوقت جواب غير هذا ، لأنّ الملك أعلم وأحكم وأشرف منى . وهذا الأمر الذى ذكره لا يمكن أن يُعمل إلّا بقوّة إلهية . فأمّا الناس فلا يطيقون

ذلك لأنه عظيم ، وما سبيل الصغير أن يدخل فى الأمر العظيم الكبير . فليتأمّل الملك ما يريد أن يفعله ؛ فإن علم أنّ له سبيلًا يوصلنا إليه ويكون عارفاً بما ينتج عنه من خير وشرّ معرفة صحيحة ، وإلّا فما سبيله أن يهتمّ به ولا يصرف عنايته إليه ؛ فإنّ الكلام فيه الساعةَ سهل . فأما معرفة ما يؤول إليه من خير وشرّ معرفة صحيحة ، فهو خفىّ عن الناس ، صعب الإدراك . فلهذا ينبغى أن تُنعِم النظر لئلا يلحقك من هذا الأمر ما لحق الحمار الذى ذهب يلتمس أن ينبت له قرنان فذهبت أُذُناه . قال الملك وكيف كان ذلك ؟ قال الوزير :

زعموا أنّ حماراً كان لبعض الناس وكان صاحبه يوسع له فى العلَف . فخصِبَ الحمار وكلِب وهاج . واتفق يوماً أنّ صاحبه ساقه إلى نهر ليشرب ، فبصر الحمار من بعيد بأتان . فلما رآها هاج وأدلى ونهق وشغَب . فلما رأى صاحبُه هيجانَه خشى أن ينفلت منه فربطه فى شجرة كانت على شطّ النهر ، وتقدّم إلى صاحب الأتان بردّها ففعل . وبقى الحمار يدور حول الشجرة ويزيد هيجانه . فبينما هو يدور إذ طأطأ رأسه فنظر إلى إحليله وتوتّره فقال فى نفسه : هذه العصا تصلح للفرسان والقتال ؛ ولكن إيش الفائدة فيها وحدها وليس لى غيرها ، والعصا وحدها لا تفى بقتال الناس ؟ ومع هذا فلست أنا

ماهراً بالفروسية ، إلّا أنه على كل حال أنا قادر أن أطعن بهذه العصا وأضرب .
فبينما الحمار يتفكر فى مثل هذا ، وصاحبه جالس على الشط ينتظر سكون هيجانه ليردّه ، إذ اتفق فى ذلك الوقت أنّ أيّلا كبيراً عظيم القرون قد أتى به صاحبه إلى النهر ليسقيه . فلما نظر الأيّلُ إلى الحمار ، والحمارُ إلى الأيّل وأعجبَ الحمارَ كثرةُ قرونه ، وأنه المنىّ الذى أراد هشّ إليه وفكّر وقال : ما حملَ الأيّلُ هذه القرون إلّا وعنده رماحٌ وقِسِىّ وسائر أنواع السلاح ، وبلا شك إنه ماهر بالفروسية . ولو استوى لى أن أهرب من موضعى وألازم هذا الأيّل وأخدمه وأطيعه فيما يأمرنى به ، لقد كنتُ أتفرّس ، وكان هو أيضاً إذا رأى خدمتى ونصحى وإكرامى لم يبخل علىّ بهبة شئ من السلاح . ولو لم يرد الله بى سعادةَ جَدّ ما ساق هذا الأيّل إلىّ . وإنّ الأيّل لما رأى هيجان ذلك الحمار بقى متعجباً لا يشرب . فقال الحمار : أظن أنى قد أعجبته لِما رأى من شهامتى وحسنى وقد اشتغل قلبه بى .

ثم إنّ صاحب الأيّل لما رآه لا يشرب ردّه إلى بيته . وكان بيت صاحب الأيّل بالقرب من الشط الذى كان الحمار مربوطاً فيه . ولم يزل الحمار يمدّ عينه وينظر إلى الأيّل فى رجوعه إلى أن دخل بيت صاحبه ، وعلّم على الموضع علامة يعرفه بها . ثم إنّ صاحب الحمار ردّه أيضاً إلى بيته وشدّه على معلفه

وطرح له عَلَفاً . فكان الحمار مشغول القلب بالمضيّ إلى عند الأيّل فلم يَهنِه أكل ولا شرب ، وأخذ يفكر ويحتال في ذلك وقال : ينبغي أن أجعل هربي إليه في الليل . فلما جاء الليل واشتغل أصحابه بالعشاء والشرب ، اجتهد حتى قلع مِقوده وخرج هارباً إلى الدار التي دخل فيها الأيّل . فلما انتهى إليها وجد الباب مُغلقاً مستوثَقاً منه فاطّلع من شَقّ الباب فرأى الأيّل مُخلّى من رباطه . وخشي الحمار أن يراه الناس فوقف في زاوية الحائط إلى الغداة . فلما كان بالغداة أخذ الرجل الأيّل ومضى به إلى النهر ليسقيه . وكان الرجل يمشي قدامه ويسوقه بحبل مربوط في عنقه . فلما رأى الحمار ذلك اتّبعه يماشيه ويخاطبه بلغته ، ولم يكن الأيّل عارفاً بلغة الحمير، فلم يفهم عنه كلامه ، ونفر منه ، وأخذ يقاتله ، والتفت صاحب الأيّل ، وكان معه عصا فضربه . فقال الحمار في نفسه : ما يمنعني من كلام هذا الأيّل واللطف به والخدمة له وكشف ما عندي إلّا هذا الرجل الذي يقوده . فوثب عليه وقبض على ظهره بأسنانه فعضّه عضّة شديدة ، فما تخلص الرجل منها إلّا بعد شِدّة . فقال الرجل : إن أنا وأخذته لم آمن من بليّة يلقيها بي ؛ ولكني أودّ أن أعلّم فيه علامة حتى إذا رأيته طالبت صاحبه بثأري . فأخرج سكيناً كانت معه فقطع بها أذنى الحمار . وعاد الحمار إلى دار أصحابه ، وكان الذي نزل به من صاحبه أشدّ من قطع أذنيه . فحينئذ فكر

الحمار وقال : لقد كان آبائى أقدرَ منّى على هذا ؛ لكن خافوا من سوء عاقبته فامتنعوا منه .

قال الملك : قد سمعت مثلك هذا ، وما سبيلك أن تخاف من هذا الأمر ؛ فإنه ، والعياذ بالله ، إن لم يتم لنا ما نريده منه فلا بأس عليك وعلىّ . فنحن قادرون على خلاص نفوسنا من سوء عاقبته . فلما رأى الوزير الملك مشتهياً لهذا الأمر لم يمارِه بعدها فيه ، ولكن دعا له .

ثم إنّ الملك أمر بالمناداة فى جميع أعماله ألّا يبقى صغير ولا كبير إلّا ويجيئه فى يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا يحمل حطب . فعمل الناس على هذا . وكان الملك قد عرف الوقت الذى ينقص فيه هبوب الرياح . فلما كان فى ذلك الوقت أمر الناس بسدّ النقب بالحجارة والحطب والتراب ، وأنْ يبنوا عليه دَكّة عظيمة . ففعلوا ذلك . وامتنعت الرياح التى كانت تخرج من ذلك النقب ، وفقد البلد كلّه نسيمَ الهواء وهبوب الرياح ، فجفّت الأشجار ونشِفت المياه . ولم يمض ستة أشهر حتى جفّت العيون ، ويبست كل خضراء فى الجبل من الشجر والنبات ، وبلغ ذلك إلى نحو من مائة فرسخ ، وتماوتت المواشى وسائر الحيوانات ، ووقع الوباء فى الناس ، وهلك خلق كثير . فلم يزل هذا البلاء بأهل البلد فوثب من بقى منهم ممن به رمق ، وتجمعوا إلى باب الملك فقتلوه ووزيره

وأهله ولم يبق منهم أحد . ثم مضوا إلى باب ذلك النقب فقلعوا الدكّان والحجارة من الباب وطرحوا فى ذلك الحطب ناراً ، فالتهبت . فلما بدأت فى اللهيب عاد الناس إلى مواضعهم . ثم إنّ الريح التى كانت قد احتقنت فى مدة الستة أشهر خرجت بحميّة شديدة فطرحت النار فى سائر البلد . ودام هبوب الرياح يومين وليلتين ، فلم يبق فى ذلك البلد مدينة ولا قرية ولا حصن ولا شجرة إلّا أحرقته النار .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّ ما يُتوارث ويسرى فى الجنس صعب الزوال ؛ ولكنّ سبيل الإنسان إذا أراد أن يباشر أمراً من الأمور ، وكان بالقرب منه رجل حكيم ، أن يسأله أولًا ويشاوره ويأخذ رأيه فيه . وإن لم يكن بالقرب منه ، فسبيله أن يشاور العوامّ فيه ويطلب البحث معهم والتفتيش ؛ فإنه بهذا الطريق يمكنه أن يعلم ما فى عاقبة هذا الأمر من الخير والشرّ عند ما يمعن فى الفحص والتنقيب .

فلما سمع الملك ذلك بدأ يشاور الثلاثة وزراء بالعكس من أسفل إلى فوق فقال لأصغرهم عنده : ما تقول أنت فى هذا الأمر الذى نحن فيه وما الذى يجب أن نصنع ؟ قال الوزير : عندى أن تُجعل أجراس كثيرة ، ويعلّق كل جرس منها فى عنق واحد من السنانير ليكون كلما ذهب وجاء سمعنا صوت

الجرس فحذرنا منها ولم ينلنا مضرّة . فقال الملك للوزير الثانى : ما الذى عندك فيما أشار به صاحبك ؟ قال : أنا غير حامد لمشورته . وهبنا أحضرنا أجراساً كثيرة ؛ مَنْ ذا يقدر أن يتقدّم إلى السنّور حتى يعلّق عليه ذلك ؟ وهبنا علّقنا الأجراس فى رقابها ، فما الذى يمنع السنّور من الإضرار بنا ؟ وما الذى يزيل عنا الخوف ؟ ولكن الذى عندى أن نخرج جميعنا من هذه المدينة ونقيم فى البرّية سنة واحدة إلى أن يعلم أهل المدينة أنهم قد استغنوا بغيبتنا عن السنانير ، لأنه قد يلحق الناس مضرة عظيمة من السنانير ؛ فإذا علموا أنه لم يبق فى المدينة جُرَذ واحد قتلوا السنانير وطردوها وتهاربت . فإذا هلكوا عدنا نحن بأجمعنا إلى المدينة كما كنا . قال الملك للوزير الثالث : ما عندك فيما قال الوزير ؟ قال : أنا غير حامد لما قال . وذلك أنّا لو خرجنا بأجمعنا إلى البرّية ، وأقمنا فيها سنة واحدة ، فعلى كل حال ليس يمكن أن تفنى السنانير من هذه المدينة ، ونلقى نحن فى البرّية من الشقاء والبلاء ما ليس هو بدون فزعنا من السنانير ، لأنّا لم نعتد الشقاء قبل هذا . ثم إنّا لو رجعنا إلى المدينة لم يدم لنا ذلك الأمر إلّا مدة يسيرة ؛ وذلك أنّ الناس ، إذا عدنا وعاد فسادنا ، أعادوا السنانير وعادت الحال فى الفزع كما كان ، ويمضى شقاؤنا وغربتنا فارغاً . قال له الملك : فقل الآن أنت ما عندك . قال الوزير ، وهو روذباد : لا أعرف فى هذا الباب

إلّا حيلة واحدة؛ وهو أن يُحضر الملك إلى حضرته جميع الجرذان الذين فى هذه المدينة ونواحيها فيلزمهم أن يتخذ كل واحد منهم في البيت الذى يأوى فيه ثقباً يسع جميع الجرذان، ويُعدّ فيه زاداً لكفايتهم عشرة أيام، ويفتح للبيت سبعة أبواب مما يلى الحائط، وثلاثة أبواب مما يلى خزانة الرجل والثياب والفُرُش. فإذا فعلوا هذا قمنا بأجمعنا إلى دار بعض الموسرين ممن يكون له فى داره سنّور واحد، وأقمنا على كل باب من السبعة أبواب نرصد السنّور كيلا يدخل علينا بغتة. ويكون لنا عليه عين على ذهابه ومجيئه، لأنه لا بد من أن يَطمع ويقف على بعض الأبواب. ثم ندخل بأجمعنا من الثلاثة أبواب إلى خزانة المتاع، ولا نعرض للمأكول، ولكن نقصد إلى الفساد فى الكسوة والفُرُش، ولا نسرف فى الفساد. فإذا رأى صاحب المنزل ذلك الفساد قال: لعلّ هذا السنّور لا يكفى! فيزيد آخر. فإذا فعل ذلك أكثرنا من الفساد وبالغنا فيه، فيميّز ذلك صاحب المنزل ويقول: إنّ الفساد يزيد بكثرة السنانير، ولكنى أجرّب بإخراج سنّور واحد. فإذا فعل ذلك ونقص سنّور نقصنا نحن من الفساد قليلًا. فإذا أخرج الثانى نقصنا أيضاً من الفساد أكثر. فإذا أخرج الثالث خرجنا من ذلك المنزل إلى غيره. وأجرينا أمره مجرى البيت الأول. فلا نزال ندور من منزل إلى منزل ونملأ المدينة وندورها

إلى أن يتبيّن للناس أنّ الذى يلحقهم من المضرّة العظيمة هى من قِبَل السنانير . فإنهم إذا تبيّنوا ذلك لم يقتصروا على قتل السنانير التى فى البيوت فقط لكنهم يطلبون السنانير البرّية فيقتلونها .

ففعل الملك وسائر الجرذان ما أشار به الوزير . فما مضت ستة أشهر حتى هلك كل سنّور فى المدينة ونواحيها . ومضى ذلك الجيل من الناس ، ونشأ بعدهم قرن آخر على بغضة السنانير ؛ فكانوا ، متى ظهر لهم أدنى فساد من الفأر ، يقولون : انظروا لا يكون اجتاز بالمدينة سنّور . وكانوا أيضاً ، متى حدث بالناس أو بالبهائم مرض ، يقولون : يوشك أن يكون عبر بهذه المدينة سنّور . فبهذا النحو تخلّص الجرذان من فزع السنانير واطمأنّوا منهم .

فإذا كان هذا الحيوان الضعيف المهين احتال بمثل هذه الحيلة حتى تخلّص من عدوّه ، ودفَع الضرر عن نفسه ، فما يجب أن نقطع الرجاء من الإنسان ، الذى هو أكيس الحيوان وأكمله وأحكمه ، أن يدرك من عدوّه ما أراد بحيلته وتدبيره .



باب السِّنور والجرذ

قال الملك للفيلسوف : قد سمعتُ المَثَل الذى ضربتَ ، فاضرِب لى الآن ، إن رأيت ، مَثَل رجل كثُر عدوّه وحصروه من كل جانب ، فأشرف على الهلَكة ، فالتمس المخرج بموالاة بعض العدوّ ومصالحته ، فسلم ممّا يتخوّف ، ووَفَى لمن صالح منهم . فأخبِرنى عن موضع الصلح وكيف يُلتَمس ذلك .

قال الفيلسوف : إنّ العداوة والمودّة والبغضاء ليس كلُّها تثبت وتدوم ، وكثير من المودّة يتحوّل بُغضاً ، وكثير من البغض يتحوّل محبّة ومودّة ، عن حوادث العلل والأمور . وذُو الرأى والعقل يُهيّئ لكل ما حدث من ذلك رأياً ، من الطمع فيما يحدث من ذلك قِبَل العدوّ ، واليأس مما عند الصديق . فلا يمنعنّ ذا العقل عداوةٌ كانت فى نفسه لعدوّه من مقاربته والتماس ما عنده ، إذا

طمع منه فى دفع مخوف ، ويُعمل الرأى فى إحداث المواصلة والموادعة . ومَن أبصر الرأى فى ذلك فأخذ فيه بالحزم ظفِر بحاجته . ومن أمثال ذلك مَثَل الجُرَذ والسِنَّور اللذيْن اصطلحا حين كان ذلك الرأى لهما صواباً ، وكان فى صلحهما صلاحهما جميعاً ونجاتهما من الورطة الشديدة . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنه كان بأرض سَرَنديب شجرة من الدَّوح[1] ، وكان فى أصلها جُحر لجُرَذ يقال له فريدون ، وجُحر لسِنَّور يسمى رومى[2] ، وكان الصيّادون ربما اجتازوا بذلك المكان يلتمسون صيد الوحش ، وأنّ صيّاداً مرّ ونصب حباله ذات يوم فوقع فيها رومى . وخرج الجرذ يبتغى ما يأكل وهو مع ذلك حَذِر يتلفت وينظر . فلما رأى السنّور مقتنَصًا فى الحبال ، فرح . ثم التفت خلفه فأبصر ابن عِرس قد تبعه ، فنظر فوقه فإذا بومة على شجرة ترصُده ، فخاف ، إن انصرف راجعاً ، أن يثب عليه ابن عِرس ، وإن ذهب يميناً أو شمالا أخذته البومة ، وإن تقدّم فالسنّور أمامه . فقال الجرذ : هذا بلاء قد اكتنفنى ، وشرور قد تظاهرت علىّ ، ولا مَفْزع لى إلّا إلى عقلى وحيلتى . فلا يكوننّ الدهَش من شأنى ، ولا يَذهبنّ قلبى شَعاعاً ؛ فإنّ العاقل لا يتفرّق عليه رأيه ، ولا يعزُب عنه عقله على حال . وإنما عقول ذوى الرأى كالبحر

الذى لا يُدركُ غَورُه . ولا يبلغ البلاء من ذى الرأى مجهودَ عقله فيُهلكه ، ولا الرخاء ينبغى له أن يبلغ منـه مبلغاً يُبطره ويُسكِره ويُعمِى عليه أمره . ثم قال : لا أرى حيلة أمثَلَ من التماس صلح السنّور ؛ فإنّ السنّور قد نزل به بلاء ، ولعلّى أقدر على صلاحه . ولعلّه ، لو قد سمع منّى ما أكلّمه به من الكلام الصحيح الذى لا خداع فيـــه ، أن يفهم عنّى ويطمع فى معرفتى ، ويسلَس بذلك لصلحى . ولعلّه يكون له ولى فى ذلك نجاة . ثم دنا منه فقال : كيف حالك ؟ فأجابه السنّور : كالذى تهوى ؛ فى الضنك والضيق ! قال الجرذ : لا تكذيب لك . لعمرى لقد كان يسرّنى ما ساءك ، وأرى ما ضيّق عليك لى سعة ؛ ولكنّى اليوم قد شاركتك فى البلاء ، فلا أرجوَ لنفسى خلاصاً إلّا بالأمر الذى أرجو لك به الخلاص ، فذلك الذى عطفنى عليك ؛ وستعرف مقالتى أن ليس فيها ريب ولا مخادعة ، فإنه قد ترى مكان ابن عِرس كامناً لى ، والبومةَ تريد اختطافى ، وكلاهما لى ولك عدوّ ، وهما يخافانك ويهابانك . فإن أنت جعلت لى أن تُؤمّننى ، إن أنا دنوت منك ، فأنجو بذلك منهما فإنى مُخلّصك مما أنت فيه . فاطمئِنّ إلى ما ذكرت ، وثق به منّى ؛ فإنه ليس أحدٌ أبعدَ من الخير من اثنين منزلتُهما واحدة وصفتُهما مختلفة : أحدهما من لا يثق بأحد ، والآخر من لا يثق به أحد . ولك عندى الوفاء بما جعلتُ لك من

نفسي . فاقبَل منّي واسترسِل إليّ وعجّل ذلك ولا تؤخّر ؛ فإنّ العاقل لا يؤخّر عمله . ولتطب نفسك ببقائي كما طابت نفسي ببقائك ! فإنّ كل واحد منا ينجو بصاحبه ، كالسفينة والركّاب في البحر ؛ فبالسفينة يخرج الركّاب من البحر وبالركّاب تخرج السفينة .

فلما سمع السنّور مقالة الجرذ سُرّ بها ، وعرف أنه صادق ، فقال للجرذ : أرى قولك شبيهاً بالحق والصدق ، فأنا راغب في هذا الصلح الذي أرجو لنفسي ولك فيه الخلاص ؛ ثم أشكر لك ذلك ما بقيت وأجازيك به أحسن الجزاء . قال الجرذ : فإذا دنوتُ منك فليرَ ابن عِرس والبومة ما يعرفان به صلحنا فينصرفان آيسين ، وأقبِل أنا على قرض الحبال . فلما دنا الجرذ من السنّور أخذه فالتزمه . فلما رأت البومة وابنُ عِرس ذلك انصرفا خائبين . وأخذ الجرذ في قطع حبائل السنّور فاستبطأه السنّور وقال للجرذ : ما أراك جادًّا في قطع رباطي ! فإن كنت ، حين ظفرت بحاجتك ، تبدّلت عما كنتَ عليه وتوانيت في حاجتي فليس هذا للكريم بخلق ، أن يتوانى في حاجة صاحبه إذا استمكن من حاجة نفسه . وقد كان لك في مودّتي من عاجل المنفعة والاستنقاذ من الهلكة ما قد رأيتَ ، وأنت حقيقٌ أن تكافئني ، ولا تذكرَ عداوةَ ما بيني وبينك ؛ فإنّ ما حدث بيننا حقيقٌ أن يُنسِيك ذلك . وإنّ

الكريم لا يكون إلّا شكوراً غيرَ حقود ، تُنسيه الخَلّةُ الواحدة من الإحسان الخِلالَ الكثيرة من الإساءة . وأعجَل العقوبة عقوبةُ الغدر واليمين الكاذبة ، ومَن إذا تُضُرِّع إليه وسُئِل العفو لم يعفُ ولم يصفَح . قال الجرذ : الأصدقاء صديقان : طائع ومضطرّ . وكلاهما يلتمس المنافع ويحترس من المضارّ . فأما الطائع منهما فيُستَرسل إليه ويوثَق به على كل حال ، وأما المضطرّ فإنّ له حالاتٍ يُستَرسل إليه فيها ، وحالاتٍ يُتّقى فيها . فلا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجته ببعض ما يتقى وما يخاف ؛ وليس عامّة التواصل والتحابّ بين الناس إلّا التماسَ عاجلِ النفع . وأنا وافٍ لك بما جعلت على نفسى ، ومحترس من أن يصيبنى منك مثلُ الذى ألجأنى إلى صلحك ؛ فإنّ لكل عملٍ حيناً ، وإن لم يكن فى حينه فلا عاقبة له . وأنا قاطِعٌ حبائلك لوقتها ، غيرَ أنى تارك عُقدة واحدة أرتهنك بها ، فلا أقطعها إلّا فى الساعة التى أعرف أنك عنّى فيها فى شُغُل . ففعل ذلك . وباتا يتحادثان حتى إذا أصبحا إذا هما بالصيّاد قد أقبل من بعيد . فقال الجرذ : الآن جاء موضع الجِدّ فى قطع بقيـة حبائلك . فقطع حبائله . ولم يدنُ منهما الصيّاد حتى فرغ الجرذ ، على سُوء ظنّ من السنّور ودَهَش . فلما أفلت عدا إلى الشجرة فصعدها ، ودخل الجرذ الجحر . فأخذ الصيّاد حبائله مقطّعة وانصرف خائباً .

وخرج الجرذ بعد ذلك من جُحره فرأى السنّور من بعيد ، فكره أن يدنوَ منه . وناداه السنّور : أيها الصديق ذا البلاء الحسن ! ما يمنعك من الدنوّ منّى لأجزيك بأحسن ما أبليتنى ؟ هلمّ إلىّ ولا تقطع إخائى ؛ فإنه مَن اتخذ صديقاً ثم أضاع ودّ إخائه ، حُرِم ثمرة الإخاء ، وأيس من منفعة الإخوان . وإنّ يلك عندى اليدُ التى لا تُنسى ؛ فأنت حقيق أن تلتمس مكافأة ذلك منّى ومن إخوانى وأصدقائى . فلا تخافنّ منّى شيئاً ، واعلم أنّ ما قِبَلى لك مبذول . ثم حلف له واجتهد على تصديق ما قال ، فأجابه الجرذ أنه رُبّ عداوةٍ باطنة ظاهرُها صداقة ، وهى أشدُّ ضرًّا من العداوة الظاهرة . ومَن لم يحترس منها وقع موقع مَن يركب ناب الفيل المغتلِم ثم يغلبه النعاس . وإنما سُمّى الصديق صديقاً لما يُرجَى من نفعه ، وسُمّى العدوّ عدوًّا لما يخاف من ضرره . فإنّ العاقل إذا رجا نَفْع العدوّ أظهر له الصداقة ، وإذا خاف ضَرّ الصديق أظهر له العداوة . أوَ لا ترى أولاد البهائم تتبَع أمهاتها رجاء ألبانها ، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها ؟ وكما أنّ السحاب يلتئم ساعة وينقطع أخرى ، ويَهمى ساعة ويُمسِك أخرى ، كذلك العاقل يتلوّن مع متلونات الأمور عن اختلاف أحوال الأصحاب ، فينبسط مرّة وينقبض أخرى ، ويسترسل مرّة ويحترس أخرى . وربما قَطَع المرء عن صديقه بعض ما كان يصله بفضله فلم يخَفْ شرّه ؛ لأنّ أصل

أمره لم يكن عداوة . فأما من كان أصلُ أمره عداوة ، وتحدث صداقته لحاجة حملته على ذلك ، فإنه إذا ذهب الأمر الذى أحدث ذلك صار إلى أصل أمره ؛ كالماء الذى يَسخن بالنار فإذا رفع عنها عاد بارداً . فلا عدوّ أضرُّ لى منك . وقد كان اضطرّنى وإياك أمرٌ أخرجنا إلى ما صرنا إليه من المصالحة . وقد ذهب الأمر الذى احتجتَ إلىّ واحتجتُ إليك فيه . وأخاف أن يكون مع ذهابه عَود العداوة بينى وبينك . ولا خير للضعيف فى قرب العدوّ القوىّ ، ولا للذليل فى قرب العدوّ العزيز . ولا أعلم لك فىّ حاجة إلّا أن تريد أكلى . ولا أرى الثقة بك ؛ فإنى قد علمت أنّ الضعيف هو أقرب إلى أن يَسلم من العدوّ القوىّ ، إذا هو احترس منه ولم يغترر به ، من القوىّ إذا اغترّ بالضعيف واسترسل إليه . والعاقل يصانع عدوّه إذا اضطُرّ إليه فيظهرُ له وُدّه ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدًّا ، ويعجّل الانصراف عنه إذا وجد إلى ذلك سبيلًا . واعلَم أنّ صريع الاسترسال لا يكاد يستقيل عثرته . والعاقل يفى لمن صالح بما جعل له ، ويثق بذلك من نفسه ، ولا يثق لها بمثل ذلك من أحد ، ولا يؤثر على البعد من عدوّه ، ما استطاع ، شيئاً . والبعد لك من الصيّاد ، والبعد لى منك ، مِن أحزم الرأى . وأنا أوَدّك من بعيد ، ولا عليك أن تَجزينى بمثل ذلك ، إن رأيت ، وإلّا فلا سبيل إلى اجتماعنا أبداً والسلام .



باب
الملك والطير قبرة[1]

قال الملك للفيلسوف : قد سمعتُ مَثَل الرجل يحيط به عدوّه فيستظهر ببعضهم على بعض ، ويصالحه حتى يتخلص بذلك مما يخاف وقد وَفَى وسلِم . فاضرب لى ، إن رأيت ، مَثَل أهل التِرات والذى ينبغى لبعضهم من الاتّقاء لبعض .

قال الفيلسوف : زعموا أنه كان ملك من الملوك يقال له بَرَهْمود[2] ، وكان له طائر يقال له قُبّرة ، وكان ناطقاً كيّساً ، ومعه فرخ له ، فأمر الملك بقُبّرَة وبفرخِه فجُعِلا فى مكان عند امرأة هى سيّدة نسائه ، وأمرها بالاستيصاء به ، وأنّ امرأة الملك ولدت غلاماً . فلما شبّ قليلاً ألف الفرخ الغلام ، فكانا يلعبان جميعاً ويأكلان معاً . وكان قبّرة يذهب إلى الجبل كل يوم فيجئ بثمرتين من فاكهة لا تُعرف

فيُطعِم إحداهما فرخَه ، والأخرى ابنَ الملك . فأسرع ذلك فى نباتهما وقوتهما حتى استبان ذلك للملك ، فزاد قبّرةَ عنده كرامة . حتى إذا كان ذات يوم وقبّرةُ غائب فى ابتغاء الثمرتين ، إذ وثب فرخ قبّرة فى حجر الغلام . فغضب الغلام من ذلك وضرب بالفرخ الأرض فقتله .

فلما جاء قبّرة ورأى فرخه مقتولًا حزن وصاح وقال : قُبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ! وويل لمن ابتُلِيَ بصحبتهم ! فإنهم لا حميم لهم ولا حريم ، ولا يحبّون أحداً ، ولا يكرُم عليهم ، إلّا أن يطمعوا عنده فى غَناء فيقرّبوه عند ذلك ويكرموه . فإذا قضوا منه حاجتهم فلا وُدّ ولا حفاظ ، ولا الإحسان يجزون به ، ولا الذنب يَعفون عنه . الذين إنما أمرهم الفجرُ والرياء والسُّمعة ، الذين كلُّ عظيم من الذنوب يركبونه ، وهو عندهم صغير حقير هيّن . ثم قال : لأنتقِمَنّ اليوم من الكفور الذى لا رحمة له ، الغادر بإلفه وتربه ، وصاحب ملاعبته ومواكلته . ثم وثب فى وجه الغلام ففقأ عينيه برجليه ، ثم طار فوقع على مكان مُشرِف .

فبلغ الملك ذلك وما فعل بابنه ، فجزع جزعاً شديداً ، وطمع أن يحتال لقبرة فيظفر به . فركب إليه ووقف عنده وناداه ودعاه باسمه ، وقال : أنت آمن فأقبِل إلينا . فأبى ذلك قبّرة وقال : أيها الملك إنّ الغادر لا يُجاز له بغدره .

وإن أخطأه عاجل العقوبة لم يخطئه آجلها ، حتى تدركَ الأعقابَ وأعقابَ الأعقاب . وإنّ ابنك غدَر بابنى ، فعجّلتُ له العقوبة . قال الملك : قد لعمرى فعلنا ذلك بك ، فانتقمت منا ، فليس لنا قِبَلك ولا لك قِبَلنا وِتر مطلوب ، فارجع إلينا آمناً . قال قبّرة : لست راجعاً إليك ؛ فإنّ ذوى الرأى قد نهوا عن قُرب الموتور ، وقالوا : لا يزيدنّك لطفُ الحقود ولينُه وتكرمتُه إلّا وحشة منه ؛ فإنك لا تجد للموتور الحقود أماناً هو أوثقُ من الذُعر والبعد عنه والاحتراس . وكان يقال : إنّ العاقل إنما يَعُدّ أبويه من الأصدقاء ، ويعدّ الإخوة من الرفقاء ، والأزواج إلفاً ، والبنين ذِكراً ، والبنات خصيمات ، والأقارب غرماء ، ويعدّ نفسه فرداً وحيداً . وأنا اليوم الفرد الوحيد ؛ قد تزوّدت من عندكم من الحزن عِبئاً ثقيلًا لا يحمله معى أحد ؛ وأنا ذاهب فعليك السلام .

فقال الملك : إنك لو لم تكن اجتزيت منّا ما صنعنا بك ، ولو كان صنيعك بنا من غير ابتداء منّا إليك بالغدر ، كان الأمر كما ذكرت ؛ فأما إذ كنا نحن بدأناك فما ذنبك ؟ وما الذى يمنعك من الثقة بنا ؟ فهلمّ فارجع فإنك آمِن . قال قبّرة : إنّ للأحقاد فى القلوب لمواقعَ مُوجِعة خفيّة . فالألسن لا تصدُق عن القلوب ، والقلبُ أعدَل على القلب شهادة من اللسان . وقد

علمتُ أنّ قلبي لا يشهد للسانك ، ولا قلبك للساني . قال الملك : ألست تعلم أنّ الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس ، فمن كان له عقل كان على إماتة الحقد أحرصَ منه على تربيته ؟ قال قبّرة : إنّ ذلك لكما ذكرت . وليس ذو الرأى مع ذلك بحقيق أن يظنّ بالموتور أنه ناسٍ ما وتره به ، ومنصرف عنه . وذو الرأى جدير بأن يتخوّف الحِيَل والخُدَع ، ويعلم أنّ كثيراً من الأعداء لا يستطاع بالشدّة والمكابرة حتى يصاد بالرفق والملاينة ، كما يصاد الفيل الوحشىّ بالفيل الداجن . قال الملك : إنّ الكريم لا يترك إلفه ، ولا يقطع إخوانه ، ولا يُضيع الحِفاظ ، وإن هو خاف على نفسه ؛ حتى إنّ هذا الخُلق ليكون فى أوضع الدواب منزلة . وقد عرفنا أنّ ناساً يذبحون الكلاب ويأكلونها ، فيرى ذلك الكلب الذى قد ألفهم ، فيمنعه إلفُه إياهم من أن يفارقهم . قال قُبّرة : إنّ الأحقاد مخوفة حيث كانت ، وأشدّها ما كان فى أنفس الملوك ، فإنّ الملوك يدينون بالانتقام ، ويرون الطلب بالوتر مكرُمة وفخراً . ولا ينبغى للعاقل أن يغترّ بسكون الحقود ؛ فإنما مَثَل الحقد فى القلب ، ما لم يجد متحرَّكاً ، مَثَل الجمر المكنون ما لم يجد حطباً . فلا يزال الحقد يتطلّع إلى العِلل كما تبتغى النار الحطب ، فإذا وجد علّة استعر استعار النار ، فلا يطفئه ماء ولا كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرّع ولا شىء دون تلف الأنفس ؛

مع أنه رُبَّ واترٍ يطمع فى مراجعة الموتور لما يرجو أن يقدر عليه من النفع له والدفع عنه ؛ ولـكنى أضعف من أن أقدر لك على ما يُذهب ما فى نفسك. ولو كانت نفسك لى على ما تقول كان ذلك غنّي مغنّياً ؛ فأنا لا أزال فى خوف وسوء ظن ما اصطحبنا ، وليس الرأى إلّا الفراق . وأنا أقرأ عليك السلام.

قال الملك : قد علمت أنه لا يستطيع أحـد لأحد ضَرًّا ولا نفعاً ، وأنه لا شئ من الأشياء صغيراً ولا كبيراً يصيب أحداً إلّا بقَدَر مقدور. وكما أنّ خَلقَ ما يُخلق وولادةَ ما يُولد وبقاء ما يبقى ليس إلى الخلائق منه شئ ، كذلك فناء ما يفنى ، وهلاك ما يهلِك . فليس لك عندى فيما صنعتَ بابنى ، ولا لابنى فى هلاك فرخك ذنب ؛ إنما كان ذلك قَدَراً مقدوراً ، وكنّا له عِلَلاً ؛ فلا تؤاخذنا بما أتاك به القدر . قال قبّرة : إنّ أمر القدر لـكما ذكرت ؛ ولكن ليس ذلك حقيقاً أن يمنع الحازم من توقّى المخوف والاحتراس من المحترَس منه ؛ ولكنه يجمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالقوّة والحزم . وأنا أعلم أنك تحدّثنى بغير ما فى نفسك . والأمر فيما بينى وبينك غير صغير ؛ إنّ ابنك قتل فرخى ، وفقأتُ أنا عينيه . فأنت الآن تريد بى القتل ، وتخاتلنى عن نفسى لتشتفى منّى . والنفس تأبى الموت . وقد كان يقـال : الفاقة بلاء ، والحزن بلاء ، وقرب العدوّ بلاء ، وفراق الأحبّة بلاء ، والسقم بلاء ، والهرم

بلاء ، ورأس البلايا كلها الموت . وليس أحد أعلمَ بما فى نفس الموجَع المحزون ممّن ذاق مِثلَ ما به . وأنا بما فى نفسك منّى عالم ، للمثال الذى عندى من ذلك ، فلا خير لى فى صحبتك ؛ فإنك لن تذكر صنيعى بابنك ، ولن أذكر صنيع ابنك بفرخى إلّا أحدث ذلك لقلوبنا تغيّرا .

قال الملك : إنه لا خير فيمن لا يستطيع الإعراض عما فى نفسه ، ويميته ويتناساه ، حتى لا يذكر منه شيئًا ، ولا يكون له فى نفسه موقع . قال قبّرة : إنّ الرجل الذى فى باطن قدمه قُرحة إن هو حرص على خفّة المشى فلا بدّ أن ينكأها ، والرجل الرمِد إذا استقبل الريح فقد تعرّض لإنكاء عينيه . وكذلك الموتور ، إذا دنا من عدوّه فقد عرّض نفسه للهَلَكة . ولا يستطيع صاحب الدنيا إلّا توقّىَ المتالف وتقديرَ الأمور وقلّةَ الاتكال على القوّة والحيلة ، وقلّةَ الاغترار بمن لا يأمن ؛ فإنه مَن اتكل على قوّته حمله ذلك على أن يسلك الطريقَ المخوف ، ومن سلك الطريق المخوف فقد سعى فى حتف نفسه ، ومن لا يقدّر طعامه وشرابه فحمل على نفسه وأعضائه ما لا يطيق فربّما قتل نفسه ، ومن لم يُقدّر لقمته فأعظَمَها فوق ما يسع فوه غصّ بها فمات ، ومن اغترّ بكلام عدوّه وضيّع الحذر فهو أعدى لنفسه من عدوّه . وليس على الرجل النظرُ فى القدَر الذى لا يدرى ما يأتيه منه وما يُصرَف عنه ، ولكن عليه

العمل بالحزم ، والأخذ بالقوّة فى أمره ، ومحاسبة نفسه فى ذلك . والعاقل لا يُخيف أحداً ما استطاع ، ولا يقيم على الخوف وهو يجد مذهباً . وأنا كثير المذاهب أرجو ألّا أتوجّه فى وجه منها إلّا وجدت فيه ما يغنينى ؛ فإنّ خلالاً خمساً مَن تزودهنّ بلّغنه فى كل وجه وطريق ، وقرّبن له البعيد ، وآنسن له الغربة ، وأكسبنه المعيشة والإخوان : كفّ الأذى ، وحسن الأدب ، ومجانبة الريبة ، وكرم الخُلق ، والنبل فى العمل . وإذا خاف العاقل على نفسه طابت نفسه عن الأهل والولد والوطن ؛ فإنه يرجو فى ذلك خلفاً ولا يرجو من النفس خلفاً . وشرّ المال ما لا ينفَق منه ، وشرّ الأزواج التى لا تُواتى البعل ، وشرّ الولد العاصى ، وشرّ الإخوان الخاذل لإخوانه ، وشرّ الملوك الذى يخافه البرىء ، وشرّ البلاد بلاد ليس فيها أمن ولا خصب . وإنه لا أمن بى أيها الملك معك ، ولا طمأنينة لنفسى فى جوارك .

ثم ودّع الملك وطار .



باب الأسد وابن آوى

قال الملك للفيلسوف : قد سمعتُ هذا المثل . فاضرب لى مثل الملوك فيما بينهم وبين قرابينهم ، وفى مراجعة من يراجَع منهم بعد عقوبة أو جفوة تكون عن ذَنْب يُذنِبه أو ظُلم يُظلَمه .

قال الفيلسوف : إنّ الملك لو كان لا يراجع مَن أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم اجترمه أو ظلم ظُلِمه ، أضرّ ذلك بالأمور والأعمال ؛ ولكن الملك حقيق أن ينظر فى حال من ابتُلى بشئ من ذلك وما عنده من الغَناء الذى يرجو منه النفع . فإن كان ممن يستمان به ويوثق برأيه وأمانته ، كان الملك حقيقاً بالحرص على مراجعته ؛ فإنّ المُلك لا يستطاع إلّا بالوزراء والأعوان ، ولا يُنتفع بالوزراء والأعوان إلّا بالمودّة والنصيحة ، ولا مودّة ولا نصيحة إلّا مع أصالة الرأى

والعفاف . وأعمال الملك كثيرة ، ومَن يحتاج إليه من العمّال والأعوان كثير ، ومَن يجمع منهم الذى ذكرت من النصيحة وأصالة الرأى والعفاف قليل . وإنما السبب فى الوجه الذى به يستقيم العملُ أن يكون الملك عالماً بمودّة مَن يريد الاستعانة به ، وما عند كل رجل منهم من الرأى والغَناء ، وما فيه من العيوب . فإذا استقرّ ذلك عنده مِن عِلْمه أو علم غيره ، وعَلِم ما يستقيم به وجّهَ لكلّ عمل مَن قد عرف أنّ عنده من الأمانة والنجدة والرأى ما يستقل بذلك العمل ، وأنّ الذى فيه من العيب لا يضرّ بذلك العمل . ويتحفّظ من أن يوجّه أحداً فى وجه لا يحتاج فيه إلى مُروءة إن كانت عنده ، ولا تؤمن عيوبه وعاقبةُ ما يكره منه . ثم على الملك بعد ذلك تعاهُد عمّاله والتفقّد لأمورهم حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ، ولا إساءة مسىء . ثم عليهم بعد ذلك[1] ألا يتركوا محسناً بغير جزاء ، ولا يقرّوا مسيئاً ولا عاجزاً على العجز والإساءة ؛ فإنهم إن ضيّعوا ذلك وتهاونوا به تهاون المحسن ، واجترأ المسىء ، ففسد الأمر وضاع العمل . ومثل ذلك مثل الأسد وابن آوى . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف :

زعموا أنه كان بأرض كذا وكذا ابن آوى ، وكان متألهاً متعففاً ، وكان مع

ذئاب وثعالب وبنات آوى . ولم يكن يصنع ما يصنعون ولا يُغير كما يُغيرون ، ولا يأكل لحماً . فخاصمته تلك السباع وقلن له : لا نرضى بسيرتك ولا برأيك الذى أنت عليه ؛ مع أنّ تألُّهك لا يُغنى عنك شيئاً ، وأنت لا تستطيع أن تكون إلّا كأحدنا فتسعى معنا وتفعل فعلنا . فما الذى يشبه كفّك عن الدماء وتركك اللحم . قال ابن آوى : إنّ صحبتى إياكم لا تؤثّمنى إن لم أؤثّم نفسى ، لأنّ الآثام ليست من قِبَل الأماكن والأصحاب ، ولكنها من قِبَل القلوب والأعمال . فلو كان صاحبُ المكان الصالح يكون عمله فيه صالحاً ، وصاحبُ المكان الشرّ يكون عمله فيه سيّئاً ، إذاً كان مَن قَتَل الناسك فى محرابه لم يأثَم ، ومن استحياه فى معركة القتال أثِم . وإنما صَحِبتكم بنفسى[٢] ، ولم يصحبكم منّى قلب ولا عمل ، لأنى أعرف ثمرة الأعمال .

فثبت ابن آوى على حاله تلك ، وشُهِر بالنُسك والتألّه حتى بلغ من الصدق والعفاف والأمانة أفضلَ ما بلغ أحدٌ من النُسّاك . وبلغ ذلك أسداً كان ملكَ السباع بتلك الناحية ، فرغِب فيه وأرسل إليه وكلّمه وفتّشه ودعاه إلى صحبته فقال له : إنّ مُلكى عظيم ، وأعمالى كثيرة ، وأنا إلى الأعوان محتاج . وقد بلغنى عنك نُبل وعفاف ، ثم قدمتَ علىّ فازددتُ بك إعجاباً ، وفيك رغبة . وأنا مُولّيك من عملى جسيماً ، ورافعٌ منزلتك إلى منزلة الأشراف ، وجاعلٌ لك

منّى خاصّة . قال ابن آوى : إنّ الملوك أحقُّ باختيار الأعوان ، فيما يهتمّون به من أعمالهم وأمورهم ، مِن غير أن يُكرِهوا على ذلك أحداً ؛ لأنّ المُكرَه لا يستطيع المبالغة فى العمل . وأنا لعمل السلطان كاره ، وليست لى به تجربة ، ولا بالسلطان رفق . وأنت ملك السباع ، وعندك من أجناس السباع عدد كثير ، وفيهم أهل نبل وقوّة ، ولهم على العمل حرص ، ولهم به رفق . فإن استعملتهم أغنَوا عنك ، واغتبطوا لأنفسهم بما أصابوا من ذلك . قال الأسد : دع عنك هذا فإنى غير مُعفيك من العمل . قال ابن آوى : إنما يستطيع العملَ وصحبةَ السلطان رجلان لستُ بواحد منهما : إما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته ، وإما رجل مَهين مغفّل لا يَحسُده أحد . فأما مَن أراد أن يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف لا يخلط ذلك بمصانعة ، فقلّما يستقيم له صحبتهم ؛ لأنه يجمع عليه عدوّ السلطان وصديقه بالعداوة والحسد ؛ أما الصديق فينافسه فى منزلته ، ويبغى عليه فيها ويعاديه . وأما عدوّ السلطانِ فيضغَن عليه بنصيحته لسلطانه وغَنائه عنه . فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان كان قد تعرّض لهلاكه . قال الأسد : لا يكونَنّ بغىُ أصحابى عليك وحسدُهم لك مما يَعرِض فى قلبك ؛ فإنى كافيك ذلك ، وبالغٌ بك فى الكرامة والإحسان غايةَ همّتك . قال ابن آوى : إذا كان الملك يريد الإحسان بى فليدَعنى أعيش

فى هذه البرّية آمناً مِن أن أُحسَد ؛ فإنى قليل الهمّ ، راض بمعيشتى من الماء والحشيش . وقد علمت أنّ صاحبَ السلطان يصل إليه فى ساعة واحدة من الأذى والخوف ، ما لا يصل إلى غيره طول دهره ، وأنّ قليلَ الغذاء فى أمن وطمأنينة خيرٌ من كثيره فى خوف ونصَب . قال الأسد : قد سمعتُ كلامك فلا تخافنّ شيئاً مما أراك تتخوّفهُ ، ولا بدّ من الاستعانة بك . قال ابن آوى : إن أراد الملك بى هذا فليجعل لى عهداً ، إن بغى علىّ أحد عنده ممن هو فوق خوفاً على منزلته ، أو ممن هو دونى لينازعنى منزلتى ، فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه أو بلسان غيره ما يريد به تحميل الملك علىَّ - ألّا يعجَل علىّ ، وأن يتثبّت فيما يُرفع إليه ويُذكر له من ذلك ، ويفحص عنه ثم يقضى فيه بما بدا له ؛ فإذا أنا وثقت من الملك بذلك أعنته بنفسى ، وعملت له فيما ولّانى بنصيحة واجتهاد وحرصٍ على ألّا أجعل على نفسى سبيلًا . قال الأسد : ذلك لك .

فولّاه خزانته ، واختصّه دون أصحابه بالرأى والمشورة والمنزلة ، وازداد به على الأيّام عُجباً ، فزاده كرامةً وعملًا . فثقل ذلك على من كان يُطيف بالأسد من قرابينه وأصحابه وعُمّاله ، وعادَوه وحسدوه وأتمروا ليحمّلوا عليه الأسدَ ويهلكوه . فلما اجتمعوا على ذلك من كيدهم ، دبّوا ذات يوم للحم كان الأسد استطرفه واستطابه فأمره برفعه فى موضع طعامه ليعاد إليه ، فسرقوه ثم أرسلوا

به إلى بيت ابن آوى فخبئوه فى موضع لا يطلع عليه أحد . فلما كان من الغد ودعا الأسد بغدائه فقد ذلك اللحم والتمسه فلم يجده ، وابنُ آوى غائب والقومُ الذين أرادوا المكر به حضور. فلما رأوا الأسد قد احتشد فى طلب اللحم وغضب ، نظر بعضهم إلى بعض فقال أحدهم قول المخبر الناصح : إنه لا بدّ لنا أن نُخبر الملك بعلمنا فيما يضرّ به وينفعه ، وإن شقّ ذلك على مَن شقّ عليه ؛ إنه بلغنى أنّ ابن آوى كان ذهب باللحم إلى منزله . قال آخر : أراه شبيهاً أن يكون فعل ذلك ، ولكن انظروا وافحصوا فإنّ معرفة الخلائق شديدة . قال آخر : أجل لعمرى ما تكاد السرائر يُطّلع عليها ؛ ولكن إن فحصتم فوجدتم ذلك فى منزل ابن آوى فكلّ شئ كان يُذكر لنا من عيوبه وخياناته حقّ ، وحقيق أن نحذره ونصدّق كلّ ما كان قيل لنا فيه . فقال آخر : كيف يسلم مَن خاتَل السلطان ، وكيف يخفى ذلك له ، ومخاتلةُ الأصحاب لا تكاد تخفى ؟ قال آخر : لقد أخبرنى مخبر عن ابن آوى بأمر عظيم فما وقع فى نفسى حتى سمعت كلامكم . قال آخر : لم يخف علىّ أمره وخبثه أولَ ما رأيته ، وقد قلت مراراً واستشهدت فلاناً : إنّ هذا المخادع المتخشع يوشك أن يفتّش عن خيانة فاحشة وذنب عظيم . قال آخر : لئن كان هذا المتأله المتخشع الذى يرينا أنّ عمله عملُ النسّاك خان هذه الخيانة ، إنّ ذلك لمن أعجب العجب .

قال آخر: لئن وُجِد هذا الأمر حقًّا فإنها ليست خيانة فقط، بل مع الخيانة كفرُ النعمة والجرأةُ على الذنوب. قال آخر: أنتم أهل العدل والفضل، ولا أستطيع أن أكذّبكم، ولكن يستبين صدق هذا من كذبه لو قد أرسل الملك إلى بيت ابن آوى ففتّشه. قال آخر: إن كان منزله مفتَّشاً فالعجَل فإنّ عيونه وجواسيسه مبثوثة بكل مكان. قال آخر: قد علمت أنّ ابن آوى لو فُتّش منزله واطُّلِع على عيوبه وخيانتـه سيحتال بمكره حتى يُشبّه على الملك فيعذِره.

فلم يزالوا بهذا الكلام وأشباهه حتى وقع ذلك فى نفس الأسد، وحقّق الاتهام لابن آوى فدعا به فقال: ما صنعت باللحم الذى أمرتك بالاحتفاظ به؟ قال: دفعته إلى فلان صاحب الطعام - وكان ممن تابع القوم - فسأله الملك عن اللحم، فقال: ما دفع إلىّ شيئاً. فوجّه الأسد أمناءه إلى بيت ابن آوى فوُجِد اللحم فى بيته فأتوا به الأسد. فدنا إلى الأسد ذئب لم يكن ليتكلّم بشئ من تلك الأمور، وكان يُظهِر أنه من أهل العدل الذين لا يتكلّمون إلّا فيما صحّ عندهم واستبان لهم أنه حقّ، فقال: أما إذا اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفوَنّ عنه؛ فإنه إن عفا عنه لم يَعُد أحد يُطلع الملك على خيانة خائن ولا ذنب مذنب. فأمر الأسد بابن آوى أن يُخرَج من عنده ويُحتَفظ

به . فقال عند ذلك بعض جلساء الأسد : إنى لأعجب من رأى الملك ومعرفته بالأمور ، كيف يخفى عليه أمر هذا المخادع ؟ وقال آخر : فأعجب من هذا أنى لا أراه إلّا سيصفح عنه بعد الذى ظهر عليه منه .

ثم إنّ الأسد أرسل إلى ابن آوى بعضهم لينظر ما يكون من عُذره ، فجاء الأسدَ منه برسالةٍ كذِب . فغضب الأسد من ذلك ، وأمر بابن آوى أن يُقتل . وبلغ ذلك أمّ الأسد فعلمت أنّ الأسد قد عَجِل فى أمره ، فأرسلت إلى الذين أُمِروا بقتله أن يؤخّروه ، ودخلت على الأسد فقالت له : لأىّ ذنب أمرت بابن آوى أن يقتل ؟ فأخبرها الأسد بالأمر . فقالت له : قد عَجِلت يا بُنىّ ، وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة ، والأناة والتثبّت . ولا يزال يجتنى ثمرة الندامة وضعف الرأى من لم يتثبّت فى الأمور . وليس أحد أحوجَ إلى التؤدة والتأنّى من الملوك ؛ فإنّ المرأة بزوجها ، والولد بوالديه ، والمتعلّم بالمعلّم ، والجند بالقائد ، والناسك بالدين ، والعامة بالملوك ، والملوك بالتقوى ، والتقوى بالعقل ، والعقل بالتثبّت . ورأس الحزم للملك معرفةُ أصحابه وإنزالُه إيّاهم منازلَهم ، واتهامُ بعضهم على بعض . فإنه إن وجد بعضُهم إلى هلاك بعض سبيلًا ، وإلى تهجين بلاء المُبلين وإحسان المحسنين ، والتغطية على إساءة المسيئين ، لم يَدَعوا ذلك . وذلك سريعٌ فى إضاعة الأمر ، وجلب عظيم الخطر والضرر . وقد كنتَ بلوت ابن آوى

واختبرته قبل استمانتك به وتفويضك إليه فلم تزل عنه راضياً ، تزيدك الأيام له استصلاحاً ، وإليه استرسالًا ، وفيه رغبة ، فأمرت بقتله فى طابَق من لحم فقدته . فعسى أصحابك أن يكونوا قد ألزموه من ذنبه باطلًا ؛ لحسدهم له وتعاونهم عليه . واعلم أنّ الملوك إذا وَكلوا إلى غيرهم ما ينبغى لهم مباشرته بنفوسهم ، وألزموا نفوسهم ما ينبغى لهم تفويضُه إلى الكُفاة ، ضاعت أمورهم ودعوا الفساد إلى أنفسهم . والملوك يحتاجون إلى النظر فى وجوهٍ شتّى ؛ فإذا آثروا النظر فى بعض تلك الوجوه على بعض ، لم يأمنوا خطأ البصر وزلل الرأى ، كصاحب الخمر إذا أراد شراءها احتاج إلى اختيار لونها وطعمها وريحها ، فإن هو آثر بالاختبار بعض ذلك دون بعض لم يأمن الغبن والخسران . وكالرجل الذى يرى بين عينيه شعَراً من المرض ، وليس بشعر ، فلا يتثبّتِ فى القضاء أنه ليس بشعر من المرض ، ويعلم أنه لو كان شعراً أبصره غيره كما أبصره هو ليخبره ويعتبر مرضه ، وكاليراعة يراها الجاهل فى ظُلمة الليل فيقضى عليها بالمعاينة ، قبل أن يلمسها ، أنها نار ، فإذا لمسها تبين له خطأ قضائه . وقد كنتَ حقيقاً أن تنظر فى خطأ ابن آوى نظر متثبّت فتعلمَ أنه ، إذ لم يأكل اللحم الذى كنتَ ربّما أمرت له بالكثير منه فكان يجعله فى طعامك وطعام جندك ، ليس بخليق لسرقة قليل من اللحم أمرته بالاحتفاظ به . فافحص عن أمره فإنه لم يزل ذلك[3] عادة

الأرذال والأنذالِ حسدُ أهل المروءة والفضـــل واستثقالهم . ولم يزل جُهّال الناس يحسُدون علماءهم ، ولئامُهم يحسدون كِرامهم ، وشِرارهم يحسدون خِيارهم . ولابن آوى مروءة وفضل . فعسى أعداؤه من أصحابك فطنوا لموضع ذلك اللحم فجعلوه فى منزله من غير علم منه . فإنّ الحدأة إذا أصابت البَضعة من اللحم نافسها فيها كثير من الطير ، والـكلبَ إذا كان فى فيه العظم تعاون عليه عِدّة من الـكلاب . وإنّ خصماء ابن آوى لم ينظروا فيما يضرّك ولم يرغبوا فيه عنك إلا لعاجل منفعة أنفسهم ؛ فانظر أنت فيما ينفعك لنفسك إن لم ينظر لك أحد ، ولا تمالئهم على ما يضرّك ؛ فإنّ أعظم الأشياء ضرراً على الناس عامـةً ، وعلى الولاة خاصـةً ، أمران : أن يُحرَموا صالحَ الأعوان والوزراء والإخوان ، وأن يكون وزراؤهم وإخوانهم غير ذوى مروءة ولا غناء ولم يزل غَناء ابنِ آوى عنك عظيماً ؛ يؤثِر منفعتك على هواه ، ويشترى راحتك بنصَبه ، ورضاك بسَخَطه ، لا يطوى عنك أمراً ، ولا يكتمك سرًّا ، ولا يرى شيئاً احتمله منك أو بذله لك عظيماً . فمن كان من الأصحاب هذه صفته فإنما منزلته منزلةُ الآباء والأبناء والإخوان .

فبينما أمّ الأسد فى كلامها إذ دخل على الأسد بعض مَن كان مَـكَر بابن آوى فأطلَع الأسد على أمره . فلما علمت أمّ الأسد أنّ الأسد قد أطّلع على براءة

ابن آوى قالت للأسد : أما إذ اطّلعت على براءة ابن آوى وجرأة أصحابك عليه ، فلا ترضينّ بذلك منهم . ولا تدعنّ تشتيت ذات بينهم حتى تنقطع منك الشفقةُ عليهم ، فيتخذوك مركباً فتعوّدهم الاحتمال منك وتجرّئهم على ضرّك وشينك . ولا تغترنّ بسلطانك عليهم فيدعوك ذلك إلى استصغارهم والتهاون بأمرهم ؛ فإنّ الحشيش الضعيف إذا جُمع فُتِل منه الحبل القوىّ الذى يوثَق به الفيل المغتلم الشديد . فأعِد لابن آوى منزلتَه وخاصّته . ولا يؤيِسنّك من مناصحته ما فرَط إليه منك من الإساءة ؛ فإنه ليس كل من أسىء إليه ينبغى أن يُتخوّف غِشّه وعداوته ، ويؤيَس من نصيحته ومودّته ؛ لكن ينبغى أن يُنزَل الناس فى ذلك على اختلاف ما بينهم ؛ فإنّ منهم من إذا ظُفِر بقطيعته كان الرأى أن يُغتنَم ذلك منه ويُمتنع من معاودته ، ومنهم من لا ينبغى تركه وقطعه على كل حال . فمن عُرف بالشرارة ولؤم العهد ، وقلّة الوفاء والشكر ، والبعد من الورع والرحمة ، والجحود لثواب الآخرة وعقابها ، والحسد وإفراط الشره والحرص ، والسرعة إلى سوء الظن والقطيعة ، والإبطاء عن المعاودة والمراجعة ، فقطعُه أحزم للرأى . ومن عُرف بالصلاح وكرم العهد ، والشكر والوفاء والمحبة للناس ، والسلامة من الحسد والحقد ، والبعد من الأذى ، والاحتمال للأصحاب والإخوان وإن ثقلت عليه منهم المئونة ، فهذا حقيق أن تُغتنَم صحبته وصلته ويُمتَنع من قطيعته . واحذر من الخلطاء

الثمانية : الكفور النعمة الغادر بما يعهد إليه ، والذى لا يؤمن بيوم الحساب والثواب والعقاب ، والمفرط فى حرصه وهمّه وغضبه ، ومن يُسخِطه اليسير بغير علّة ، ومن لا يرضى بشئ وإن كان كثيراً جسيماً ، وذو المكر الداهى الغامض مكراً ، واللهج بالزنا والخمر ، والسيّئ الظن المتلوّن المتهجّم القليل الحياء . واعتقد من الخلطاء والأصحاب : الشكورَ النعمة الوفىّ العهد ، والكريم عند تصاريف الأمور ، وذا الدين المتقى الورع ، والمستريح الصدر بالخيرات ، والعالم الديّن المحبّ الخير للناس ، والرحيم القليل الحقد الصافح عن ذنوب أخلائه المحافظ عليهم غير الناسى لودّهم ، والمختبَر بالعفة والحياء .

فلما ظهر للأسد براءة ابن آوى مما قُرِف به ازداد له تكرمة ، وبه ثقة ، فدعاه واعتذر إليه مما كان منه فى أمره وقال له : إنّ الذى كان من الأمر قد زاد فيما كان من ثقتى بك ثقة ، وزاد ظنّى بك إلى ما كان من حسنه حسناً ، فأقم على ما كنتَ عليه من أمرنا وعملنا . قال ابن آوى : إنى قائل لك أيها الملك قولاً فلا يَغلُظنّ عليك ؛ فإنّ أحقّ مَن قبِل من أهل الحجج الحكّام ، وإنك إن كنتَ أحدثت بى ثقة وحسنَ ظن فليس شيئاً تفضّلت به علىّ فتعتدّه من نفسك صنيعة عندى ، أو طولاً علىّ ؛ ولكن قد أحدثتُ بك أيها الملك سوءَ ظن ، وقلّة ثقة ، لما ظهر لى من سرعة استماعك لأهل

الكذب وإفسادك الكثير من حُسن البلاء الذى لا تنكره بالقليل الحقير من القذف الذى لا تعرفه ، وتقلبك إلىّ بالبائقة والجائحة قبل التثبّت والإعذار . فقد صيّرتنى فى حدّ لا تثق بى ولا أثق بك ، لما صيّرت لهم علىّ من السُبُل ؛ لأنه لا ينبغى للملك أن يثق بهذه الأصناف ممن قد عوقب العقوبة الكبيرة عن غير جُرم ، ومَن ناله الضرّ العظيم منهم ، ومن عزلوه عن ولاية وعمل كان فى يديه ، ومن سلبوه أمواله وعقاره ، ومن كان فى الثقة عندهم فأقصوه وقطعوا طمعه بغير سبب ، وذى المروءة والنبلَ إن نُزّل غير منزلته ، أو قدّم عليه أكفاؤه ونظراؤه ، والمظلوم الطالب للنصَفة غير المنصَف ، ومن يرجو المنفعة والصلاح بحضرة السلطان ، ومن استُقبِل بما يكره فى المحافل ، وذى الحرص القليل التبرع ، والمذنب الراجى للعفو فلم يعف عنه . فهذه الأصناف أعداء الملك وأعدائى ، وقد صار لهم السبيل إلىّ والاستخفاف بى والجرأة علىّ . قال الأسد : ما أخشن كلامك وأغلظه . قال ابن آوى : أيها الملك لا يغلظنّ عليك ولا يخشُن الحق والصدق إن خفّ عليك الكذب والباطل ، مما حُمّلت به علىّ . ولا تحملنّ جوابى لك والغلظة فى محاورتى إياك على سفه رأى وقلّة بصر بما أقول ؛ ولكن قد قلت ذلك لخصلتين : منهما أنّ فى القصاص تسليةَ الضغائن وإطلاقاً لمنعقد الحقد ، وأحببت أن أخرج بها فى

نفسى مما وترتنى به ليسلم لك صدرى من الضِّغن ولتخلص لك منه سلامة العتب ؛ ومنهما أنى أحببت أن تكون أنت الحاكم على نفسك ، وألّا أكون أنا الحاكم عليك ؛ مع أنى لم أجترئ على هذه المقالة حتى استعهدتك من نفسك . قال الأسـد : أوَ لم أحسن التثبّت فى أمرك ؟ قال ابن آوى : إنما كان التثبت من أمّ الملك ، وكان التعجيل بقتلى من قِبَلك أيها الملك . قال الأسد : ألم تزعم أنّ التجاوز عن إساءة العمد أفضل ما يكون من الإحسان ؟ فكيف لا يكون ذلك لأهل الخروج عن الخطأ على الكره ، إلى الإحسان على علم ؟ قال ابن آوى : إنى لم أقل ما قلت لأوقف الملك على إساءة فى أمرى ، ولا على الخطأ فى أمره وحكمه فى شأنى ؛ ولكنى أيضاً قد تخوّفت موضعاً حدث لأهل المكر يجدون به فيما بينى وبينك مدخلًا . قال الأسد: وما ذاك الموضع ؟ قال : يقال لك أيها الملك : قد دخلتْ قلبَ ابن آوى عليك ضغينةٌ فيما أدخلتَ عليه من التهمة والوحشة ، وما أشربت به قلبه من الإشراف على الهلَكة ، فقال كذا وكذا . وهذا سبب مظنون بالملوك ممن أصابته منهم عقوبة أو جفوة أو تغيّر منزله أو عُزل عن سلطان أو أوثر غيره عليه ممن هو دونه فى المنزلة والحال . قال الأسد : إنك لست ممن يصدّق عليه القبيح ، وقد عرفتك بالأثر الحسن ، وإنك عندنا ممن يَشكر الحسنة

ويحتمل السيئة ويُذكر جميع ما أبلى ، فلا يعرض بك تخوّف لقبولى فيك قبيحاً يأتى به آت ، ولا يسوّ ظنك ما حسن ظننا فيك . وأقم على ما وليّناك من أمرنا ؛ فإنّا منزلوك منزلة الكرام الأخيار ، والكريم تنسيه الخَلّة الواحدة من الإحسان ألفَ خلّة من الإساءة .

وأضعف له الملك الكرامة ، وازداد به ثقة وإليـه تفويضاً وبه اغتباطاً حتى هلك .



باب السائح والصواغ

قال الملك للفيلسوف : قد سمعت مثل الملوك فيما يجرى بينهم وبين قرابينهم ، فأخبرنى عن الملك ، إلى من ينبغى أن يصنع المعروف ؟ ومن يحق له أن يثق به ؟

قال الفيلسوف : إنّ الملوك وغيرهم جُدُر أن يأتوا الخير إلى أهله ، وأن يؤمّلوا من كان عنده شكر ، ولا ينظروا إلى أقاربهم وأهل خاصّتهم ، ولا إلى أشراف الناس وأغنيائهم وذوى القوّة منهم ، ولا يمتنعوا أن يصنعوا المعروف إلى أهل الضعف والجهد والفاقة ؛ فإنّ الرأى فى ذلك أن يجرّبوا ويختبروا صغار الناس وعظماءهم ، فى شكرهم وحفظهم الودّ ، وفى غدرهم وقلّة شكرهم ، ثم يكون عملهم فى ذلك على قدر الذى يبدو لهم ؛ فإنّ الطبيب الرفيق لا يداوى المرضى

بالمعاينة لهم فقط ، ولكنه ينظر إلى البول ويَجُسّ العروق ، ثم يكون العلاج على المعرفة وقدرها . ويحقّ على المرء اللبيب ، إذا وجد قوماً لهم وفاء وشكر ، أن يحسن فيما بينه وبينهم لعلّه يحتاج إليهم يوماً من الدهر فيكافئوه ! فإنّ العاقل ربما حذِر الناس ولم يأمن على نفسه أحداً منه ، وأخذ ابن عرسٍ فأدخله كُمّهُ والطيرَ فوضَعه على يده[1] وقد قيل : ينبغى لذى العقل ألّا يحقر صغيراً ولا كبيراً من الناس ولا من البهائم ، ولكنه جدير أن يبلُوَهم ويكون ما يصنع إليهم على قدر الذى يرى منهم . وقد مضى فى ذلك مثلٌ ضربه بعض الحكماء . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنّ أناساً انطلقوا إلى مغار فحفروا فيـه زُبْيَة للسباع فوقع فيها رجل صائغ وَبَبْر وحيّة وقرد . فلم يَهِجْن ذلك الرجل ، ولم يجدوا لهم مخلصاً . فمرّ رجل سائح بهم فاطّلع فيها . فلما رآهم فـكر فى نفسه وقال : ما أرانى مقدّماً لآخرتى شيئاً أفضلَ من أن أُخَلّص هذا الإنسان من بين هؤلاء الأعداء . فأخذ حبلًا فدلّاه فتعلّق به القرد لِخفّته فأخرجه ، ثم دلّاه الثانية فتشبّث به البَبْر فأخرجه ، ثم دلّاه الثالثة فالتوت به الحيّة فأخرجها . فشكرن له صنيعه ، وقُلْن : لا تخرج هذا الإنسان من الزُبية ، فإنه ليس فى الأرض أقلُّ شكراً من الإنسان ، ولا سيما هذا الرجلُ خاصةً . وقال القرد : إنّ وطنى فى جبل

كذا وكذا إلى جانب مدينة يقال لها بَراجون[٢]. وقال البَبْر: وأنا أيضاً فى أجمة إلى جانبها. وقالت الحيّة: وأنا أيضاً فى سور تلك المدينة، فإن أتيتها يوماً من الدهر أو مررت بها فاحتجت إلينا فنادِنا حتى نخرج إليك ونجازيك بما أوليتنا وأتيت إلينا. ثم إنّ السيّاح أدلى الحبل إلى الصائغ، ولم يلتفت إلى ما ذكره القرد والبَبْر والحيّة من قلّة شكره، واستخرجه فسجد له وأثنى عليه وقال له: إنك قد أوليتنى معروفاً جسيماً وأنا حقيق بشكره وحفظه. فإن قُضى لك أن تأتى مدينة براجون - وهى المدينة التى ذكرها القرد وصاحباه - فسل عنى، فإنّ منزلى بها؛ لعلّى أجازيك بجميل ما كان منك إلىّ.

ومضى كلّ واحد منهما لوجهه. ومكث السيّاح حيناً ثم عرضت له حاجة نحو تلك المدينة، فسار إليها فلقيه القرد وسجد له وقبّل يديه ورجليه واعتذر إليه وقال: إنى لا أملك شيئاً؛ ولكن أنظِرنى ساعة حتى آتيك ببعض ما تصيب منه. فمضى القرد ولم يلبث أن جاءه بفاكهة طيّبة فوضعها بين يديه، فأكل منها حاجته. ثم توجّه نحو المدينة فاستقبله البَبْر فحيّاه وسجد له وقال: قد أوليتَنى جميلًا، فلا تبرح حتى أرجع إليك. وذهب إلى ابنة الملك فقتلها وأخذ حَلْيها وأتاه به فدفعه إليه من غير أن يُعلمه. فقال السيّاح فى نفسه:

هذه البهائم قد أولتنى هذا وصنعته بى ؛ فكيف لو انتهيت إلى الصوّاغ ؟ فإنه إن كان معسراً لا شئ له ، فإنّ أقلّ ما يصنع أن يبيع لى هذا الحلى بثمنه ، فيعطينى بعضه ويأخذَ بعضه .

ثم إنّ السيّاح دخل المدينة فأتى منزل الصوّاغ فرحّب به وأدخله منزله . فلما بصُر بالحلى عرفه فقال : اطمئن حتى آتيك بشئ تأكله ، فإنى لا أرضى لك بما فى منزلى . فانطلق الصائغ حتى أتى الملك فقال : إنّ الرجل الذى قتل ابنتك وأخذ حَلْيها ، قد أخذتُه ، وهو محبوس عندى ؛ فلا تطالبَنّ به أحداً ، فإنى قد ظفرت به ومعه الحَلْى . فأرسل الملك بأصحابه مع الصوّاغ ، فهجموا على السيّاح ، فأخذوه وأتوا به إلى الملك . فلما رأى الحلى معه أمر به أن يعذَّبَ وأن يطاف به فى المدينة ثم يُصلب . فلما فُعل به ذلك وطيف به المدينة ، جعل يبكى ويقول بأعلى صوته : لو أنى أطعت القرد والببر والحيّة فيما أمرنى به لم يصبنى هذا البلاء . فسمعت بذلك الحيّة فخرجت من جُحرها . فلما بصُرت به اشتدّ عليها أمره ، وفكّرت فى الاحتيال لخلاصه . فانطلقت إلى ابن الملك فلدغته على رجله . فبلغ الملكَ ذلك فدعوا له أهل العلم ليرقوه فلم يُغنوا عنه شيئاً . فنظروا له فى النجوم واحتالوا له حتى تكلّم فقال : إنى لا أبرأ حتى يأتينى هذا السائح فيرقينى ويمسح يده علىّ ؛ فإنك أيها الملك أمرت بقتله ظلماً وعُدواناً .

وقد كانت الحيّة تقدّمت إلى أخت لها من الجن فأخبرتها بخبر السائح وفَعاله بها وما قد أصابه ، فذهبت إلى ابن الملك فأرته ذلك فى منامه فنطق به بحضرة المنجّمين . فانطلقت الحيّة إلى السيّاح فأعلمته بذلك وقالت له : ألم أنهك عن هذا الإنسان فلم تطعنى ؟ وأعطته شجرة تنفع من سمّها ، وقالت له : إذا صرتَ إلى الملك فارقِ الغلام واسقِه من هذه الشجرة ، فإنه يبرأ ، واصدُق الملك الحديث فإنك تنجو إن شاء الله . فلما سمع الملك ذلك من ابنه : أنّ شفائى[٣] عند الناسك الذى أخذتَه وأمرتَ بعذابه ، أمر الملك أن يُكَف عن عقوبة الناسك وأن يؤتى به . فأُتى به ، فأمره أن يَرقى ابنه ، فقال : لست أحسن ما أمرتنى به ؛ ولكن أدعو الله ، عزّ وجلّ ، بدعوة أرجو أن يكون فيها شفاء ما به . فقال الملك : إنما دعوتك لتخبرنى بحاجتك فى هذه المدينة ، وما أقدمكها . فقال السيّاح وقصّ عليه أمره ، وما كان من صنعه إلى الصوّاغ والقرد والحيّة والببر ، والذى قلن له فى أمر الصوّاغ ، وما حمله على أن يأتى مدينته . ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنى صادق فيما ذكرت فعجّل لابن الملك إبراءه مما هو فيه ، والشفاء والعافية . فبرئ الغلام مما كان به وكُشِف عنه الألم . فأعطى الملك السيّاح ، ووصله وأحسن جائزته ، وأمر بالصائغ أن يُضرب حتى يموت ، ويصلب .

ثم قال الفيلسوف للملك : ففى صنع الصائغ بالسيّاح وكفره به ، بعد استنقاذه إياه من المكروه ، ومكافأة البهائم له وتخليص بعضها له من القتل - عبرةٌ للمعتبر ، وفكرة لمن يفكّر ، وأدب فى وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم قرُبوا أم بعُدوا ؛ لما فى ذلك من صواب الرأى وجلب الخير وصرف المكروه .



باب ابن الملك وأصحابه

قال الملك للفيلسوف : قد فهمتُ ما ذكرتَ مما يحقّ على الملك من التوخّى بمعروفه أهلَ الشكر قرُبوا أم بعُدوا . فأخبرنى ما بالُ الرجلِ السفيه يصيبُ الرفعة والشرف ، والحكيمِ اللبيب لا يخلو من الهمّ والجهد ؟

قال الفيلسوف : كما أنّ الرجل لا يبصر إلّا بعينيه ولا يسمع إلّا بأذنيه ، كذلك العلم ، إنما تمامه الحلم والعقل والتثبّت ؛ غير أنّ القضاء والقدر يغلبان كل شئ . وإنما يريدان أدنى علّة[1] فيموّلان صاحبها أو يهلكانه . ومثَل ذلك مثل ابن الملك الذى رُئِىَ على باب مدينة يقال لها مَطون[2] جالساً وقد كتب على الباب : « إنّ العقل والجمال والاجتهاد والقوة وما سوى ذلك إنما مِلاكه القضاء والقدر » . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنّ أربعة نفر اصطحبوا : أحدهم ابن ملك ، والآخر ابن تاجر ، والآخر ابن شريف مِن أتمّ الناس حسناً وجمالاً ، والآخر ابن أكّار . وكانوا جميعاً محتاجين قد أصابهم ضُرّ وجَهد ، لا يملكون شيئاً إلّا ما عليهم من ثيابهم . فبينما هم يمشون إذ قال ابن الملك : إن أمر الدنيا كله بقدر . قال ابن التاجر : العقل أفضل من كل شئ . قال ابن الشريف : الجمال خير مما ذكرتم . قال ابن الأكّار : الاجتهاد أفضل من ذلك كله . ثم مضوا نحو مدينة يقال لها مَطرون . فلما انتهوا إلى تلك المدينة أقاموا فى ناحية منها ، وقالوا لابن الأكّار : انطلق فاطلب لنا باجتهادك اليوم طعاماً ليومنا هذا . فانطلق ابن الأكار يسأل : أىّ عمل إذا عمله الرجل من غُدوة إلى الليل كَسَبه ما يُشبِع أربعة نفر ؟ فقيل له : ليس شئ أعزّ من الحطب ، وكان على رأس فرسخ منها ، فتوجه إليه فحمل طُنّاً من حطب فجاء به فباعه بنصف درهم . ثم اشترى به ما يُصلح أصحابه . وكتب على باب المدينة : « اجتهاد يوم واحد تبلغ قيمته نصف درهم » . وأتاهم بما اشترى فأكلوه .

فلما أصبحوا قالوا لابن الشريف : انطلق فاكسِب لنا بجمالك بعض ما يقُوتنا اليوم . فانطلق ففكّر فى نفسه وقال : لست أعرف شيئاً من الأعمال ، وأستحى أن أرجع إلى أصحابى بغير شئ . وهمّ أن يفارقهم ، فأسند ظهره إلى

شجرة فى المدينة . فبينما هو مهموم إذ مرّت به امرأة لبعض عظماء أهل المدينة فأعجبها جماله. فأرسلت إليه جاريتها فأتت به إلى منزلها . ثم أمرت به فنُظِّف، ثم خلا بها يومه كله فى نعيم وسرور . فلما أمسى أمرت له بخمسمائة دينار . فلما قبضها توجّه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة : « جمال يوم واحد بخمسمائة دينار » .

فلما أصبحوا قالوا لابن التاجر : انطلق أنت اليوم فاكسِب لنا بعقلك وتجارتك شيئاً . فذهب ابن التاجر، فما لبث قليلًا حتى أبصر سفينة عظيمة فى البحر قد أرست إلى الشط غير بعيد من المدينة ، وقد خرج إليها أناس كثير ليشتروا ما فيها ، فساوموا أصحابها ، ثم قال بعضهم لبعض : انصرفوا يومكم هذا حتى يكسُد عليهم ويُرخِصوه علينا . فجاء ابن التاجر فاشترى ما فيها بمائة ألف دينار . فلما بلغ القوم ذلك أتوه فأربحوه مائة ألف درهم ، فأخذها منهم وأحال صاحبَ السفينة على التجار ، ورجع إلى أصحابه . فلما مرّ بباب المدينة كتب عليه : « عقل يوم واحد بمائة ألف درهم » .

فلما أصبحوا فى اليوم الرابع قالوا لابن الملك : انطلق أنت اليوم فاكسب لنا شيئاً . فذهب حتى أتى باب المدينة فجلس على دُكّان بالباب . فقُضِى أنّ ملك المدينة هلك فى ذلك اليوم ، ولم يُخلّف ولداً ولا أخاً ولا قرابة . فمرّوا

عليه بالجنازة فبصُروا به لا يتحرّك ولا يتحاش ولا يحزن لموت الملك . فسأله رجل فقال[3] : من أنت ؟ وما الذى يقعدك على باب المدينة لا يحزُنك موت الملك ؟ فلم يجبه . فشتمه وطرده . فلما مضوا رجع إلى مكانه . فلما انصرفوا رآه الذى طرده فقال : ألمَ أنهك عن هـذا الموضع ، وأتقدم إليك ؟ فأخذه وحبسه .

ثم إنهم اجتمعوا ليملّكوا عليهم رجلًا يختارونه ، فقام الذى كان أمر بالفتى إلى الحبس فحدّثهم بقصّته ، وقال : إنى أتخوف أن يكون عيناً علينا لعدوّنا . فبعثوا إليه فأتوا به فسألوه مَن هو ، وما أمره ، وما الذى أقدمه بلدهم ؟ فقال : أنا ابن اصطَهر ملك أرض قورماه[4] . تُوُفِّى والدى فغلبنى أخى على المُلك ، وأنا أكبر منه ، فهربت منه حذراً على نفسى . فعرفه من كان وطئ أرضهم فأثنوا عليه ، وملّكوه عليهم . وكان سنّتهم إذا ملّكوا الرجل طافوا به على الفيل الأبيض ، وتركوا[5] التاج على رأسه وجالوا به المدينة . فلما مرّ على باب المدينة فأبصر ما كتبه أصحابه ، أمر أن يُكتب مع ذلك : « إنّ الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب المرء من خير وشرّ فبقضاء وقدر . اعتبروا ذلك بما ساقه الله إلىّ من الخير والسعادة » .

ثم إنّ الملك أتى مجلسه وقعد على سرير ملكه وأرسل إلى أصحابه فأتوه

فوّلهم وأعطاهم وأغناهم . ثم جمع الناس والعمّال وذوى الرأى من أهل مملكته فقال : أما أصحابى فقد استيقنوا أنّ الذى رزقهم الله من الخير إنما كان بقدَر فأعان عليه ببعض ما ذكروا . وأما أنا فإنّ الذى منحنى الله ورزقنى ووهبه لى لم يكن من الجمال ولا من العقل ولا من الاجتهاد . وما كنت أرجو ، إذ طردنى أخى ، أن أصيب هذه المنزلة ، ولا أن أكون بها ؛ لأنى قد رأيت من أهل هذه الارض مَن هو أفضل منّى جمالًا وحسناً ، وعلمت أنّ فيها مَن هو أكمل منّى عقلًا ورأياً وأشدّ اجتهاداً ، فساقنى القضاء والقدر إلى أن اغتربت فملكت أمراً قد علمه الله وقدّره ، وقد كنت راضياً أن أعيش بحال خشونة وضيق معيشة . فقام سيّاح كان فى جمعهم ذلك فقال : أيها الملك قد تكلّمتَ بحلم وعقل لحسُن ظننا بك ، وعظُم رجاؤنا فيك ، وعرفنا ما ذكرت ، وصدّقناك فيما وصفت ، وعلمنا أنك كنتَ لِما ساق الله إليك من ذلك أهلًا ، بفضلٍ قَسَمه لك ، وتابَع نعمه عليك ؛ فإنّ أسعد الناس فى الدنيا والآخرة وأولاهم بالسرور فيهما مَن رزقه الله ما رزقك ، وجعل عنده مثل ما عندك ، وقد أرانا الله الذى نحبّ إذ ملكت علينا . فنحمد الله على ما أكرمنا به من ذلك وامتنّ به علينا . وقام سيّاح آخر فأثنى على الله تعالى ومجّده وذكر آلاءه وقال : أيها الملك إنى قد كنت ، وأنا غلام قبل أن أكون سائحاً ، أخدم

رجلًا من أشراف الناس . فلما بدا لى أن أرفض الدنيا فارقته . وقد كان أعطانى من أجرتى دينارين . فأردت أن أتصدّق بأحدهما وأنفق الآخر . فقلت : أليس أعظمَ الأجر أن أشترى نفساً بدينار وأُعتقها لوجه الله ؟ فأتيت السوق فوجدت مع صيّاد حمامتين ، فساومته بهما فأبى أن يبيعهما بأقلّ من دينارين . فجهدت على أن يعطينيهما بدينـار فأبى . فقلت : لعلهما أن يكونا زوجين أو أخوين ، فأخاف أن أعتق أحدهما فيموت الآخر . فاشتريتهما منه بالثمن الذى سمّى . وأشفقت ، إن أنا أرسلتهما فى أرض عامرة ، ألّا يستطيعا أن يطيرا من الهُزال وما لقيا من الجهد . فذهبت بهما إلى مكان كثير الرعى فسرّحتهما فطارا فوقعا على شجرة . ثم انصرفت راجعاً . فقال أحدهما للآخر : لقد خلّصنا هذا السائح من البلاء الذى كنا فيه ، وإنّا لحقيقان أن نجازيه بفعله . فقالا لى : قد أتيتَ إلينا معروفاً ، ونحن أحقّ أن نشكرك به ونجازيك عليه ؛ وإنّ فى أصل هذه الشجرة جرّة مملوءة دنانير ، فاحتفِر عنها فخذها . فأتيت الشجرة وأنا فى شكّ مما قالا ، فلم أحفر إلّا قليلًا حتى انتهيت إليها فاستخرجتها ودعوت الله لهما بالعافية وقلت لهما : إذا كان علمكما على ما أرى ، وأنتما تطيران بين السماء والأرض ، فكيف وقعتما فى هذه الورطة التى نجيتكما منها ؟ فقالا لى : أيها العاقل أما تعلم أنّ القدر يغلب كل شئ ، ولا يستطيع أحد أن يجاوزه أو يقصّر عنه !

ثم قال الفيلسوف للملك : ليعرف أهل النظر فى الأمور والعمل بها أنّ الأشياء كلها بقضاء وقدر ؛ لا يجلب أحد منها إلى نفسه خيراً ولا يدفع عنها مكروهاً ، وأنّ ذلك كله من الله عز وجل ، وأنّ الله يفعل فيها ما أراد ويقضى فيها ما أحبّ . فلتسكن إلى ذلك الأنفس ، ولتطمئنّ إليه القلوب ؛ فإنّ ذلك لِمَن ألهمه الله ووفّق له ، سعةٌ وراحة .



باب اللبؤة والشعهر[1]

قال الملك للفيلسوف : قد فهمت ما ذكرت من أمر القضاء والقدر وغلبتهما للأشياء . فأخبرنى عمّن يدع ضرّ غيره لما يصيبه من الضرّ ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعدوان من غيره .

قال الفيلسوف : إنه لا يُقدم على طلب ما يضرّ الناس ويسوؤهم إلّا أهلُ الجهالة والسفه ، وسوءِ النظرِ فى عواقب الأمور فى الدنيا والآخرة ، وقلّةِ العلم بما يدخل عليهم فى ذلك من حلول النقمة ، ويلزمهم من تَبِعة ما اكتسبوا مما لا يحيط به القول . فإن سلم بعضهم من بعض لمنيّة عرضت قبل نزول وبال ما صنعوا ، اعتبر[2] بهم الآخرون بما ينقطع فيه الكلام والوصف من الشدّة وعظم الهول . وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المكروه من غيره ، فارتدع

عن أن يبتلى أحداً بمثل ذلك من الظلم والعدوان ، وربما نفع ما كفّ عنه فى الآخرة . ونظير ذلك حديث الأُسوار واللَّبُؤة والشَّعْهَر . فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنّ لَبُؤة كانت فى غَيضة ولها شِبْلان ، وأنها خرجت ذات يوم تطلب الصيد ، وخلّفتهما . فمرّ بهما أُسوار فرماهما حتى قتلهما ، وسلخ جلودهما ، ومضى بهما إلى منزله . ثم إنّ اللبؤة رجعت فرأت ما بشِبليْها من الأمر الفظيع فصرخت وصاحت وتقلبت ظهراً وبطناً .

وكان إلى جانبها شعهر جارٌ لها . فلما سمع بكاءها وصُراخها وجزعها ، خرج إليها فقال لها : ما هذا الذى أراه بك ؟ وما جرى عليك ؟ فأخبرينى به لأشاركك فيه . قالت : إنّ شبلىّ مرّ عليهما أُسوار فقتلهما وأخذ جلودهما وألقاهما بالعَراء . قال الشعهر : لا تحزنى ولا تصرُخى ، وأنصِفى من نفسك ، واعلمى أنّ هذا الأُسوار لم يأت إليكِ شيئاً إلّا وكنتِ ركبتِ من غيرك مثلَه ، ولم تجِدى من الأسف والحزن على شبليك شيئاً إلّا وقد كان مَن كنت تفعلين بأحبابه ما تفعلينَ ، يجد مثلَه أو أفضل منه . فاصبرى من غيرك على نحو ما صبر عليه غيرُك منك ؛ فإنه قد قيل : كما تدين تدان . وإنّ ثمرة العمل الثوابُ أو العقاب ، وهما على قدره فى القِلّة والكثرة ؛ كالزارع إذا حصد الحصاد أُعطِىَ

على قدر بذره. قالت اللبؤة: اشرح لى ما تقول وأوضحه. قال الشعهر: كم لكِ من العمر؟ قالت اللبؤة: مائة سنة. قال: ما الذى كان يقوتك ويُميشك؟ قالت اللبؤة: لحوم الوحش. قال الشعهر: ومن كان يُطعمك ذلك؟ قالت اللبؤة: نفسى. قال: أما كان لتلك الوحوش آباء وأمهات؟ قالت اللبؤة: بلى. قال الشعهر: فما لنا لا نسمع من تلك الآباء والأمهات من الضجة والجزع والصراخ ما نسمع ونرى منك؟ أما إنه لم يصبك ذلك إلّا لسوء نظركِ فى العواقب، وقلّة تفكُّركِ فيها، وجهالتك بما يرجع عليك من ضُرّها! فلما سمعت اللبؤة ذلك عرفت أنها هى اكتسبت ذلك على نفسها وجرّته إليها، وأنها هى الظالمة الجائرة، وأنه مَن عمل بغير الحقّ والعدل انتُقِم منه وأُديل عليه. فتركَت الصيد وانصرفَت عن أكل اللحم إلى الثمار، وأخذَت فى الزهد والنُسك والعبادة.

ثم إنّ الشعهر، وكان عيشه من الثمار، رأى كثرة أكل اللبؤة إياها. فقال لها: لقد ظننتُ، لقلّة الثمار وكثرة أكلك إياها، أنّ الشجر لم يحمل إلّا نزراً العامَ. ولما رأيت أكلَكِ لها - وأنت صاحبة لحم - ورفضَك رزقَك وما قسم الله لك، وتحوّلَك إلى رزق غيرك فانتقصته ودخلت عليه فيه، علمتُ أنّ الشجر قد أثمر كما كان يُثمر فيما خلا، وأنما هذه النزورة فى ذلك من

قِبَلك . فويل للشجر وللثمار ولمن كان عيشه منها ! فما أسرع هلاكهم ودمارهم ، إذ قد نازعهم فى ذلك مَن لا حق له فيه ولا نصيب ! فتركتُ أكل الثمار وأقبلتُ على أكل العشب .

وإنما ضربت لك هذا المثل لأنّ الجاهل ربما انصرف لمكروه يحلّ به عن ضرّ الناس ، كاللبؤة التى تركتْ ، بما لقيت من شبليها أكلَ لحوم الوحش ، ولقول الشعهر أكلَ الثمار ، وأقبلتْ على النسك والعبادة .

ثم قال الفيلسوف للملك : فالناس أحق بحسن النظر فى الأمر الذى لهم الحظّ فيه ؛ فإنه قد قيل : ما لا ترضاه لنفسك لا ترضه لغيرك ، وما لا تحبّ أن يُصنع بك فلا تصنعه بغيرك ؛ فإنّ فى ذلك العدل ، وفى العدل رضا الله تعالى .



باب الناسك والضيف

قال الملك للفيلسوف : قد فهمت ما ذكرت من أمر من يدع ضُرّ غيره لضرّ نفسه . فأخبرنى عمّن يدع عمله الذى يعرفه ويليق به ، ويطلب سواه فلا يقدر عليه ، فيراجع الذى كان فى يده من عمله ، فيفوته ويبقى حيران متلدداً .

قال الفيلسوف :

زعموا أنه كان فى أرض يقال لها الكرخ ناسك مجتهد فى النسك . فنزل به ضيف ذات يوم فدعا له بتمر ليُطرِفه به ، فأكلا منه جميعاً . ثم إنّ الضيف قال : ما أحلى هذا التمر وأطيبه ! وليس فى بلادى التى أسكنها نخل ، مع أنه إن لم يكن فيها فإنّ هنالك من الثمار ما أكتفى به . فإنه من يقدر على التين وما أشبهه من حلو الفاكهة يُجزيه ويقضى منه حاجته . هذا مع وخامة

التمر وقلّة موافقته للجسد. قال الناسك: إنه لا يُعدّ سعيداً مَن احتاج إلى ما لا يجد وليس بمقدور عليه، فتشرَهُ لذلك نفسُه، ويقلّ عنه صبره، ويصل إليه من ثقل ذلك واغتمامه ما يُضِرّ به ويُدخِل المشقة عليه. وإنك أنت العظيم الجد الجزيل الحظ، حين قنَعت بما رُزِقت وزهِدت فيما لا تظفر به ولا تدرك طَلِبتك منه. قال الضيف: وُفِّقت ورَشِدت. وقد سمعت منك كلاماً عِبرانياً أعجبنى فاستحسنته؛ فلو علّمتنيه! فإنّ لى فيه رغبة، وأنا عليه حريص. فقال الناسك: ما أخلقَك أن تقع، فيما تركتَ من كلامك وتكلّفت من كلام العبرانية، فى مثل ما أصاب الغراب. قال الضيف: وكيف كان ذلك؟ قال الناسك:

زعموا أنّ غراباً رأى حَجَلة تدرُج، فأعجبته مِشيتها، فطمع فى تعلُّمها، فراض نفسه فلم يقدر على إحكامها. فانصرف إلى مِشيته التى كان عليها فلم يُحسن. فبقى حيران متردداً، لم يدرك ما طلب ولم يحسن لما كان فى يده الحِفْظَ.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك خليق، إن تركت لسانك وتكلّفت علم ما لا يشاكلك من كلام العبرانية، ألّا تدركه وأن تنسى الذى كان فى يدك من غيره! فإنه قد قيل: يُعدّ جاهلًا من حاول من الأمور ما لا يشبهه وليس من أهله، لم يدركه آباؤه ولا أجداده من قبله، ولا يُعرَفون به.

ثم قال الفيلسوف للملك : فالولاة ، فى قلّة تعاهدهم للرعيّة فى هذا وأشباهه ، ألوم وأسوأ تدبيراً ؛ لأنّ تنقّل الناس من بعض المنازل إلى بعض فيه صعوبة ومشقّة شديدة . ثم إنّ الأشياء فى ذلك تجرى على منازل حتى تنتهى إلى الخطر الجسيم من مضادّة الملك فى ملكه .

فلما انتهى الملك والفيلسوف إلى باب الناسك والضيف سكت الملك ، وقال الفيلسوف : عشتَ أيها الملك ألف سنة ، ومُلِّكت الأقاليم السبعة ، وأُعطيت من كل شئ سبباً ، وبُلِّغته فى سرور منك برعيتك ، وقرةِ عينٍ منهم بك ، ومساعدة من القضاء والقدر . فلقد كمل منك الحلم ، وزكا منك العقل والقول والنيّة . فلا يوجد فى رأيك نقص ، ولا فى قولك سقَط ، ولا فى فعلك عيب . وجُمع فيك النجدة واللين ، فلا توجَد جباناً عند اللقاء ، ولا ضيّقَ الصدر فيما ينوبك من الأشياء .

وقد شرحت لك الأمور ، ولخصت لك جواب ما سألتنى عنه ، واجتهدت لك فى رأيى ، ونظرت بمبلغ فطنتى فى التماس قضاء حاجتك . فاقضِ حقى بحسن النيّة منك بإعمال فكرك وعقلك فيما وصفت لك ؛ فإنّ الآمر بالخير

ليس بأسعد به من المطيع له فيه، ولا الناصحَ بأولى بالنصيحة من المنصوح له بها، ولا المعلّم بأسعد بالعلم ممن تعلّمه منه. فمن تدبّر هذا الكتاب بعقله، وعمل فيه بأصالة رأيه، ثم فكّر فيه كان قِمناً للمراتب العظام والأمور الجسام. والله يوفّقك أيها الملك، ويصلح منك ما كان فاسداً.

فأمر الملك عند ذلك بفتح أبواب خزائنه، وأن يحكّم فيها الفيلسوف فيأخذ ما احتكم من الأموال ومن صنوف الدرّ والجوهر والذهب والفضة، وألّا يُمنَع شيئاً من ذلك. وأقطعه إقطاعاً كثيراً، ورفع درجته ومرتبته إلى الغاية التى لا يسمو إليها أحد من نظرائه.

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه وكان الفراغ منه فى
مستهل جمادى الآخر(ة) من شهور سنة ثمانية (ني)عشر(ة)
وستمائة غفر الله لكاتبه ولصاحبه ولمن نظر فيه ولجميع المسلمين
والمسلمات الأحياء منهم والأموات . كتبه لنفسه
الفقير إلى الله تعالى المعترف بالتقصير عبد الله
ابن محمد العمرى
عفا الله عنه

تعليقات

التحميد

(١) ص ١ : هذا التحميد مختص بهذه النسخة والظاهر أنه من إنشاء بعض ناسخيها أو مالكيها لا من كلام ابن المقفع (انظر تفصيل هذا فى المقدمة) .

عرض الكتاب

(١) ص ٣ : هذا أول مقدمة ابن المقفع التى جُعل عنوانها فى كثير من النسخ : "باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع". وليس لهذا فى أصل نسختنا عنوان .

والنسخ تختلف فى مكان هذه المقدمة ؛ فهى فى نسخة دى ساسى (De Sacy) والطبعات المصرية وطبعتى اليازجى وطبارة، بين باب بعثة برزويه وباب برزويه. وفى نسخة شيخو ، قبل باب الأسد والثور ، وهى فيها قصيرة جداً . وظاهر أن ترتيب نسختنا أقرب إلى الصواب ؛ لأن ابن المقفع حرىٌ أن يضع مقدمته قبل أبواب الكتاب كله . وأما "مقدمة بهنود بن سحوان" التى تصدر بها بعض النسخ فقد وضعت بعد ابن المقفع ؛ فلهذا تخلو منها نسخ قديمة كنسختنا هذه . ثم النسخ الأخرى تتقارب فيما بينها وتخالف نسختنا فى كثير من نصوص هذه المقدمة .

(٢) ص ٥ : النسخ الأخرى تضع هنا : «قراءة هذا الكتاب» بدل «طلب العلم» فى نسختنا .

(٣) ص ٦ : هذه الجملة : «وحله النوم» ليست فى النسخ الأخرى . وهى ترجمة حرفية لعبارة فارسية : «خواب أورا برد» ؛ فهى من الأدلة على أن هذه النسخة أقرب إلى ترجمة ابن المقفع (انظر المقدمة) .

(٤) ص ٨ : فى النسخ المصرية ونسخ اليازجى وطبارة : «وليس للعالم أن يعيب امرأ بشئ فيه مثله، ويكون كالأعمى الذى يعير الأعمى بعماه» . وفى نسخة جاة التى نقل عنها شيخو : «فإن خلالا ينبغى لصاحب الدنيا أن يقتبسها : منها ألا يعيب أحداً بشئ هو فيه فيكون كالأعمى . . .»

(٥) ص ٨ : فى النسخ الأخرى أن التاجر ظن صديقه قد نسى الرداء فاستحسن أن يضع رداء صديقه على سمسمه ليجده صاحبه حيث يحب .

(٦) ص ٩ : فى النسخ الأخرى أن التاجر الآخر جاء فلم يجد عدل صاحبه . فاغتم وعزم على أن يغرمه من ماله . ثم جاء الشريك الخائن فسأل صاحبه عن حزنه فلما أخبره اعترف بما فعل . فضرب له صاحبه مثل اللص الذى أراد أن يسرق خابية مملوءة ذهباً فأخذ أخرى مملوءة بُرا . — وذلك تمثيل غير مستقيم ، والظاهر أن ما يزيد على ما فى نسختنا من تصرف بعض القراء .

(٧) ص ١١ : تفصيل هنا فى نسخة اليازجى : «ومن كان سعيه لدنياه خاصة فحياته عليه، ومن كان سعيه لآخرته فحياته له» .

(٨) ص ١٢ : هنا تذكر النسخ الأخرى قصة "تاجر السمسم وشريكه" التى تقدمت فى ص ٨ ومابعدها.

(٩) ص ١٢ : هنا تذكر النسخ الأخرى مَثَل ثلاثة إخوة أسرف اثنان منهم فأتلفا مالهما وأحسن الآخر القيام على ماله فنفع أخويه ، ثم مَثَل الصياد الذى رأى صدفة فظنها لؤلؤة فترك شبكته وفيها سمكة كبيرة . فلما وجد الصدفة فارغة ندم على تضييع ما فى يده . ثم وجد صدفة أخرى فيها لؤلؤة فأعرض عنها حرصاً على سمكة صغيرة فى شبكته . ومرّ صياد آخر بالصدفة فأصاب فيها لؤلؤة عظيمة .

(١٠) ص ١٢ : هذه الخاتمة تذكر فى نسخة اليازجى فى صيغة تخالف ما هنا بعض المخالفة ، ولا تذكر فى النسخ الأخرى . وهى ذات قيمة فى تبيين الباب الذى زاده ابن المقفع (انظر المقدمة) .

باب توجيه برزويه إلى بلاد الهند

(١) ص ١٣ : لا يصدّر هذا الباب بقول بزرجهر إلا فى نسختنا ونسخة شيخو. وفى الترجمة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد ، أول هذا الباب : « يقول أبو الحسن عبد الله بن المقفع » . وهذه المقدمة تأتى أثناء الباب على لسان برزويه فى نسختى اليازجى وطبارة .

(٢) ص ١٤ : هنا تنتهى مقدمة هذا الفصل التى تتفق فيه نسختنا والنسخة المصرية ونسخة شيخو بعض الاتفاق . وأما نسختا اليازجى وطبارة فليس فيهما من هذه المقدمة إلا تمهيد فى بضعة أسطر ثم تذكر فيهما هذه المقدمة أثناء الفصل على أنها من كلام برزويه حينما اختاره كسرى للسفر .

(٣) ص ١٤ : تتفق النسخ هنا فى الحديث عن أنوشروان ولكن تختلف فى السياق اختلافاً كبيراً . والعجب أن أقرب النسخ إلى نسختنا هنا النسختان اللتان تخالفانها كل المخالفة فى مقدمة الفصل : وهما نسختا اليازجى وطبارة .

(٤) ص ١٦ : فى الأصل : « أدزهرير » ، ونظنها محرفة عن « آذرهربد » أى سادن النار .

(٥) ص ١٧ : لم يذكر اسم هذا الرجل إلا فى نسختنا ونسخة شيخو . وهو فى الثانية : «أدَوَيه» .

(٦) ص ٢٠ : مَثَــــل الزجاجة ليس فى النسخ الأخرى .

(٧) ص ٢١ : وضع الإشارة موضع الضمير هنا يشبه التعبير الفارسى .

(٨) ص ٢١ : الظاهر أن عبارة : « قال برزويه » كررت فى أثناء كلامه تأكيداً .

(٩) ص ٢٢ : فى النسخ المصرية ونسختى اليازجى وطبارة أن هذا الهندى كان خازن الملك . ونظنها زيادة من بعض النساخ يراد بها تفسير تمكّن هذا الرجل من كتب الملك .

(١٠) ص ٢٣ : فى النسخ الأخرى إطناب فى حديث برزويه والملك .

(١١) ص ٢٣ : فى النسخ الأخرى إطناب فى وصف الملك البابَ الذى يضعه بزرجهر ، وفيها طلبُ الملك أن يُجعل هذا الباب أول الأبواب .

(١٢) ص ٢٤ : فى النسخ الأخرى وصف احتفال أنو شروان بقراءة « باب برزويه » .

باب برزويه الطبيب

(١) ص ٢٥ : تتفق النسخ على أن هذا الباب من وضع بزرجمهر ، وتتفق فى سياقه وعبارته أكثر مما تتفق فى البابين السابقين . ونسخة شيخو تضعه بعد "باب بعثة برزويه" ، وقبل "عرض الكتاب لابن المقفع" . والنسخ الأخرى تضعه بعد "عرض الكتاب" ، وتضع هذا بعد "باب بعثة برزويه" (انظر المقدمة) .

(٢) ص ٢٥ : فى النسخ الأخرى أن أبويه أسلماه إلى المؤدب وعمره سبع سنين ، فلما حذق الكتابة نظر فاختار الطب .

(٣) ص ٢٦ : فى النسخ الأخرى : « وفوق فى المال والجاه وغيرها مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولا ولا عملا » .

(٤) ص ٢٨ : مَثَل الدبالة ليس فى النسخ الأخرى .

(٥) ص ٢٩ : من قوله : « فلما خاصمت نفسى » إلى قوله فى ص ٣٠ : « فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا » ناقص فى النسخ الأخرى إلا نسخة شيخو . وكأنه حذف لما فيه من الكلام عن الأديان وغيرها . ولهذا يرى بعض الناس أن هذا الباب كله من وضع ابن المقفع ، أراد أن يشكك به الناس فى الدين (انظر المقدمة) .

(٦) ص ٣٠ : كلمة «الذى» هنا تشبه أن تكون ترجمة الكلمة « كه » الفارسية ، وهى تكون بمعنى الذى وتأتى للتعليل والتفريع ، وينبغى أن يكون موضعها هنا : فقد زعموا . وفى النسخ الأخرى : «زعموا فيه» أو «فى شأنه» ، وهذا تصحيح للجملة بذكر الضمير العائد على الموصول لتوافق النحو العربى .

(٧) ص ٣٥ : فى النسخ الأخرى : « كما يعهد الوالد لولده » ، وكأنها توضيح الجملة التى فى نسختنا .

(٨) ص ٣٦ : هذه العبارة تشبه العبارة الفارسية التى يؤتى فيها باسم الإشارة ثم الموصول مفسراً له : « آن كه » .

(٩) ص ٣٧ : ليس فى النسخ الأخرى تسمية القاضى ولا المدينة . ولم نجد اسم هذا القاضى فى كتب الأدب العربية والفارسية .

(١٠) ص ٤٢ : فى نسخة اليازجى : « فأقمت على هذه الحال واتجهت إلى بلاد الهند فى طلب العقاقير والأدوية ثم عدت إليها فى انتساخ هذا الكتاب وانصرفت منها إلى بلادى » . وهو كلام له خطره فى الدلالة على معرفة برزويه ببلاد الهند وذهابه إليها من قبل (انظر المقدمة ، باب بعثة برزويه) .

باب الأسد والثور

(١) ص٤٣ : فى السريانية الحديثة : «دبدهرم» ويظن أنه محرف عن «دبشرم» . وهو فى السنسكريتية: « دِرْمِشَرْمَنْ » . ويسهل تحريفها فى الفهلوية إلى « دبشلم » . وفى بعض المخطوطات العربيــة : « دبشلم » و « ودبشلم » .

(٢) ص ٤٣ : هو فى السريانية الحديثة : « نبدرب » . وهو محرف عن « بيدبا » أو « بيدبا » ، على اختلاف النسخ العربيــة . ويقابله هــذا الاسم فى الأصل الهنــدى : « رفشنو جرمن » .

(٣) ص ٤٣ : فى نسخة شيخو : « دستبا » ، وفى النسخ الأخرى : « دستاوند » . وفى بعض المخطوطات : « دستاباد » و « دستا » ، وكأن هذا تحريف عن « دستاباد » . وفى الهندية : « دَكِشنابابَا » ، وهو اسم إقليم الدكن .

(٤) ص ٤٣ : فى النسخ الأخرى : « حرفة يكسبون منها لأنفسهم خيراً » . وكأن هذه الجملة وضعت موضع جملة « تردّ عليه وعليهم » لأنها أوضح منها .

(٥) ص ٤٤ : فى النسخ الأخرى : « انبثق البثق الذى لا يصلح » .

(٦) ص ٤٤ : فى النســخ الأخرى اسم الأرض : « ميون » . وفى السريانية : « متوا » . وفى الأصل الهندى "پنچا تنترا" : «مثورا» ، وهى مدينة جنوب أجرا تسمى الآن مترا . فنسختنا أقرب إلى الأصل .

(٧) ص ٤٤ : يتبين من مقارنة المخطوطات ومن الرجوع إلى الأصل الهندى أن « شنزبة » أقرب إلى الصواب من «شترية» والصيغ الأخرى .

(٨) ص ٤٤ : جاءت هــذه الكلمة فى المخطوطات بصور مختلفة ، وأقربها إلى الأصل الهندى: « تنده » ، ولكن النسخ العربية كلها تزيد باء فى آخر الكلمــة وكأنها للمجانسة بين « شنزبة » و « تندبة » . فأقرب الصيغ إلى الصواب بعد هذه المجانسة هى « تندبة » .

(٩) ص ٤٥ : هذا المثل محكىّ فى النسخ الأخرى على لسان الأجير الذى أخبر التاجر أن الثور مات . وهو ناقص فى نسخة شيخو والسريانية الحديثة .

(١٠) ص ٤٥ : فى النسخ الأخرى أن الرجل بعد أن أخرج من الماء رأى بيتاً منفرداً فأوى إليه فإذا جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق

على رجل وهم ينتقمون ماله ويريدون قتله . . . الخ .

(١١) ص ٤٥ : توافق نسختنا فى هذه الجملة : « وجعل يحك . . . الخ » النسخة السريانية الحديثة . وهى ليست فى النسخ الأخرى .

(١٢) ص ٤٥ : ليس فى النسخ الأخرى تسمية الأسد . وهو فى الهندية : «پنگلكه» ، ومعناه الأصهب . وفى نسختنا : «شكله» . والظاهر أنها تحريف « بنكلة » ، وهو اختصار الاسم الهندى .

(١٣) ص ٤٦ : « كليلة » ذكر فى الأصل باسم « كَرَتَكَا » . واللام والراء فى الفهلوية لهما صورة واحدة . فمن اليسير أن تحرف الراء إلى اللام . وكذلك لا يبعد أن تحرف التاء إلى الياء . وأما إبدال الكاف الأخيرة هاء فهو شائع بين الفهلوية والفارسية الحديثة . و « دمنة » ذكر فى الهندية باسم « دَمَنَكَه » . وهما فى النسخة السريانية : « كَليلَكْ » و « دِمنك » .

(١٤) ص ٤٩ : يستعمل الكاتب « السلطان » فى معنى الجمع . وهو استعمال قديم . جاء فى كتاب "الكامل" للمبرد حكاية عن الأحنف ابن قيس : « ولا جئت باب أحد من هؤلاء ، يعنى السلطان ، ما لم أدع إليه » . وقد دعا هذا الاستعمال بعض اللغويين إلى ادعاء أن « السلطان » جمع « سليط » . والظاهر أن النسخ الأخرى حرفت الكلام لتجعل السلطان مفرداً فى كل المواضع . وهذا وأمثاله مما تمتاز به نسختنا (انظر المقدمة) .

(١٥) ص ٤٩ : فى النسخ الأخرى ، ما عدا شيخو ، وضعت كلمة « توفيقك » بدل « رفقك » ، والظاهر أنه تحريف أدى إليه جهل الناسخ بمعنى « الرفق » ههنا .

(١٦) ص ٥١ : فى الأصل : «لقرابته» . وفى النسخ الأخرى : «لجلسائه» . والظاهر أن جهل الناسخ بمعنى « قرابين » أدى إلى تحريفها إلى «قرابته» فى نسختنا ، وإلى إبدالها « بجلسائه » فى النسخ الأخرى . فلذلك وضعنا كلمة « قرابين » مكان « قرابة » فى هذا الموضع وغيره .

(١٧) ص ٥٢ : فى الأصل وشيخو : « يصونها » . وفى النسخ الأخرى : « يضربها » ، وقريب من هذا فى السريانية الحديثة .

(١٨) ص ٥٢ : فى الأصل : « يجوز » . وفى السريانية الحديثة : « يجب » ، وهو أقرب إلى سياق الكلام فلذلك أثبتناه هنا .

(١٩) ص ٥٣ : يذكر فى النسخ الأخرى

الأمران الأول والثاني فقط ، وفي شيخو : « المتكلم على المتكلم » بدل « القيل على القيل » . وكأن هذا نشأ من تحريف كلمة « القيل » إلى « القيل » بالقاف . وفي السريانية الحديثة : « الرجال على الرجال ، والفيلة على الفيلة ، والملمين على المعلمين » .

(٢٠) ص ٥٤ : في النسخ الأخرى إلا شيخو ، أن دمنة قال للأسد : ليس من كل الأصوات تجب الهيبة . فقال الأسد : وما مثل ذلك ؟ فقص دمنة مثل الثعلب والطبل . وظاهر أن ما هنا أقرب إلى سياق الكتاب ؛ أعني أن دمنة يشير إلى المثل ، والأسد يطلب منه أن يقصه .

(٢١) ص ٦٢ : في النسخ الأخرى : « فإن إفراطه في أمر الثور » أو « . . . في تقريب الثور » .

(٢٢) ص ٦٧ : جملة « وأنا أفرق منه » مأخوذة من شيخو لتصحيح سياق الكلام . وعبارة شيخو : « هذا مكان الأسد وأنا أفرق منه إلا أن تحملني في حضنك فلا أخافه حتى أريكه » .

(٢٣) ص ٧٥ : في الأصل ونسخة شيخو : « مثل البغى كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه » ، وقد غيرنا العبارة لشناعتها .

(٢٤) ص ٧٧ : من أول السطر التاسع صفحة ٧٧ إلى « ساعة من نهار » صفحة ٨٣ س ١٣ ، صفحات ساقطة من الأصل . وقد أخذناها من نسخة شيخو وهي أقرب النسخ إلى نسختنا .

(٢٥) ص ٧٨ : في النسخ المصرية ونسخة طبارة : « من العلل التي وضعت عليها الأقدار » . وفي نسخة اليازجي : « بالعلل التي اتفقت لها » . وعبارة هذه النسخة المنقولة عن نسخة شيخو أقرب إلى أسلوب الكتاب في مثل هذا الموضع (انظر قوله : « ولكل سبب علة ، ولكل علة مجرى » صفحة ١٤ س ٧) .

(٢٦) ص ٨٤ : هذه الجملة : « إنه ليس من شيء أشد معرفة الخ » ليست في النسخ الأخرى ما عدا شيخو . وفي نسخة شيخو : « ليس شيء أقل معرفة لنفسه من الإنسان » . وفي منظومة ابن الهبارية :

قد قيل أقوى الناس جمعاً معرفه
عارف قدر نفسه بلا صفه (سفه ؟)

وفي ترجمة نصر الله بن عبد الحميد : « خويشتن شناسي نيكوست » أي معرفة النفس حسنة . ويرى القارئ أن ذكر الإنسان هنا لا يخلو من غموض .

(٢٧) ص ٨٦ : العنقاء التي تسمى بالفارسية : « سيمرغ » ، مكانة في أدب الإيرانيين والآريين

عامة . (انظر التعليقات على الترجمة العربية للشاهنامه صفحة ٥٦ وصفحات أخرى مبينة فى الكشاف وهو فهرس الأعلام) .

(٢٨) ص ٨٧ : ذكر « التماسيح » هنا ليس مستغرباً ؛ فإن أنهار الهند فيها تماسيح حتى ظن بعض القدماء أن نهر السند والنيل متصلان ، لما فى السند من تماسيح .

(٢٩) ص ٩٢ : فى عبارة الأصل هنا خلل ونقص تداركناهما من النسخ الأخرى . وعبارة الأصل : « أنى كنت توخيت أعظم ما أقدر عليه من الروح خوفاً حتى أصيبه » .

(٣٠) ص ٩٢ : محاورة الحب وأبيه ، ومثّل العلجوم والأسود ، ليسا فى النسخ المصرية ونسخة طبارة .

(٣١) ص ٩٢ : فى الأصل : « انظر إلى جحر ابن عرس . . . الخ » . وقد صححناه بما يوافق سياق الكلام ويفهم من النسخ الأخرى .

(٣٢) ص ٩٤ : ليس فى النسخ الأخرى تسمية الأرض ، ولكن فيها : « أرض كذا » . وكذلك تحذف من النسخ الأخرى كثير من أسماء البلاد والأشخاص . وفى هذا تمتاز نسختنا أيضاً .

(٣٣) ص ٩٦ : هذه الخاتمة تنفرد بها نسختنا .

باب الفحص عن أمر دمنة

(١) ص ٩٩ : هذا الباب يحسب من زيادات النسخة العربية لكتاب "كليلة ودمنة" فهو لا يعرف فى الأصل الهندى ولا الترجمة السريانية القديمة ، ويظن بعض الباحثين أنه لم يكن فى الترجمة الفهلوية أيضاً (انظر المقدمة) .

الباب كله : كيف اتُّهم دمنة وكيف دافع عن نفسه وكيف عُرف أمره وكيف عوقب . ونسختنا أوجز من النسخ الأخرى فى هذا السؤال كما أنها لا تشير فى آخر الباب السابق إلى موضوع هذا الباب .

(٢) ص ٩٩ : فى النسخة السريانية الحديثة يطول سؤال الملك فيتضمن الاستفهام عن موضوع

(٣) ص ١٠٢ : فى الأصل : « فان الكلام لزم المجرم فى رقع منتفع شركه إياه فيه » .

وهى عبارة محرّفة مختلة ، وقد صححناها جهد الطاقة فى العبارة التى هنا .

(٤) ص ١٠٣ : سقطت فى نسختنا الكلمات التى بين « أخبرها » آخر ص ١٠٢ و «فأخبرته» أول صفحة ١٠٣ . فتداركناها من شيخو على قدر الضرورة .

(٥) ص ١٠٤ : وَضع اسم الاشارة موضع الضمير فى قوله : « فنونا يغلب على أكثر ذلك الخطأ » يشبه التعبير الفارسى .

(٦) ص ١٠٥ : كان فى الأصل : « رغبة الملك » بالأفراد مع إعادة الضمير جمعاً فيما بعده . وليس هذا بعيداً من أسلوب الكتاب وأساليب الفرس ولكن لم نثق بعبارة الكتاب لكثرة تحريفها فغيرنا كلمة «الملك» إلى «الملوك» مجاراة للنسخ الأخرى . ولعلها كانت فى الأصل : «السلطان» وهو يستعمل جمعاً فى هذا الكتاب .

(٧) ص ١٠٦ : كلمة « إسلام » ليست فى النسخ الأخرى ولعلها من سهو واضع هذا الباب . وربما تعدّ من الأدلة على أن هذا الباب موضوع فى العربيـة ابتداء (انظر المقدمة) .

(٨) ص ١٠٧ : فى نسخة شيخو اسم المدينة : « تاروون » ، واسم التاجر : « حيل » . وليس فى النسخ الأخرى العربية تسمية المدينة ولا التاجر . واسم التاجر فى السريانية : « بكيزيب » .

(٩) ص ١١٣ : إن لم تكن « منه » محرفة عن « عنه » فهى ترجمة الكلمة الفارسية « أز » التى تأتى بمعنى من و عن وتستعمل فى مثل هذا التركيب (انظر صفحة ١١٩ س ٢) .

(١٠) ص ١١٤ : فى النسخـة السريانية الحديثة : « فى مدينة ساحلية من مدن الحبشة » . ونسخة شيخو توافق نسختنا . وليس فى النسخ الأخرى تسمية المكان .

(١١) ص ١١٥ : فى شيخو والسريانية : « فتكلم صاحب المـائدة » . وفى ابن المبارية : « الخباز » . وفى النسخ الأخرى : « سيد الخنازير » . واتفقت النسخ على أنه صاحب المائدة . ونحسب أن عمله هنا قد يسّر أن تحرف « الخنازير » إلى « الخبازين » ، والكلمتان متشابهتان خطاً .

(١٢) ص ١١٧ : اسم المدينة فى نسخة شيخو : « بورخشت » . وليس فى النسخ الأخرى تسمية المدينـة . وفى النسخة العبرية : « مَروات » .

(١٣) ص ١١٨ : ليس فى النسخ الأخرى تسمية هذا الأمين . وفى نسختى اليازجى وطبارة والنسخ المصرية أنه « شهر » كان الملك ائتمنه . وفى العبرية : « شهرج » . ويظهر أن « شهر » فى النسخ الأخرى محرف عن هذا الاسم .

(١٤) ص ١١٨ : فى النسخة السريانية الحديثة والنسخ الأخرى : « رُوزبه » بدل « فيروز » . وهذا اختلاف جدير بالنظر « فان ابن المقفع فيما يقال كان اسمه « رُوزبه » . والظاهر أنه لا يستحسن وضع اسمه فى مثل هذه القصة . « فيروز » أقرب إلى الصواب من « روزبه » هنا . وقصة فيروز هذه ليست فى نسخة شيخو .

(١٥) ص ١١٩ : وهذا مثل آخر من استعمال هذه العبارة : «يذكر منه» ، وهى شبيهة بالتعبير الفارسى .

(١٦) ص ١٢١ : فى السريانية : « مازَرب » . وليس فى النسخ الأخرى تسمية المدينة . والقصة كلها ناقصة فى شيخو .

(١٧) ص ١٢١ : « البازيار » كلمة فارسية معناها القائم على البزاة المعدة للصيد .

(١٨) ص ١٢٢ : فى النسخ الأخرى أن صاحب الدار سأل الضيوف عما يقول البيغاوان فامتنعوا أن يُخبروه فألح عليهم حتى أخبروه . والنسخة السريانية الحديثة توافق نسختنا .

(١٩) ص ١٢٣ : من قوله « ولما شهد النمر » إلى قوله « فلما كررت أم الأسد » منقول من نسخة شيخو ، وهو موافق للنسخ كلها . وهو مقتضى سياق القصة فقد أراد واضعها أن يأتى بشاهدين على إقرار دمنة بذنبه . ولذلك نجد فى النسخ الأخرى أن الأسد سأل النمر والسبع : ما منعكما من الشهادة ؟ فاعتذرا بأن شهادة الواحد لا توجب حكماً . وفى نسخة شيخو أن الذى سئل هذا السؤال هو السبع المسجون وحده .

باب الحمامة المطوقة

(١) ص ١٢٥ : فى النسخ الأخرى : « أرض سكاوندجين » عند مدينة داهر » . وقد وقع فى النسخ العربية والسريانية تحريف كثير فى هذين الاسمين . وأصلهما فى السنسكريتية : «دكشيناباتا»

و « مارِهلاروبيا » (انظر مقدمة النسخة السريانية لرَيْت The Book of Kalilah and Dimnah ص XVIII) . وليس فى شيخو تسمية الأرض ولا المدينة .

(٢) ص ١٢٦ : ليس فى النسخ الأخرى تسمية الغراب .

(٣) ص ١٢٧ : «زيرك» بالفارسية : الذكى .

واسم الفأر فى الأصل الهندى : « هِرَنيا كا » .

(٤) ص ١٣٣ : ليس فى شيخو وابن المبارية تسمية المدينة . وفى السريانية : «مأزرب» . ويرى رَيْت أنها محرفة عن «مهراروب» أو «مارِهلاروبيا» التى تقدمت فى رقم (١) من هذا الباب . وفى النسخة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد : «مدينة نيشابور» ، وظاهر أنه تغير من الناسخ . يقارن هذا الاسم بفاروات (ص١٢١) وماروات (ص١٢٥) .

باب البوم والغربان

(١) ص ١٤٨ : ليس فى النسخ الأخرى تسمية الشجرة .

(٢) ص ١٤٩ : فى الأصل : « فاذا أقبل عدونا لقيناه حتى نصيب منه غرة » . ويظهر من قول الوزير الثالث فى هذه الصفحة : « ولعمرى ما مدافعة الأيام والليالى . . . الخ » أنه سقطت جملة فيها ذكر المدافعة . لذلك أخذنا من نسخة شيخو ما يستقيم به السياق . وهذه الزيادة فى النسخ الأخرى أيضاً .

(٣) ص ١٥٠ : هممنا بأن نحذف « يكن » من هذه الجملة ثم رأينا أنها تشبه أن تكون من أثر الترجمة الفارسية . فان استعمال الفعل « يكون » مألوف فى مثل هذا التركيب بالفارسية .

(٤) ص ١٥٠ : هذه الجملة : « من يواكل الفيل يواكل الحيف » من عجائب التحريف فى هذا الكتاب فهى فى شيخو : « من يرى كل القتل يرى الخير » . وفى نسختنا : « من يرا كل القتل يرا كل الحيف » . وقد رجعنا إلى السريانية فاذا فيها : « من يقارب الفيل يهرب من نفسه » . فحزرنا أن « القتل » محرفة عن « الفيل » ، ورجعنا إلى ابن المبارية فاذا فيها :

فان من واكل فيلا هائلا
فللبـــلاء والشقاء واكلا

فعرفنا أن « يرا كل » محرفة عن « يواكل » وصححنا الجملة . وفى الترجمة الفارسية : « هركه

بابيل در آورند زبر آيد » أى من يتعلق بالفيل يُصرع .

(٥) س ١٥١ : فى الأصل : « لم يقبض المحتال ولا المحب » . وفى شيخو : « لم يقبض للجهال ولا للحبيب » . وكلتا العبارتين محرفة . وقد عرفنا بمعونة النسخة الفارسية أن الصواب ما أثبتناه هنا .

(٦) س ١٧٣ : فى شيخو : « مثل زنمة العنز التى تتصيدها الحدأة فلا تجد فيها خيراً » . والظاهر أنها محرفة عما فى النسخ الأخرى : « زنمة العنز التى يمصها الجدى وهو يحسبها حلمة الضرع فلا يصادف فيها خيراً » .

باب القرد والغيلم

(١) س ١٧٥ : فى النسخ الأخرى ما عدا شيخو : « ماهر » . وفى شيخو : « قاردين » وهو تحريف « فاردين » . وفى السريانية الحديثة : « باردين » ، وتعريبها : « فاردين » كما فى نسختنا . وفى السريانية القديمة : « بوليكيك » . وفى السنكريتية : « زكتا موخا » . فالاسم « فاردين » تتفق عليه نسختنا وشيخو والسريانية الحديثة .

(٢) س ١٧٦ : فى السريانية أن زوج الغيلم كتبت إليه أنها مريضة مُشفية على الموت ، وأن القرد أشار عليه أن يلتمس لها الدواء ويذهب إليها .

(٣) س ١٧٩ : فى الأصل : « فلما رأى القرد احتباس الغيلم قد رجع عما كان عليه » . وقد تداركنا السقط من النسخ الأخرى .

باب إيلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند

(*) س ١٨٩ : هذا الباب مؤخر عن هذا الموضع فى النسخ الأخرى إلا فى نسخة شيخو . يفصل بينه وبين "باب الناسك وابن عرس" ثلاثة أبواب فى النسخ المصرية ، وأربعة فى نسختى اليازجى وطبارة . وهنا يبدأ اختلاف النسخ فى ترتيب الأبواب ، بعد اتفاقها على الأبواب الخمسة التى يتضمنها الأصل الهندى "پنچا تنترا" (انظر المقدمة) . وعنوان هذا الباب فى الأصل : « باب ابلاد وبلاذ وشادرم » ، وقد وضعنا « إيراخت » بدل « بلاذ » مراعاة لمتن الكتاب . وفى شيخو : « باب

إيلاذ وشادرم وإيراخت » . وفى النسخ الأخرى العربية : « باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت » . وفى ابن المبارية : « باب هيلار ملك الهند ووزيره بيلار » . وفى السريانية : « باب بيلار الحكيم » .

(١) ص ١٩١ : فى النسخ اختلاف فى أسماء الملكة وابنها والكاتب الخ . فمن شاء فليرجع إلى ترجمة نُلْدِكَه صفحة ٣٠٤ ومقدمة رَيْت للنسخة السريانية صفحة XX . « إيراخت » تسمى فى النسخة السريانية الحديثة « إيلار » ولا يبعد أن يكون محرفاً عن «إيراخت» فى الخط الفهلوى . والابن «جوبر» يسمى فى السريانية : «جور» ، وهو فى السنسكريتى : « جوبالا » .

(٢) ص ١٩١ : فى الأصل ونسخة شيخو وابن المبارية والنسخ الأخرى : « كال » ولكن يتبين من كلام رَيْت أن أصله « كا كا » ، وأن تعريبه « كاك » .

(٣) ص ١٩١ : فى الأصل : « كباناپرون » على اختلاف الإعجام أثناء الباب . وفى شيخو : «كنان ابزون» . وفى ابن المبارية : «كبار» ، وهو اختصار « كباربون » الذى فى النسخ الأخرى . وفى السريانية القديمة : «كتارون» . وفى الحديثة ما فى القديمة ، وأحياناً «كيا كرون» و « كيابرون » . والأصل السنسكريتى : « ماها كاتيايتا » فأصح قراءة للصورة التى فى نسختنا هى « كتاياپرون » .

(٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) ص ١٩٦ ، ١٩٧ : فى هذه الأسماء اختلاف كثير فى النسخ وقد وضع لها رَيْت جدولا فليرجع اليه (ص XXII من مقدمة النسخة السريانية الحديثة) .

(١٠) ص ١٩٧ : عبارة « الهدايا التى قال كتاياپرون » فيها أثر محاكاة التعبير الفارسى الذى يحذف فيه عائد الموصول .

(١١) ص ٢٠٠ : هى فى شيخو : « كورقناه » . وفى نسخة دى ساسى والنسخ الأخرى المطبوعة : « حورقناه » . وفى بعض النسخ : « جورقناه » . وفى السريانية الحديثة : « كُلباه » . والظاهر أن الصواب : « كُلبناه » . وأقرب صيغة لهذه ، بعد النظر إلى الخط الفهلوى وإلى التعريب ، هى « جوربناه » كما فى نسختنا . وما فى النسخ الأخرى محرف عنها .

(١٢) ص ٢٠٨ : عطف « يدفعها » على « تسقط » غير مستقيم فى المعنى . وفى شيخو : « يقول إن سقطت السماء حبستها برجلى » .

(١٣) ص ٢١٠ : فى الأصل : «ستة نفر» ،

ولكن مقتضى السياق وموافقة النسخ الأخرى يجعلها « سبعة » .

(١٤) ص ٢١١ : ليس فى نسختنا الجملتان

اللتان فيهما « الغضب » و « الهم » من هذه الأشياء السبعة . والظاهر أنهما سقطتا ، وقد نقلناهما عن شيخو ليتم العدد .

باب مهرايز ملك الجرذان

(١) ص ٢١٧ : هذا الباب ليس فى النسخ المطبوعة ولا النسخة السريانية . وقد ألحقه شيخو بنسخته . ولغته وأسلوبه يشهدان أنه ليس من كتابة ابن المقفع . وإنما أثبتناه محافظة على النسخة التى اخترناها للطبع ، وتوطئة للبحث فى أبواب الكتاب الأصلية والزائدة . وأبقينا عباراته السقيمة على حالها إلا ما كان محرّفا .

(٢) ص ٢١٧ : فى ملحق شيخو اسم الأرض : « دوران » ، واسم المدينة

« ايدزينون » .

(٣) ص ٢١٨ : اسم هذا الوزير فى ملحق شيخو : « زوذامه » .

(٤) ص ٢٢١ : هذا المثل عرف فى الأدب العربى فى عهد بشار بن برد الشاعر . وقد نظمه حين اقترح عليه ذلك :

فصرت كالعير غدا طالباً
قرناً فلم يرجع بأذنين

باب السنور والجرذ

(١) ص ٢٣٠ : هذا الباب مذكور فى " المهابهارتا " . واسم الشجرة التى فى أصلها جحرا الجرذ والسنور ، فى النسخة السريانية الحديثة : « بيروز » ، وفى القديمة : « بيرات » . وبين هذين الاسمين واسم الشجرة التى ذكرت فى نسختنا (باب البوم والغربان ص ١٤٨) مشابهة . وكأن

أحد الاسمين محرف عن الآخر أو هما محرفان عن أصل واحد .

(٢) ص ٢٣٠ : فى النسخة السريانية الحديثة اسم القط : «رومى» ، واسم الفأر : «أفريديون» . وفى السريانية القديمة : « بريد » و « روما » .

(٣) ص ٢٣٥ : ما بين كلة « الاسترسال » فى هذا السطر والذى قبله » ساقط من نسختنا ، وقد نقلناه عن نسخة شيخو .

باب الملك والطير قبرة

(١) ص ٢٣٧ : هذه القصة مذكورة فى "المهابهارتا" . واسم الطائر فى النسخ الأخرى : «فنزة» أو «ِفنزة» أو « فنزُة» ، غير مشكول . وهو فى النسخة السريانية الحديثة : «بنزه» ، وفى القديمة : « بيزوه » ، وهى صيغ أدى إليها التحريف . وأصلها فى السنسكريتية : «پوزانى» . و «ِفنزة» أقرب الصيغ إلى الأصل ؛ ولكننا لم نشأ تغيير الاسم « قـبّرة » الذى فى نسختنا لأنه قديم يرجع إلى عصر ابن المبارية على الأقل . جاء فى منظومة "كليلة ودمنة" لهذا الشاعر :

طـير يربّيه يسمى قبّره
كدمية فى حائط مصوّره

(٢) ص ٢٣٧ : فى النسخة السريانية الحديثة وبعض النسخ العربية ، أن هذا الملك كان فى كشمير . وكأنها محرفة أو مبدلة من الاسم الذى فى السريانية القديمة : «كامبليا » . واسم الملك فى النسخ العربية المطبوعة : « بريدون » . وفى الفارسية : «ابن مدين» . وفى السريانية الحديثة : «برمزير» . وفى القديمة : «برمشرين» . ويظن أن هذه الصيغ كلها ترجع إلى السنسكريتية : «برَهمَدَتّا» . ومن البين أن أقرب الأسماء إلى الأصل السنسكريتى ما فى نسختنا : «برهمود» . وتوافقها منظومة ابن المبارية :

قال نعم كان لبَرْهمود
الملك المعظم المحسود

باب الأسد وابن آوى

(١) ص ٢٤٦ : جملة « ثم عليهم — سيئاً » ساقطة من الأصل ، ونقلت عن شيخو .

(٢) ص ٢٤٧ : « وإنما صحبتكم بنفسى » كذلك جاءت فى النسخ الأخرى ، والأشبه بالصواب ما فى المنظومة :

وإنما صحبتكم بجسمى
ليس بقلبى وبصدق عزمى

(٣) ص ٢٥٣ : جملة « لم يزل ذلك عادةَ الارذال والانذال حسدُ أهل المروءة » فيها رائحة العبارة الفارسية ؛ يؤتى باسم الاشارة ثم يفسر .

باب السائح والصواغ

(١) ص ٢٦٢ : « وأخذ ابن عرس فأدخله فى كمه والطير فوضعه على يده » هذه الجملة ليست فى نسختنا وقد نقلناها من شيخو بعد تصحيحها ، لأن السياق يقتضيها ولأن النسخ متفقة على معناها . والمراد أن الانسان قد يحذر الناس ويأمن الحيوان فيدخله فى كمه أو يضعه على يده . وفى اليازجى : « وأخذ ابن عرس فأدخله فى كمه وأخرجه من الآخر وأخذ الطير الجارح فوضعه على يده ، فاذا صاد شيئاً أبقى له منه نصيباً » .

وقريب منه فى عبارة والمصرية .

(٢) ص ٢٦٣ : اسم هذه المدينة فى النسخ العربية المطبوعة إلا نسخة شيخو : « نوادرخت » . وليست مسماة فى السريانية .

(٣) ص ٢٦٥ : « فلما سمع الملك ذلك من ابنه : أنّ شفائى » . فى الجمع بين « ذلك » و « أن » فى هذه الجملة محاكاة للعبارة الفارسية . وقد تقدم أمثال هذا (انظر المقدمة) .

باب ابن الملك وأصحابه

(١) ص ٢٦٧ : « وإنما يريدان أدنى علة الخ » ليس فى النسخ المطبوعة هذه الجملة أو ما يقابلها . وفى نسخة شيخو : « فإنما يريدان عليه فيميلان صاحبه أو يهلكانه » . وفى نسختنا : « يريدان أدنا عله » . وهى محرفة عن « يريدان أدنى علة » . ودليل هذا ما فى منظومة ابن المبارية :

لكنه يريد أدنى سبب
وموجب يوجب كل موجب

(٢) ص ٢٦٧ : اسم المدينة فى النسخ الأخرى إلا نسخة شيخو : « مطرون » . وفى شيخو : « مطون » . وفى منظومة ابن المبارية : « قطون » . وفى الفارسية : « لسطور » . وفى نسختنا : « مطرن » . والظاهر أن الراء فيها محرفة عن الواو لاتفاق النسخ على هذا الحرف . وليس فى السريانية تسمية للمدينة .

(٣) ص ٢٧٠ : « فسأله رجل فقال » هذه الجملة تذكر بالتعبير الفارسى : « پر سيده گفت » .

(٤) ص ٢٧٠ : اسم المدينة فى نسخة شيخو : «قرونادد» . وفى النسخ الأخرى: « قوران » . وليست مسماة فى السريانية .

(٥) ص ٢٧٠ : « وتركوا التاج على رأسه » استعمال « تركوا » هنا يشبه التعبير الفارسى « گذاشتند » .

باب اللبؤة والشعهر

(١) ص ٢٧٥ : فى النسخ كلها إلا نسخة طبارة : « الشعهر » . ولم أجده فى كتب اللغة . وفى نسخة طبارة : « الشعبر » . وهو كما فى كتب اللغة ، ضرب من بنات آوى . وهذا الباب ناقص من منظومة ابن المبارية .

(٢) ص ٢٧٥ : فى الأصل : « اعتبروهم الآخرون » . وفى نسخة شيخو : « فان سلم بعضهم من بعض لفتنة عرضت قبل نزول وبال ما صنعوا اغتر بهم الآخرون » . وفى نسخة اليازجى : « وإن سلم بعضهم من ضرر بعض باتفاق عرض له قبل أن ينزل به وبال ما صنع لم يسلم فى كل مرة » . ونسخة طبارة والنسخ المصرية توافق نسختنا فى المعنى . فاختلاف النسخ بين كلمة « منية » و « فتنة » ، وكلمة « اعتبر » و « اغتر » .

(٣) ص ٢٧٦ : فى الأصل : « يجد مثله أو أمثل منه » . وفى شيخو : « أو أفضل منه » . وقد رجحنا رواية شيخو لأن « أفضل » ربما تدل على الزيادة فقط ، و « أمثل » لا تقال إلا فى الخير .


فهرست الكتاب